أسرار الكنيسة السبعة

حبيب جرجس

...تبة المحبة



أسرار الكنيسة السبعة

« الحكمة بنت بيتها . نحتت أعمدتها السبعة » (أم ٩ : ١)

تاليف
حبيب جرجس
مدير الكلية الاكليريكية للأقباط الأرثوذكس سابقا

طبعة رابعة

ملتزم الطبع والنشر
مكتبة المحبة بالقاهرة
٣٠ شارع الفجالة ت : ٩٠٣٨٢٥



حبيب جرجس

تمهيد

١ ـ ماذا يعني بكلمة « سر » في الكتاب المقدس :

لكلمة « سر » في الكتاب معناها الاعتيادي المعروفة به كما في قوله « وعمل بنو اسرائيل سرا » (٢ مل ١٧ : ٩) وقوله : « لا تبح بسر غيرك » (أم ٢٥ : ٩)

غير أن لها معنيين آخرين . فيراد بها أولا كل شيء مقدس وغير منظور كما في الآيات الآتية :

« سر الرب لخائفيه »	(مز ٢٥ : ١٤)
« لدانيال كشف السر »	(دا ٢ : ١٩)
« يعلن سره لعبيده الأنبياء »	(عا ٣ : ٧)
« لتعرفوا أسرار ملكوت السموات »	(مت ١٣ : ١١ ، لو ٨ : ١٠)
« بالروح يتكلم بأسرار »	(١ كو ١٤ : ٢)
« وأعلم جميع الأسرار »	(١ كو ١٣ : ٢)
« لست أريد أن تجهلوا هذا السر »	(رو ١١ : ٢٥)
« السر الذى كان مكتوما »	(رو ١٦ : ٢٥)
« نتكلم بحكمة الله في سر »	(١ كو ٢ : ٧)
« هوذا سر أقوله لكم »	(١ كو ١٥ : ٥١)
« اذ عرفنا بسر مشيئته »	(اف ١ : ٩)
« هذا السر عظيم »	(اف ٥ : ٣٢)
« لأعلم جهارا بسر الانجيل »	(اف ٦ : ١٩)
« ولهم بسر الايمان »	(١ تى ٣ : ٩)
« عظيم هو سر التقوى »	(١ تى ٣ : ١٦)

وتأتى كلمة « سر » فى الكتاب أيضا بمعنى « رمز أو اشارة أو علامة » فقول دانيال فى ص ٢ بعد وصف التمثال الذى رآه نبوخذنصر « ان هذا سر » يعنى به علامة لأمور خفية . اذ يشير الى تعاقب أربع ممالك يظهر بعدها ملك المسيح . وكما جاء فى قول صاحب الرؤيا « سر السبعة كواكب التى رأيت على يمينى والسبع المناير الذهبية . السبعة الكواكب هى ملائكة السبع الكنائس والمناير السبع التى رأيتها هى السبع الكنائس » (رؤ ١ : ٢٠) .

كذلك جاء فى سفر الرؤيا (ص ١٧ : ١ ــ ٧) من وصف الزانية الجالسة على المياه قوله « وعلى جبهتها اسم مكتوب . سر . » وقال الملاك « أنا أقول

لك سر المرأة » أى أفسر لك رمزها . وقال بولس الرسول « لأن سر الاثم الآن يعمل » (٢ تس ٢ : ٧) مشيرا بذلك الى الاضطهادات التى ستقاسيها الكنيسة من الملوك الأثمة . وتلك الاضطهادات رمز لاضطهادات المسيح الدجال .

٢ ـ تعريف السر الكنسى :

أما أسرار الكنيسة فقد جاءت فى الكتاب بمعنى مواهب ولها علامات تشير الى أمور مقدسة خفية .

مثال ذلك قول الرسول عن الزواج « هذا السر عظيم ولكننى أنا أقول من نحو المسيح والكنيسة » (اف ٥ : ٣١) و معنى ذلك أن الاتحاد المحسوس بين الرجل وزوجه علامة أو رمز الى أمر روحى مكنون هو وحدة القلب والروح التى تشبه اتحاد المسيح والكنيسة .

فالسر الكنسى اذن معناه نعمة غير منظورة نحصل عليها عادة بممارسة طقس ظاهر ذى علاقة بها على يد كاهن شرعى .

ويشترط فى علامة السر أن تكون **أولا** شيئا محسوسا **وثانيا** أن تؤدى الى معرفة شىء آخر . لأن العلامة لا توضع للدلالة على نفسها . بل لا بد لها من شىء تشير اليه .

وفى هذا المعنى يقول بولس الرسول عن المعمودية « أم تجهلون أننا كل من اعتمد ليسوع المسيح ، اعتمدنا لموته » (رو ٦ : ٣) كأنه يقول ان طقس المعمودية يشير الى موت المسيح ودفنه وقيامته . وكذلك الحال فى سر الأفخارستيا اذ يقول : « فانكم كلما أكلتم هذا الخبز وشربتم هذه الكأس تخبرون بموت الرب الى أن يجىء » (١ كو ١١ : ٢٦) .

٣ ـ مناسبة الأسرار للطبيعة البشرية :

وهذا الترتيب الذى وضعه الله فى كنيسته موافق ومناسب لطبيعتنا التى مراعاة لجزئها الحسى تميل الى العلامات الحسية فى العلاقات الدينية . ولهذا رتب الله لموسى علامات كثيرة لأجل بنيان شعب اسرائيل فى التقوى . كالختانة ، والكهنوت ، والكفارة ، والحمل الفصحى ، وخبز التقدمة . وكلها علامات حسية تشير الى البر الذى كان عتيدا أن نناله بذبيحة المسيح .

وبناء عليه يكون السر فى اصطلاح الكنيسة عملا مقدسا به ننال نعمة غير منظورة تحت مادة أو علامات منظورة . وهو مرتب من ربنا يسوع المسيح الذى به ننال النعم الالهية .

٤ ـ التشابه بين الأسرار وبين ما تشير اليه :

فأسرار الكنيسة آذن فى مظاهرها الطقسية أعمال تشير الى تطهير النفس وتجديدها بالنعمة • وهى مطابقة للقصد الالهى الذى وضعت من أجله ، اذ يوجد تشابه كلى بينها وبين ما تشير اليه • خذ مثلا الغسل بالماء فى المعمودية ، فانه يشير بأسلوب مناسب الى غسل النفس من أدران المعصية. كذلك الزيت فى سر الميرون وسر مسحة المرضى ، فانه أنسب مادة للدلالة على قوة السر لتسكين أوجاع الجسد وتقويته ، وقس على ذلك بقية الأسرار •

وقد قال بعضهم : كما أنه يوجد فى الطب الجسدى ثلاثة أنواع من الأدوية : نوع يحسم الداء بعد وروده • ونوع يسبق الداء ويقى منه • ونوع يقوى البدن بالاكثار من الجواهر الحيوية التى تمنع ضعفه ، كذلك الأسرار السبعة المقدسة التى أعطانا اياها طبيبنا الروحى ومخلصنا • فانها تقوم بهذه الوظائف الثلاث عينها •

فمنها المعمودية والتوبة ومسحة المرضى ، تعتبر أدوية روحية للشفاء من الخطية الأصلية والخطايا الفعلية • وهى أدوية يحتاج اليها كل الناس •

ومنها الزيجة والميرون ، وهما دواءان للانتصار ، أحدهما للنصرة على الشهوات • والثانى لأضعاف القوى الغضبية • وفى ذلك وقاية وتحصن من الخطايا •

أما الكهنوت وسر القربان ، فانهما ينميان فينا العافية الروحية المكتسبة من الأسرار الأخرى •

على أن من هذه الأسرار ما يرسم على قابليه سمة روحية لا تمحى ولذلك لا يعاد ، وهى المعمودية والميرون والكهنوت • فبالمعمودية نوسم كأبناء الله ، وبالميرون نوسم كجنود لملكهم الأعظم ، وبالكهنوت نوسم كخدام لحبرهم الأعظم •

٥ ــ جوهر الأسرار وفعلها :

وحسب التعريفات المتقدمة تكون الأسرار فى جوهرها هبات ، وبممارسات مقدسة تمنح النعمة الالهية فعلا للمتقدمين اليها • ويتم بواسطتها عمل هذه النعمة فينا • وهذه هى أوصاف جوهرها بناء على ما تقدم :

١ ــ أنها مؤسسة من الله •

٢ ــ أنها ذات هيئة أو صورة •

٣ ــ أنها واسطة لانالة نفوس المؤمنين فيض النعمة •

فليست الأسرار اذن رسوما وعلامات للمواعيد الالهية يقصد بها انهاض الايمان بيسوع المسيح •

ولا هي اشارات للنعمة يتوطد بها المنتخب ويتثبت في الايمان وفي المواعيد الالهية التي نالها ، أو بالحرى هو يوطد الكنيسة بايمانه أكثر مما يوطد نفسه .

ولا هي مجرد طقوس خارجية يتميز بها المسيحي عن غيره .

هذه الآراء الثلاثة (حسب زعم لوثيروس وكلفينوس) ترفضها كنيستنا الأرثوذكسية لأنها مخالفة للكتاب . ولأجل اثبات بطلانها نأتي بالآيات التي تؤيد فاعلية الأسرار ، وتثبت أن هذه الأسرار في جوهرها هبات وبأعمال مقدسة تمنح المؤمنين نعم الله غير المنظورة تحت علامات منظورة . واليك هي :

أولا : ان الكتب المقدسة تقرر هذا الرأي فقد قيل عن المعمودية « ان كان أحد لا يولد من فوق لا يقدر أن يرى ملكوت الله . الحق الحق أقول لك ان كان أحد لا يولد من الماء والروح لا يقدر أن يدخل ملكوت الله » (يو ٣ : ٣ و ٥) ، « المولود من الجسد جسد هو والمولود من الروح هو روح » (يو ٣ : ٦) ، وقول الرسول « كما أحب المسيح أيضا الكنيسة وأسلم نفسه لأجلها . لكي يقدسها مطهرا اياها بغسل الماء بالكلمة . لكي يحضرها لنفسه كنيسة مجيدة ، لا دنس فيها ولا غضن ، أو شيء من مثل ذلك بل تكون مقدسة وبلا عيب » (اف ٥ : ٢٥ ـ ٢٨) وقوله « لكن اغتسلتم بل تقدستم بل تبررتم باسم الرب يسوع وبروح الهنا » (١ كو ٦ : ١١) .

وفي سر الشكر يقول « الحق الحق أقول لكم ان لم تأكلوا جسد ابن الانسان وتشربوا دمه فليس لكم حياة فيكم . من يأكل جسدي ويشرب دمي فله حياة أبدية وأنا أقيمه في اليوم الأخير . لأن جسدي مأكل حق ودمي مشرب حق . من يأكل جسدي ويشرب دمي يثبت في وأنا فيه » (يو ٦ : ٥٣ ـ ٥٦) .

وفي سر الكهنوت يقول الرسول « لا تهمل الموهبة التي فيك المعطاة لك بالنبوة مع وضع أيدي القسوسية » (١ تي ٤ : ١٤) وقوله « أذكرك أن تضرم أيضا موهبة الله التي فيك بوضع يدي » (٢ تي ١ : ٦) .

وعن سر الميرون جاء في سفر الأعمال : « ولما سمع الرسل الذين في أورشليم أن السامرة قد قبلت كلمة الله ، أرسلوا اليهم بطرس ويوحنا اللذين لما نزلا صليا لأجلهم لكي يقبلوا الروح القدس ، لأنه لم يكن قد حل بعد على أحد منهم غير أنهم كانوا معتمدين باسم الرب يسوع . حينئذ وضعا الأيادي عليهم فقبلوا الروح القدس » (أع ٨ : ١٤ ـ ١٧) .

وعن سر مسحة المرضى قال يعقوب الرسول « أمريض أحد بينكم فليدع قسوس الكنيسة فيصلوا عليه ويدهنوه بزيت باسم الرب . وصلاة الايمان تشفي المريض والرب يقيمه . وان كان قد فعل خطية تغفر له » .
(يع ٥ : ١٤ و ١٥)

وعن سر التوبة قال الرب بصريح اللفظ « من غفرتم خطاياه تغفر له . ومن أمسكتم خطاياه أمسكت » (يو ٢٠ : ٢٣) .

وعن سر الزواج قال الرسول « هذا السر عظيم » وشبهه باتحاد المسيح بالكنيسة (اف ٥ : ٣٢) .

فمن هذه الآيات البينات يتبين أن الأسرار المقدسة هى هبات الروح القدس الذى يفيض النعم المبررة فى نفوسنا . فالأسرار تفعل فعلا حقيقيا فى المؤمن المشترك بها ، فان الماء والروح فى سر المعمودية يلده ثانية ويقدسه وينقيه . ومسحة الميرون تمنحه ثباتا وتهبه حلول الروح القدس . وبتناوله سر الشكر يوهب عدم الموت والثبات فى المسيح . وبوضع اليد فى الكهنوت تمنح للمرتسمين نعمة خاصة لتكريسهم لخدمة الأسرار المقدسة بحسب طبيعته وجوهره يفعل فعلا غير منظور ويمنح النعمة لكل من يتقدم اليه .

ولا نقول ان للأسرار فى ذاتها وطبعها قوة لفعل النعمة ؛ لو لم تكن آلات من الله لفعل هذه النعم . فهى اذن بركات فعاله لاصدار النعمة ، وان كانت ليست عللا أصلية الا أنها قوة فى يد الروح القدس .

ثانيا : يظهر ذلك من تعليم الانجيل عن الفرق بين معمودية يوحنا ومعمودية المسيح فان معمودية يوحنا لم تكن سوى معمودية للتوبة والاعداد حسب قوله « أنا أعمدكم بماء للتوبة ولكن الذى يأتى بعدى (أى المسيح) سيعمدكم بالروح القدس ونار » .
(مت ٣ : ١١ راجع أيضا مر ١ : ٧ و ٨ ، لو ٣ : ١٦ ، يو ١ : ٣٣)

فمعمودية يوحنا كانت استعدادا لمغفرة الخطايا ، ولم تكن لها قوة على محو الخطيئة . أما معمودية المسيح فلها قوة غفران الخطايا لأنها تمنح بالماء والروح القدس ، ولما كانت مفاعيل الروح القدس الخاصة هى محو الخطايا وتقديس النفوس ، فالفرق اذن واضح بين المعموديتين ، ومن هنا يتضح أن أسرار العهد الجديد لها قوة وفاعلية بالروح القدس .

ثالثا : من تعليم الكتاب أن أسرار العهد الجديد تمنح النعم الالهية بخلاف أسرار العهد القديم ، التى لم تكن الا رمزا وظلا للخيرات العتيدة حسب قول الرسول « لأن الناموس اذ له ظل الخيرات العتيدة لا نفس صورة الأشياء لا يقدر أبدا بنفس الذبائح كل سنة التى يقدمونها على الدوام أن يكمل الذين يتقدمون » (عب ١٠ : ١) « وأنها رمز للوقت الحاضر لا يمكن أن تكمل » (عب ٩ : ٩ ــ ١٤) « وأن الناموس كان مؤدبنا الى المسيح » (غل ٣ : ٢٤) « اذ الناموس لم يكمل شيئا ولكن يصير ادخال رجاء أفضل به نقترب الى الله » (عب ٧ : ١٩) ولكن عن أسرار العهد الجديد يقول الرسول « وبه أيضا (أى المسيح) ختنتم ختانا غير مصنوع بيد بخلع جسم

خطايا البشرية بختان المسيح ، مدفونين معه فى المعمودية التى فيها أقمتم أيضا معه بايمان عمل الله الذى أقامه من الأموات » (كو ٢ : ١١ و ١٢) لان النعمة والحق وروح النبوة وختان القلب بالروح ، كل ذلك من خصائص العهد الجديد · فاذن التعليم بفاعلية الأسرار المقدسة هو روح الانجيل ·

ورب معترض يقول ان هذا التعليم ينسب للأسرار قوة فى ذاتها · فنجيب على ذلك أن الماء والزيت ووضع اليد وغيرها ليس لها قوة فى ذاتها للتطهير والتقديس · ولكن لها ذلك بقوة الروح القدس · ومثال ذلك الطين الذى وضعه السيد المسيح على عينى الأعمى ، فانه لا يوجد من يقول ان للطين قوة فى ذاته للشفاء وانما الشفاء كان بقوة المسيح ، ولم يكن الطين الا آلة وأداة · وكما أن قلم المصور ليس له فى ذاته قوة على التصوير ، بل ان له هذه القوة فى يد المصور ، هكذا أسرار العهد الجديد ليس لها فى ذاتها قوة للنعمة ، ولكنها لها قوة لاصدار النعمة بواسطة الروح القدس ، وان العلة الأصلية لانشاء هذه المفاعيل هى الروح القدس ·

رابعا : لو كانت طقوس الأسرار عبارة عن علامات أو رسوم تميز المسيحى عن غيره لأنتفت الفائدة منها بالكلية ، اذ ليست هى علامات ظاهرة تترك أثرا فى الشخص حتى يظهر أنه مسيحى ويتميز عن غيره ، وانما هى أعمال ، الغرض منها تأثير النعمة الداخلية بواسطتها ·

خامسا : ان الأسرار هى بركات ونعم المسيح ، تفاض على المؤمنين ، فلو كانت عديمة القوة والفاعلية لما كانت لنا بها حاجة قط ما دامت لا تأثير لها ولا فعل ·

سادسا : ان الكنيسة اعتادت أن تمنح الأطفال منذ القديم سر المعمودية وسر الميرون وسر الشكر ، فلو كانت هذه الأسرار عبارة عن رسوم فقط لانهاض الايمان ، وليست نعما فعالة لحياة البشر ، لما كان من ورائها أية منفعة للأطفال وهم لا يدركون لها معنى ولا يعرفون ما هو الايمان ، ولا ما هى الغاية التى لأجلها تمنحهم الكنيسة هذه الأسرار ·

سابعا : ان الله هكذا رتب وهكذا سر وارتضى أن تكون أسراره وسائط لنيل بركاته ونعمه ، وكان طبيعيا أن ينال البشر الماديون مواهبه السامية غير المنظورة تحت وسائط محسوسة منظورة تناسب طبيعتهم · فهو تعالى رتب لهذه الأسرار موادا لتكون آلات منظورة بها يشترك المؤمنون فى نعم الروح القدس ، وهو الذى أسسها لهذا الغرض ، وارادته لا تزال نافذة · وكل اعتراض على فعلها انما هو اعتراض على شخص الفادى ، الذى رتبها وأسسها ووضعها ، وأمر باتمامها على هذا الشكل ، ووعد أن يكون لها فاعلية · وهو تعالى ليس انسانا فيكذب أو ابن انسان فيندم · وفى هذا المعنى قال القديس يوحنا ذهبى الفم : « أيها المسيحى لو كنت عاريا عن الجسد

لكانت عطايا الله تمنح لك على هذا النمط ، ولكن حيث أن نفسك متحدة بجسدك فلزم أن الله يقدم لك بعلامات محسوسة ما لا يدرك الا بالعقل » ٠

ثامنا : ان هذا التعليم هو تعليم الكنيسة منذ الأجيال الأولى ٠ قال القديس أثناسيوس الرسولى « كما أن الانسان اذ يعمد من الانسان ، أعنى الكاهن ، يستنير بنعمة الروح القدس ، كذلك المعترف بخطاياه فى التوبة ينال الصفح بنعمة يسوع المسيح بواسطة الكاهن » (خطاب فى معمودية المسيح) ٠

وقال العلامة ترتوليانوس : « ان الجسد يغسل لتطهير النفس ، والجسد يمسح لتقديس النفس ، والجسد يرسم لتأييد النفس ، والجسد توضع عليه الأيدى لتستنير النفس بالروح ، والجسد يقتات بجسد المسيح ودمه لتشبع النفس بالله » ٠

وقال القديس كيرلس الأورشليمى : « تقدموا الى المعمودية لا كماء بسيط ، كما تمنح به النعمة الروحية » (عظة ٣ : ٢) وقال أيضا « احترس من أن تظن ذاك الميرون مادة بسيطة لأنه كما أن خبز الشكر بعد استدعاء الروح القدس لا يكون خبزا بسيطا بل جسد المسيح ، هكذا هذا الميرون المقدس لا يكون بعد الدعاء دهنا بسيطا ، ولا يمكن أن يسمى عاديا ، لكن موهبة المسيح والروح القدس ، اذ يصير فعالا بحضور لاهوته ، فبه تمسح رمزيا جبهتك وكل حواسك . وأذن فالجسد يدهن بالميرون الظاهر ، وأما النفس فتتقدس بالروح القدس المحيى » (فى الأسرار تعليم ٣ : ٣) ٠

وقال القديس غريغوريوس النيسى : « وان كان الماء ليس شيئا آخر سوى ماء ، ولكن اذ يقدس من فوق بالنعمة يجدد الانسان بالتجديد الروحانى. وان ارتاب أحد وسألنى بلا فتور مخاصما اياى كيف أن الماء يعيد الولادة ؟ فأقول له بايمان حسن ، فسر لى أنت كيف تدرك الولادة الجسدية ، وحينئذ أقول لك أنا كيف تصير الولادة الروحية » (مقالة للذين يضجرون من القوانين) ٠

وقال القديس يوحنا ذهبى الفم : « هكذا فى المعمودية أيضا فبالشىء الحسى تحصل منحة الماء ، وأما المتمم فعقلى أعنى الولادة والتجديد » (تفسير انجيل متى — مقالة ٨٢ : ٤) ٠

وقال القديس باسيليوس الكبير : « ان الاشتراك كل يوم ، وتناول جسد ودم المسيح المقدسين ، جيد ومفيد لأنه هو (أى المسيح) يقول صريحا من يأكل جسدى ويشرب دمى فله حياة أبدية ، فمن يرتاب فى أن الاشتراك بالحياة على وجه متواصل ليس الا حياة متنوعة » (رسالة ٩٣) ٠

وقال القديس أمبروسيوس : «من يمنح نعمة الدرجة الأسقفية ؟ الله

أم الانسان ؟ فانكم تجيبون ان الله يمنحها · ولكن الله يمنح النعمة بواسطة الانسان ، فان الانسان يضع الأيدى ، والله يسكب النعمة · الكاهن يضع يمينه الحقيرة ، والله يبارك بيمينه القادرة على كل شيء · الأسقف يشرطن الخادم للخدمة ، وأما الله فانه يمنحه الكفاية (فى الوظائف الكهنوتية فصل ٥) ·

فمن هذه الأقوال المتقدمة يتضح جليا اعتقاد الكنيسة منذ القديم فى فعل الأسرار وتأثيرها · وما الآراء الحديثة الا تعاليم غريبة مخالفة للكتاب ولاعتقاد الآباء ·

٦ ــ مفعول الأسرار :

للأسرار مفعولان وهما النعمة والوسم · المفعول الأول عام يشمل جميع الأسرار ، والثانى خاص بثلاثة منها وهى المعمودية والميرون والكهنوت · ولذلك تمنح للانسان مرة واحدة ، ولا يجوز اعادتها لأنها تترك وسما فى النفس لا يمحى ·

والنعمة المبررة تمنح أولا بالمعمودية ثم بالتوبة ثم تزداد هذه النعمة بواسطة سر الشكر · والنعمة المبررة ، هى ما يتبرر بها الانسان ويصير ابنا لله ووارثا للحياة الأبدية ·

وعلى ذلك فالأسرار المقدسة تمنح هذه النعمة · ومتى قبل الانسان سرا من تلك الأسرار فقد نال النعمة المقصودة من ذلك السر ·

وأما الوسم فهو علامة روحية تنطبع فى النفس ولا تمحى · وبهذا الوسم يتميز المؤمنون عن غيرهم أمام الله والملائكة والقديسين · وهذه العلامة لا تمحى لأن هذا الوسم ينطبع فى النفس ، ومن خصائصه الديمومة · وليس هو مجرد زينة فى النفس بل هو صفة أو قوة تعد الانسان لقبول ما يخص عبادة الله ·

وهذه الأسرار تمنح النعمة من ذاتها وبقوتها التى وضعها الله فيها ، قلنا من ذاتها وبقوتها لأن صدور النعمة معلق على مباشرة طقس السر الخارجى ، أى على تطبيق مادة السر وصورته ، لا على ايمان خادم السر · وقلنا بالقوة التى وضعها الله فيها ، لأن الأسرار هى هبات للمؤمنين تحمل النعم والبركات · أما العلة الأصلية فهى الرب يسوع المسيح مانحها ومؤسسها الذى يؤتى السر قوته وفاعليته على منح هذه النعم ، فكما أن الآلة تبرز المعلول رأسا بالقوة التى تتصل اليها من العلة الأصلية ، هكذا الأسرار فانها تصدر النعمة رأسا بذاتها وبقوتها التى وضعها الله فيها ·

وعلى ذلك لا يكون مفعول الأسرار انماء الايمان فقط أو أنها ختوم على المواعيد الالهية ، ولكنها تمنح النعمة · فبها يتطهر الانسان ، ويولد ثانية ، ويتجدد وتغفر خطاياه ، وبها يقبل الروح القدس ، وبها يتحد مع المسيح

ويثبت فيه ويحيا الى الأبد • قال القديس باسيليوس « ان النفس تتجدد بالمعمودية » (ميمر ١٣ : ٥) والقديس غريغوريوس النزينزى فى خطابه على اعتماد المسيح يدعو المعمودية « تطهير الخطايا وغفران الذنوب وعلة التجديد والميلاد الثانى » وقال أيضا « كما أن فى أحشاء الأم قوة لمنح الحياة الجسدية هكذا ماء المعمودية قد نال قوة لمنح الحياة الروحية » •

وقد أنكر أتباع **لوثر وكلفن** وجود الوسم الذى تطبعه الأسرار الثلاثة وهى المعمودية والميرون (التثبيت) والكهنوت ، زاعمين أن الكتاب لم يذكر شيئا عن ذلك •

فنرد عليهم :

١ ـ ان الكتاب يشير الى هذا الوسم • قال الرسول بولس : « ولكن الذى يثبتنا معكم فى المسيح وقد مسحنا هو الله الذى ختمنا أيضا وأعطى عربون الروح فى قلوبنا » (٢ كو ١ : ٢١ و ٢٢) وقال « الذى فيه أيضا اذ آمنتم ختمتم بروح الموعد القدوس » (اف ١ : ١٣) وقال « لا تحزنوا روح الله القدوس الذى به ختمتم ليوم الفداء » • (اف ٤ : ٣٠)

٢ ـ جميع الآباء يشيرون الى هذا الختم وهذا الوسم • قال القديس كيرلس الأورشليمى : « ان الروح القدس فى المعمودية يسم النفس ويمنح ختما ترتجف منه الشياطين خوفا • ختما سماويا والهيا » كما كتب الرسول بولس الى أهل أفسس : « الذى فيه أيضا اذ آمنتم ختمتم بروح الموعد القدوس » (١ : ١٣) وهكذا القديس باسيليوس (فى خطاب ٣ على العماد) ، والقديس أبيفانيوس (فى الارطقات ٥ : ٦) والقديس غريغوريوس النزينزى (خطاب ٤٠ : ٤) وغريغوريوس نيصص (فى خطابه على التوبة) فجميعهم علموا أن المعمودية تطبع على النفس وسما مقدسا لا يمحى ، وشبهوا هذا الوسم • مع الفارق • بالعلامة التى وضعها الاسرائيليون على بيوتهم فى مصر ، أو بالختان الذى به كانوا يمتازون عن باقى الشعوب • ودعاه القديس امبروسيوس « ختما روحيا » (ك ا فى الروح القدس راس ٦ : ٧٨) ودعاه القديس اغسطينوس « وسما » بقوله « تمسك بما نلته فانه لا يتغير فهو وسم ملكى »(مقالة فى يوحنا عدد ١٦) وقال « ان المعمد فى الكنيسة اذا ترك الكنيسة يحرم قداسة الحياة ولكنه لا يحرم وسم السر » • (عظة ٨)

٣ ـ انه من اللائق بمن ينتدب الى وظيفة أو يقبل سلطانا أن يوسم بعلامة تميزه عن غيره ، كما يرتدى الجنود والكهنة والملوك ملابس خصوصية يتميزون بها عن سواهم • والحال أن المؤمنين يقبلون هذه الأسرار الثلاثة

المذكورة وظيفة روحية وسلطانا خصوصيا • فيصير الانسان بالمعمودية ابنا لله وعضوا من عائلة المسيح وابنا للكنيسة وأهلا لقبول الأسرار • وبالتثبيت أو الميرون يصير جنديا للمسيح • وبسر الكهنوت يصير خادما للمسيح وقائدا في جيشه ويقبل السلطان على توزيع الأسرار •

ينتج مما تقدم بأن هذه الأسرار الثلاثة تطبع على النفس سـمة خاصة وانشما لا يمحى • وهذا الوسـم ثابت ودائم لا يمحى ، لا فى هذه الحيـاة ولا في الأخرى • اذ من المناسب أن يبقى فى الطوباويين لمجدهم ، وفى الهالكين لخزيهم وعارهم • كما أن الوسم العسكرى يبقى بعد القتال فى الجنود المنتصرين لمجدهم ، وفى المغلوبين لخزيهم •

٧ ـ شروط اتمام كل سر من الأسرار ودحض الآراء الفاسدة فى هذا الشأن :

ولاتمام كل سر من الأسرار ثلاثة شروط هي :

١ ـ مادة ملائمة للسر كالمـاء للمعمودية ، والخبز والخمر لسر الشركة • والزيت للمسحة وهكذا •

٢ ـ كاهن مشرطن قانونيا بوضع اليد •

٣ ـ استدعاء الروح القدس من الكاهن بالعبارات المعينة لتقديس السر لحلول الروح القدس •

أولا : يجب اتمام الأسرار اتماما قانونيا حسب الترتيب المعطى من الله • فان مخلصنا له المجد الذى أسسها ورتبها ، هكذا شاء وهكذا وضع لكل سر من الأسرار مادته الملائمة وأقواله الخاصة • وعليه لا يكون السر حقيقيا ولا يفعل فى المؤمنين الا اذا كان على وجهه الصحيح طبق ارادة الرب المعلنة فى انجيله •

وثانيا : يتممها كاهن مشرطن قانونى سواء أكان أسـقفا أو قسـا • وهذا واضح من أن الرب أعطى لرسـله ولخلفائهم الكهنة هذا السـلطان وأقامهم لهذا الغرض نفسه • وعلى ذلك قد ضل ضلالا فظيعا مخالفا للكتاب أولئك الذين يعلمون أن كل مسيحى يقدر أن يتمم الأسرار ، وان لم يكن حاصلا على درجات الكهنوت ، حتى سمحوا للعامة وللنساء أيضا باتمام الأسرار • وهذا ظاهر البطلان لمخالفته للكتاب ، والوضع الرسولى ، والعادة الكنسية ، فضلا عن اهانته للديانة وشرفها اذ يجعل الكنيسة فوضى لا ترتيب ولا نظام لها •

وقد زعم البعض أنه يشترط لصحة اتمام السر ايمان المسيحى المتقدم اليه • وأن هذا الايمان هو الذى يجعل السر حقيقيا ، متوهمين أن السر لا يكون سرا ، ولا يأخذ قوته الا فى البرهة التى فيها يقتبله • كما زعم البعض الآخر بأنه من الشروط الضرورية لاتمام الأسرار وفاعليتها أن يكون خادم السر صالحا • وأنكروا أهمية فعل الأسرار المتممة من خدام غير صالحين •

فنرد على **الزعم الأول** الذى يجعل قوة السر متوقعة على ايمان ونية المتقدمين اليه فنقول : انه من الواجب على المتقدمين الى الأسرار المقدسة أن يؤمنوا ايمانا حيا ويستعدوا الاستعداد اللائق لاقتبالها · ولكن هذا الاستعداد وهذا الايمان لا يجعلان السر سرا · وعدمهما لا يعدم السر قوته فى جوهره ، بل هما فرضان واجبان وضروريان يجب على المؤمنين اتمامهما لنيل بركة الأسرار عن استحقاق ، حتى لا يأخذوا لأنفسهم دينونة فقد جعل الرب يسوع كل موهبة من مواهب الروح القدس مرتبطة ارتباطا جوهريا بعلامة معينة منظورة ، حتى اذا تمم كل سر بحسب وضعه منح قابله الهبة الخاصة به · وقد رأينا آباء الكنيسة منذ القديم يمنحون بعض هذه الأسرار للأطفال ، موقنين كل اليقين بأنها تفعل فعلها فيهم ، وان كانوا غير قادرين أن يعلنوا ايمانهم واعترافهم بالمسيح · وبولس الرسول يشير الى الذين يقتربون من الأسرار بدون استحقاق « بأنهم يأكلون ويشربون دينونة لأنفسهم غير مميزين جسد الرب » (١ كو ١١ : ٢٩) وهذا دليل على أن السر فى ذاته له قوته الخاصة ، ولكن المقترب اليه بدون استحقاق لا يستحقه · ولو صح أن لا فعل للأسرار ولا قوة الا فى الذين يؤمنون بها فقط ، لكانت بركات الأسرار استحقاقات المؤمنين ، لا بركات واستحقاقات الفادى ، وهذا مخالف لروح الانجيل الذى يعلمنا أن جميع الهبات والنعم انما هى بركات الفادى له المجد · وطبيعة الارواء فى الماء ليست متوقفة على ايمان الشارب منها ·

ونرد على **الزعم الثانى** الذى ينكر صحة الأسرار المتممة من خدام غير صالحين · ونبين بطلانه عند كلامنا على خادم الأسرار ·

٨ ــ خادم الأسرار :

ان خادم الأسرار هو من يتممها باسم المسيح على أنه قائم مقامه ، وهو الكاهن المعتبر كوكيل الله والأمين على سرائره . ومن واجب الخادم بالنسبة الى اتمام عمل الأسرار أن يكون ذا ايمان وصلاح ونية حسنة لاتمام السر ، وبما أن الكاهن المنتدب من قبل الله تعالى لاتمام الأسرار المقدسة وتوزيع بركات الله ونعمه على المؤمنين ، فيدعوه هذا الواجب أن يكون ذا سيرة حسنة ومثالا للكمال والقداسة كما سنبين ذلك فى كلامنا عن سر الكهنوت ، ولكنا نرد هنا على زعم دوناتيوس وزعم أتباع لوثر وكلفن الذين زعموا أن الأسرار التى يتممها خدام أثمة تكون باطلة ويلزم اعادتها فنقول :

١ ــ ان صحة السر لا تقتضى لا ايمان الخادم ولا صلاحه أى وجوده فى حالة النعمة ، وذلك لأن قوة السر والنعمة التى تمنح به ليست متعلقة بخادمه ، ولا متوقفة على استحقاقه · بل هى متعلقة رأسا باستحقاق وارادة مخلصنا يسوع المسيح ، الذى يمنح النعمة · وما الخدام الا آلات منظورة يتمم الرب أسراره بهم وعلى أيديهم بطريقة سريعة غير منظورة ·

فقد سبق يوحنا المعمدان وأخبر عن الرب يسوع بأنه « يعمد بالروح القدس ونار » (مت ٣ : ١١ ، يو ١ : ٣٣) وأفادنا يوحنا الانجيلي أن « يسوع نفسه لم يكن يعمد بل تلاميذه » (يو ٤ : ٢) وبولس الرسول يقول « ليس الغارس شيئا ولا الساقى بل الله الذى ينمى » (١ كو ٣ : ٧) وهذا هو روح تعليم الكتاب الذى سارت عليه الكنيسة فى كل العصور ٠

٢ ـ ان وهذا الزعم ينتج نتائج فاسدة اذ يسبب الريب والقلق على الدوام بشأن صحة الأسرار التى يكون قد قبلها المؤمنون ، اذ لا يمكن لأحد أن يتحقق هل خادم السر مؤمن وصالح أم لا ، ولا يخفى أن هذا مضر بكنيسة الله وبحياة المؤمنين ، لأنه يزيد فى عدد المتشككين والمرتابين ويقلل عدد الذين يتقدمون الى الأسرار ٠ ولو تعلقت فاعلية الأسرار بقداسة الخادم أو عدمها لصارت فوائدها والغاية منها تحت رحمتهم ورهن تصرفاتهم ٠

٣ ـ لو حرم الخادم غير الصالح من اتمام الأسرار لوجب حرمان كل خاطىء من اتمام جميع الأشياء التى ينتدب اليها ، وعليه يجب حرمه من سلطان النهى والأمر والتدبير والتعليم حتى الحياة نفسها ٠

٤ ـ ان الله تعالى الكلى الصلاح والقداسة يستطيع أن يصنع الخير ويوزع بركاته باستخدامه الأبرار والأشرار على السواء ، فقد كان بلعام خاطئا ومع ذلك تنبأ على مجىء المخلص ، وكان يهوذا بين التلاميذ يبشر بملكوت الله ومع ذلك هلك ، وكان قيافا رئيسا للكهنة وتنبأ عن موت المسيح وهو يحكم عليه بالصلب ٠

٥ ـ قد اعترف بذلك جميع الآباء ٠ قال القديس أثناسيوس الرسولى « ان الكاهن لا يقدس الماء بل يتمم الخدمة الواجبة وقد أخذ لها نعمة من الله » (فى الثالوث فصل ٤٠) وقال « ان عمدنا وان ثبتنا وان صفحنا فان المسيح هو علة هذا كله وفاعله » (فى رسالة ٣ : ٧) ٠

وقال القديس كيرلس الأورشليمى « لأن النعمة ليست من بشر لكن من الله بواسطة البشر ، فأنت اذن من المعمد ، وعندما تدنو لا تنظر الى الشخص الذى تراه ، بل أذكر الروح القدس الذى كلامنا الآن عنه لأنه حاضر ومستعد لأن يختم الآن نفسك ويمنحك ختما » (عظة ١٧ : ٣٥) ٠

وقال القديس يوحنا ذهبى الفم « ان اليد توضع على الرجل والله يعمل كل الأمر ، ويده هى التى تلمس رأس المشرطن ان كان يشرطن كما يجب » (مقالة ١٤ : ٣ على الأعمال) وقال « فآمنوا اذن أن هذا العشاء هو العشاء الذى اتكأ فيه هو (أى المسيح) لأنه لا فرق بين هذا وذاك ٠ وليس الانسان يصنع هذا وهو صنع ذاك ٠ بل هو الصانع ذاك وهذا ٠ فعندما ترى الكاهن

يناولك لا تظن أن الكاهن يفعل هذا الفعل • بل اعترف أن اليد الممدودة هي يد المسيح • وكما أن الكاهن عندما يعمدك ليس هو الذى يعمدك بل الله هو الضابط رأسك بقوة غير منظورة • ولا يتجاسر ملاك أو رئيس ملائكة أو واحد غيرهما أن يدنو منك ويلمسك ، هكذا الآن أيضا لأنه عندما يخلق الله تكون الموهبة منه وحده » (مقالة ٥ : ٣ على متى) وقال « لأنه يتفق أن يكون الرؤساء أشرارا ودنسين ، ويكون المرؤوسون ودعاء لطفاء • وأن يكون العلمانيون عائشين بالتقوى والكهنة بالخبث • فلو كانت النعمة فى كل واحد متوقفة على الاستحقاق لما كانت بأولئك معمودية ولا جسد المسيح ولا قربان • وأما الله فانه اعتاد أن يفعل بواسطة غير المستحقين أيضا من دون أن تضر سيرة الكاهن شيئا بنعمة المعمودية • والا فيكون الذى يأخذ السر هو الخاسر • نعم هذا الأمر نادر ولكنه على ذلك يجرى • هذا أقوله لكى لا يرتاب أحد من الحاضرين فى الطقوس المتممة اذا بحث فى سيرة الكاهن ، لأن الانسان لا يضيف شيئا الى ما هو موضوع (لأمانة السر) بل كل شىء هو عمل الله ، وهو الذى يمنحكم نعمة السر » (مقالة ٨ : ١ على ١ كو) •

وقال القديس غريغوريوس الثاولوغوس : « كل واحد (أى من الخدام) يستحق أن تصدقوا أنه يطهركم ، ويكفيه لذلك أن يكون واحدا من الذين أخذوا السلطان ليغفروا الخطايا ، ولم يصيروا مرفوضين علانية (من الكنيسة) فأنتم الذين تطلبون الشفاء ، لا تدينوا قضاتكم ، ولا تبحثوا عن أهلية الذين يطهرونكم ، ولا تجروا انتخابا على والديكم ، لأنه أمر قلما يعنيكم ان كان هذا أفضل وذاك أدنى • وكل واحد من هؤلاء أفضل منكم • فأنظروا أنتم كيف يجب أن تفتكروا : عندى خاتمان أحدهما من ذهب والآخر من حديد • وعلى كل منهما الصورة الملكية نفسها • فأطبع بكل منهما طبعة على شمع • فبماذا تمتاز طبعة الواحد عن طبعة الآخر ، انها لا تمتاز بشىء • فان كنت أنت ممتازا بحذاقة عقلك فاحكم فى طبع المعدن على الشمع ، وقل لى أية صورة من هاتين الصورتين هى صورة الخاتم الذهبى ، وأية هى صورة الحديدى ، ولماذا الصورتان كلتاهما متشابهتان • فقابلوا على ذلك كل واحد من الكهنة الذين يعمدونكم • فالواحد يمكن أن يسمو على الآخر بالسيرة الروحانية • غير أن قوة المعمودية واحدة والقادر أن يعلمكم الايمان الواحد نفسه يقدر أن يرشدكم الى الكمال » (خطاب فى المعمودية) •

وقال القديس أغسطينوس : « ان السر أيضا يتعلق بالله وما الانسان الا خادم بسيط • فان كان الانسان صالحا فيكون موافقا لله ويفعل بالله ، وان كان شريرا فالله يمنح أيضا به نعمته غير المنظورة كما بآلة • ولا تظنوا أن الأسرار تتعلق بآداب البشر وأعمالهم ، فانها مقدسة ونابعة من الله القدوس » (فصل ٣٧ : ٨٨) •

وقال أيضا : « لا فرق بين أن توزع الأسرار من خدام أبرار أو خطاة ،

فمثلها مثل البذور تلقى على الأرض بيد الفلاح ، سواء كانت يده نظيفة ، أو قذرة ، فتأتى بالثمرة على حد سواء ؛ ولو تعلقت فاعلية الأسرار بقداسة الخادم أو عدمها لتعلق خلاصنا بحريتهم » .

وقال بعد أن أورد قول يوحنا المعمدان (يو ١ : ٣٥) « هذا هو الذى يعمد بالروح القدس » وان لم يعمد المسيح بنفسه بل بواسطة تلاميذه . ان بطرس يعمد فهذا هو « أى المسيح » الذى يعمد . او بولس يعمد فهذا هو الذى يعمد . ان يهوذا يعمد فهذا هو الذى يعمد . فما أعطى واحد ، لا مختلف باختلاف الخدام بل متساو . فانه قال هذا هو الذى يعمد . ويؤيد ذلك قول بولس الرسول « ليس الغارس شيئا ولا الساقى بل الله الذى ينمى » (١ كو ٣ : ٧) لأن كل ما فى السر من السلطان والقوة فهو للمسيح . وأما الكاهن أى الخادم فله الخدمة فقط ، وهو لا يقدر أن يقاوم قوة الله. وقال « قد عمد يهوذا فلم يعمد بعده ، وعمد يوحنا فعمد بعده ». وذلك لأن معمودية يهوذا كانت معمودية المسيح. أما معمودية يوحنا فكانت معمودية يوحنا . فلو تعلقت صحة الأسرار على استحقاقات الخادم لوجب اعادة الذين عمدهم يهوذا ، ولما فضلت معموديته على معمودية يوحنا » .

فمن هذه الأقوال الجليلة يستدل على أن التعليم الصحيح هو أن الخدام ما هم الا آلات فى يد الرب يتمم بهم المسيح نفسه بقوة فعل روحه القدوس جميع الأسرار أى أنه هو الذى يعمد أو يجدد الانسان ثانية ، وهو الذى يحل الخطايا ، وهو الذى يمنح درجات الكهنوت ، ويبارك القرابين ، ويقدس الذبيحة ، ولا تتوقف قوة الأسرار أو فعلها مطلقا على استحقاقات خادمها ولا على قداسته أو عدم استحقاقه . فان النعمة كالنهر الجارى أو كالماء النقى الذى يمكن أن يمر وينتقل فى أنابيب وقنوات من بلور أو من فخار ، مهما كان نوعها وحالها دون أن تمس طهارته ، وكبذور نقية تزرع فى الأرض سواء بذرت بأيد طاهرة أو دنسة ، وكالشمس التى لا تتدنس اذا حلت ومرت فى أماكن غير طاهرة .

٩ ـ عدد الأسرار :

أما عدد الأسرار فقد شاءت عناية الله وارادته أن تكون سبعة لتكون موافقة ومناسبة لحاجات الانسان فى هذه الحياة . وهى : سر المعمودية . وسر المسحة المقدسة أو الميرون ، وسر الشكر أو الأفخارستيا ، وسر التوبة ، وسر مسحة المرضى ، وسر الزيجة ، وسر الكهنوت .

فبالمعمودية يولد الانسان ولادة ثانية من فوق بالماء والروح : وبالميرون ينال نعمة حلول الروح القدس لتثبيته فى الحياة الروحية : وبالشركة يقتات ويتغذى بالاتحاد بالمسيح : وبالتوبة يشفى من أمراض الخطية وينال الحل من خطاياه : وبمسحة المرضى ينال الشفاء من أمراضه الجسدية والروحية :

وبالزيجة ينال نعمة الأقتران للولادة الجسدية والسمو بالعاطفة نحو حياة زوجية شريفة رسمها الله ، وتربية الأولاد التربية المسيحية : وبالكهنوت ينال موهبة الاستحقاق لخدمة الأسرار لتجديد الآخرين ٠

قال العلامة اللاهوتي الشهير القديس توما الأكويني : « ان بين الحياة الطبيعية والحياة الفائقة الطبيعة تناسبا ، لأن الانسان يولد ويتقوى ويقات ، وان مرض يعالج بالأدوية ويرد الى صحته الأولى بازالة بقايا المرض ، ويعيش في الالفة الاجتماعية تحت ولاية رؤساء شرعيين ٠ وهذا عينه تفعله الأسرار في الحياة الفائقة الطبيعة ٠ ولا تهمل الانسان أصلا من أكتساب هذه الحياة وترافقه دائما حتى تبلغه وتنقله الى العالم العلوى غير المنظور » ٠
(قسم ٢ بحث ٦٥ جزء ١)

وليس في الكنيسة أكثر أو أقل من هذه الأسرار ٠ وقد أعتبرت الكنيسة منذ بداءتها هذه الأسرار السبعة ٠ ولم ينكرها سوى البروتستانت الذين انشقوا عن الكنيسة في الجيل السادس عشر ٠ ولم يحصل بينهم اتفاق على عدد الأسرار : قال **لوثر وميلانكتون** : قبلا ثلاثة أسرار فقط ، وهي المعمودية والشكر والتوبة : وأعتقدوا أن السرين الأولين أصليان (لوثر في سبي بابل صفحة ٢٧٦) و (**ميلانكتون** في احتجاجاته ٥ : ١٦٧ و ٧ : ٢٠٠) وأما **زوينكل** فلم يقبل سوى سر الزيجة عوضا عن التوبة ٠ **وكلفينوس** قبل سر الكهنوت (كتاب ٤ : ١٨) لكن أتباعهم ارتأوا أخيرا أنه لا يوجد الا سران أثنان فقط وهما المعمودية والعشــاء الرباني : وحجتهم في ذلك أن الكتاب لم يذكر أن الأسرار سبعة ، ويرد عليهم بأن الكتاب لم يقل ان الأسرار أثنان فقط ٠

أما كون الأسرار سبعة فنبرهن عليه بما يأتي :

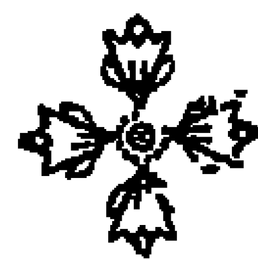
أولا : من شــهادة الكتاب : فانه وان لم يذكر عددها صريحا الا أنه أوضح كل سر منها على حدته مبينا تأسيسه من السيد ، وفعله وشروطه كما سنبين ذلك ونشرحه عند كلامنا عن كل سر من الأسرار : أضف الى ذلك أن عدم أتفاق المعترضين في بادىء الأمر على عددها دليل أكيد على صحة تعاليم الكنيسة الأصلي ٠

ثانيا : شهادة التقليد : فان لدينا أقوالا من جميع آباء الكنيسة في كل العصور الأولى تثبت اعتقاد الكنيسة وتسليمها الأسرار السبعة ٠ وهنا لا محل للاعتراض بأن بعض الآباء لم يتكلموا في مؤلفاتهم عن الأسرار جملة ، بل أن بعضهم اما لضرورة واما لمقاصد خاصة أو لأسباب أخرى لم يتكلموا عنها دفعة واحدة ، بل تكلم بعضهم عن سرين ، وبعضهم عن ثلاثة ، وغيرهم عن أربعة ، وذلك تبعا لـمـا اقتضاه مقام الكلام وقتئذ ، لأن شرح سر منها أو أكثر لا ينفي عدم الاعتقــاد بباقي الأسرار ٠ والخلاصـــة أن جميع الآباء يشهدون لهذه الأسرار السبعة شهادات صريحة ٠

ثالثا : شـهادة الاتفاق العام بين جميع الكنائس الشرقية والغربية . ومع وجود الاختلاف بينها فى أمور كثيرة . فانها فى هذا التعليم على اتفاق تام . وهذا أكبر دليل على أن التعليم بالأسرار السبعة تسليم رسولى تسلمته الكنيسة منذ ابتدائها ، ولم تأخذه من كنيسة أخرى بدليل وجوده فى الكنائس قبل انشـقاقها . ولا يمكن تعيين العصر الذى شرع فيه بمبـاشرة الأسرار السبعة ، وأقوال جميع الآباء والآثار القديمة تدل على أن الأسرار السبعة كانت معروفة وجارى العمل بها منذ العصر الرسولى . قال العلامة أوريجانوس وعنه أخذ القديس أوغسطينوس وأشار اليه ترتليانوس بقوله : « هل يعقل أن الكل يتفقون على الضلال ، فاننا نعرف حق المعرفة أن لا وحدة فى الكذب والبهتان . وعلى ذلك فان ما نراه واحدا لدى الجميع لا بد أن يكون تعليما الهيا منزها عن الغلط قد أخذ عن المسيح ورسله » .

رابعا : لأن الأسرار السبعة التى تمنح بها مواهب الروح القدس ونعمه كافية ومناسبة لحاجات الانسان اللازمة له فى حياته . فكما أن الانسان يولد ميلادا جسديا هكذا بالمعمودية يولد ميلادا روحيا ثانيا . والمولود يحتاج الى قوى تثبته فى حياته فينال هذه القوة بتثبيته بسر الميرون . ونشدة حاجته الى طعام روحى يغذيه فقد وهب له سر الشركة الغذاء والشراب الروحى ، وبما أنه عرضة للخطأ والأمراض فقد أعطى له سر التوبة لمغفرة خطاياه ، وسر المسحة لأمراضه الجسدية وضعفاته النفسـية . وبسر الزيجة يقدس رباط الزواج لحفظ أعضـاء الكنيسة ونموها بواسطة الولادة الطبيعية . ولحاجة الكنيسـة الى رعاة ومعلمين ومدبرين وخدام لخـدمة الأسرار ورعاية الشعب أعطى سر الكهنوت . فمن ذلك يتضح أن الأسرار ملائمة وموافقة لحاجات الانسان .

خامسا : ان الأسرار سبعة لا أقل ولا أكثر مقابلة لمواهب الروح السبعة (اش ١١ : ٢) وللمنارات الذهبية السبع (رؤ ١ : ١٢ و ١٣) وللكواكب السبعة التى كان السيد ضابطا اياها بيده (رؤ ١ : ١٦) وللأختام السبعة التى كان مختوما بها الكتاب الذى رآه النبى فى يمين الجالس على العرش (رؤ ٥ : ١) وللأبواق السبعة التى أعطيت بعد فتح الكتاب السرى (رؤ ٨ : ١ و ٢) ولا يخفى أن عدد سبعة مشهور فى الكتاب ، وهو دليل الكمال ، فالأسرار السبعة هى الأعمدة التى نحتتها الحكمة فى بيتها (أم ٩ : ١) .



١ – سرّ المعمودية

الفصل الأول

١ – تعريف سر المعمودية وأسماؤه :

المعمودية سر مقدس به نولد ميلادا ثانيا ، بتغطيسنا فى الماء ثلاث دفعات على اسم الثالوث الأقدس : الآب والابن والروح القدس ·

وبناء على مفاعيله باعتبار طقسه المنظور دعى حميما ، وينبوعا مقدسا ، وبالنظر الى نتائجه غير المنظورة ، دعاه الآباء ولادة جديدة ، وتقديسا ، وختم الايمان ، وختم الدين المسيحى ، وحميم الخلاص ، والولادة الثانية ، حميم الحياة وماء الحياة الدائمة ، وهكذا من الأسماء الدالة على تأثيراته ومنحه ·

٢ – رتبة المعمودية بين الأسرار :

ولسر المعمودية الرتبة الأولى بين الأسرار السبعة المقدسة · لأنه بمثابة باب يدخل منه المؤمن الى الكنيسة وملكوت النعمة طبقا لقول الرب يسوع « ان كان أحد لا يولد من الماء والروح لا يقدر أن يدخل ملكوت الله » (يو ٣ : ٥) ولذلك يمنح هذا السر للمؤمن قبل أى سر آخر · ومن لا يقتبله فلا حق له فى الاشتراك فى باقى الأسرار ·

٣ – لماذا عين الرب الماء للمعمودية :

بما أننا مؤلفون من جسد وروح ، لذلك عين الله تعالى أن تكون وسائط خلاصنا وأسرار النعمة التى يفيضها علينا الروح القدس ، تحت علامات حسية واشارات منظورة كما قلنا سابقا · ففى سر المعمودية عين الرب لميلادنا الثانى الماء · وذلك :

١ – لأن الماء يغسل الأقذار ، والمعمودية تنقى من جميع الخطايا ·

٢ – الماء يجدد وينعش الجسم ، والمعمودية تحيى خواص النفس ·

٣ – لأن بالماء قوام الحياة ، والمعمودية تمنح الخلاص ·

٤ – لأن المعمودية مثال موت المسيح ودفنه ولا بد أن نماثله فى الدفن · فأين ندفن ؟ أفى الهواء ونحن محاطون به من كل جهة ؟ أم فى النار وهى محرقة لا تصلح لذلك ؟ أم فى التراب ، والدفن فيه يقتضى الموت حقيقة لا مجازا ؟

فلا سبيل اذن الا بالدفن فى الماء فى جرن المعمودية ولذلك قال الرسول : « اعتمدنا لموته فدفنا معه بالمعمودية للموت ، حتى كما أقيم المسيح من الأموات بمجد الآب ، هكذا نسلك نحن أيضا فى جدة الحياة ، لأنه ان كنا قد صرنا متحدين معه بشبه موته نصير أيضا بقيامته » (رو ٦ : ٤ و ٥) ·

٤ ـ رموز المعمودية فى العهد القديم وأنواع المعموديات :

وقد رمز الى المعمودية فى العهد القديم بأمور كثيرة ، منها أن روح الله كان يرف على وجه المياه فى بدء الخليقة اشـارة الى بث روح الحياة فى المادة (تك ١ : ٢) والطوفان الذى قال عنه بطرس « كانت أناة الله تنتظر مرة فى أيام نوح ، اذ كان الفلك يبنى ، الذى فيه خلص قليلون أى ثمانى أنفس بالمـاء ، الذى مثاله يخلصنا نحن الآن أى المعمودية ، لازالة وسخ الجسد بل سؤال ضمير صالح عن الله بقيامة يسوع المسيح » (١ بط ٣ : ٢٠ و ٢١) وعبور بنى اسرائيل فى البحر الأحمر وغرق فرعون مع مركباته (خر ١٤ : ١٩ ـ ٢٩) فان البحر كان رمزا الى ماء المعمودية ، والسحابة اشارة الى الروح القدس ، وفرعون كان رمزا الى الشيطان الذى ينسحق فى مياه المعمودية ، ولذلك قال بولس الرسول « ولست أريد أيها الاخوة أن تجهلوا أن آباءنا جميعهم كانوا تحت السحابة وجميعهم اجتازوا فى البحر وجميعهم اعتمدوا لموسى فى السحابة وفى البحر » (١ كو ١٠ : ١ و ٢) ولم يعط الرب الكهنوت لهرون الا بعد أن غسل جسده أولا بالماء (خر ٢٩ : ٤) وكذلك أمر الكهنة عند دخولهم لخيمة الاجتماع أن يغتسلوا أولا فى المرحضة المقدسة التى بين خيمة الاجتماع وبين المذبح (خر ٣٠ : ١٨) وذبيحة ايليا لم تنزل عليها النار من السماء الا بعد أن اهرق عليها الماء ثلاث دفعات (١ مل ١٨ : ٣٣ ـ ٣٥) ولم يصعد ايليا الى السماء الا بعد أن عبر نهر الأردن (٢ مل ٢ : ٢ ـ ٨) واشـعياء النبى ينادى قائلا « تستقون مياها بفرح من ينابيع الخلاص » (اش ١٢ : ٣) « أيها العطاش جميعا هلموا الى الميـاه » (اش ٥٥ : ١) ويوحنا المعمدان لـما ابتدأ يكرز عن قرب ملكوت الله ، كان يعمد بمعمودية التوبة قائلا : « أنا أعمدكم بمـاء للتوبة ولكن الذى يأتى بعدى هو أقوى منى ... هو سيعمدكم بالروح القدس ونار » (مت ٣ : ١١) والتلاميذ فى حياة المسيح كانوا يعمدون (يو ٤ : ٢) .

وهذه المعموديات المذكورة لم تكن سوى رموز الى معمودية المسـيح ، ورسوم ومقدمات سابقة لظهور سر المعمودية المسيحية ، وفرق كبير بين معمودية يوحنا ومعمودية المسيح ، لأن الأولى كانت للتوبة والاستعداد ، وأما هذه فلغفران الخطـايا ، ولذلك قال بولس الرسـول لتلاميذ أفسس لـما سألهم : « وهل قبلتم الروح القدس لـما آمنتم ، قالوا له ولا سمعنا أنه يوجد الروح القدس . فقال لهم فبماذا اعتمدتم . فقالوا بمعمودية يوحنا . فقال بولس ان يوحنا عمد بمعمودية التوبة قائلا للشعب أن يؤمنوا بالذى يأتى بعده أى بالمسيح يسوع ، فلما سمعوا اعتمدوا باسم الرب يسوع ، ولـما وضع بولس يديه عليهم حل الروح القدس عليهم الخ » (أع ١٩ : ١ ـ ٦) ، قال القديس يوحنا ذهبى الفم عن ذلك : « لأنه لم تكن الذبيحة قدمت بعد ، ولا انحدر الروح القدس ، ولا انحلت الخطية ، ولا ارتفعت العداوة ، ولا محيت اللعنة ، فكيف أزمع الغفران أن يكون ، وأنظر كيف

حرر ذلك بكل تدقيق لأنه لما قال انه أتى لينذر بمعمودية التوبة فى برية اليهودية ، أضاف الى ذلك قوله • لمغفرة الخطايا » (مر ١ : ٤) • كان يقول لهذا السبب كان يقنعهم أن يعترفوا بخطاياهم ويتوبوا عنها • لا لكى يعذبوا بل لكى يقبلوا الغفران بعد ذلك بأكثر سهولة • لأنهم لو لم يدينوا أنفسهم لما كانوا طلبوا النعمة • ولو لم يطلبوا لما نالوا الغفران • فكانت من ثم هذه المعمودية (أى معمودية يوحنا) تفتح طريقا لتلك المعمودية (أى معمودية المسيح) (تفسير انجيل متى • مقالة ١٠ : ١ و ٢) •

لذلك لا فرق بين معمودية التلاميذ وبين معمودية يوحنا ، لأنها كانت للتوبة والاستعداد أيضا لأن المعمودية لم تأخذ قوتها الا بعد موت المسيح وقيامته من بين الأموات وحلول الروح القدس ، لانها مثال موت المسيح ودفنه وقيامته ، ولم تكن تلك المعموديات الا لاعداد اليهود لقبول المسيح •

٥ ـ تأسيس سر المعمودية :

أما سر المعمودية المسيحية فقد أسسه السيد المسيح بعد قيامته ، اذ كان قد تمم فداءنا واشترانا بدمه الكريم • وبهذا حق توزيع نعمة روحه القدوس علينا (١ بط ١ : ٣ و ١ كو ١ : ٤) وقد قال لتلاميذه علنا بعد قيامته « دفع الى كل سلطان فى السماء وعلى الأرض فاذهبوا وتلمذوا جميع الأمم وعمدوهم باسم الآب والابن والروح القدس » (مت ٢٨ : ١٨ و ١٩) • « من آمن وأعتمد خلص ومن لم يؤمن يدن » (مر ١٦ : ١٦) •

فمن ذلك يتضح :

١ ـ أن المعمودية سر عام لجميع البشر على السواء •

٢ ـ أنها سر سيتمم الى انقضاء الدهور ، غير محصورة فى مكان ولا فى زمان •

٣ ـ أنها شرط لازم للحصول على الخلاص • وقد تممها الرسل للمؤمنين لتطهيرهم واعادة ولادتهم بالماء والروح القدس فى يوم الخمسين • قال بطرس الرسول : « توبوا وليعتمد كل واحد منكم على اسم يسوع المسيح لغفران الخطايا فتقبلوا عطية الروح القدس •• فقبلوا كلامه بفرح واعتمدوا وانضم فى ذلك اليوم نحو ثلاثة آلاف نفس » (أع ٢ : ٣٨ ـ ٤١) وعمد فيلبس الخصى (أع ٨ : ٣٨) وعمد بطرس كرنيليوس قائد المائة وعائلته وأشخاصا آخرين (أع ١٠ : ١ ـ ٤٨) وعمد بولس امرأة اسمها ليدية (أع ١٦ : ١٥) وعمد حافظ السجن وعائلته (أع ١٦ : ٣٣) وكريسبس رئيس المجمع وكل بيته وغيرهم من سكان كورنثوس (أع ١٨ : ٨) وتلاميذ أفسس (أع ١٩ : ١ ـ ٥) وهكذا من ذلك الوقت تتمم المعمودية فى الكنيسة المسيحية ، على المثال الذى وضعه الرسل الأطهار للكنيسة •

الفصل الثاني

ضرورة المعمودية ولزومها للخلاص

أما ضرورة المعمودية ولزومها للخلاص فيظهر من الأدلة الآتية :

أولا : من قول يوحنا المعمدان « أنا أعمدكم بماء للتوبة ولكن الذى يأتى بعدى هو أقوى منى ··· هو سيعمدكم بالروح القدس ونار » (مت ٣ : ١١) فمعمودية يوحنا كانت للتوبة · وأما معمودية المسيح فللتوبة وغفران الخطايا وعطية الروح (أع ٢ : ٣٨) · الأولى كانت تمارس بالماء فقط . وأما هذه فباسم الآب والابن والروح القدس (مت ٢٨ : ١٩) . الأولى كانت قاصرة على التائبين من شعب اسرائيل (مت ٣ : ٥ ، ٦ و ١٠ : ٥ ، ٦) وأما الثانية فلجميع المؤمنين من اليهود والأمم (مت ٢٨ : ١٩) · الأولى كانت رمزية للتوبة والايمان بالمسيح الآتى (مت ٣ : ١ ، أع ١٩ : ٤). والثانية للايمان بالمسيح الذى أتى ولغفران الخطايا (أع ٢ : ٣٨) · الأولى كانت معمودية وقتية والذين اعتمدوا بها التزموا أن يعتمدوا ثانية حين آمنوا بالمسيح (أع ١٩ : ٥) وأما معمودية المسيح فهى المعمودية الدائمة الوحيدة الى انقضاء الدهر (مت ٢٨ : ١٩ ، ٢٠ و أف ٤ : ٥) ·

ثانيا : من أقوال السيد المسيح عنها : قال له المجد « ان كان أحد لا يولد من الماء والروح لا يقدر أن يدخل ملكوت الله » (يو ٣ : ٥) « من آمن واعتمد خلص ومن لم يؤمن يدن » (مر ١٦ : ١٦) فواضح هنا أن من لا يعتمد يدان ولا يستحق الدخول الى ملكوت الله ·

ثالثا : من أقوال الرسل الأطهار : قال بطرس الرسول لما سأله الذين قبلوا الايمان بالمسيح فى أورشليم ماذا نصنع ؟ قال لهم « توبوا وليعتمد كل منكم على اسم يسوع المسيح لغفران الخطايا فتقبلوا عطية الروح القدس » (أع ٢ : ٣٧ و ٣٨) وقال بولس الرسول « لا بأعمال فى بر عملناها نحن ، بل بمقتضى رحمته خلصنا ، بغسل الميلاد الثانى ، وتجديد الروح القدس » (تى ٣ : ٥) وقوله « كما أحب المسيح أيضا الكنيسة وأسلم نفسه لأجلها ، لكى يقدسها مطهرا أياها بغسل الماء بالكلمة ، لكى يحضرها لنفسه كنيسة مجيدة لا دنس فيها ولا غضن ، أو شىء من مثل ذلك · بل تكون مقدسة وبلا عيب » (أف ٥ : ٢٥ ــ ٢٧) وقوله « لكن اغتسلتم ، بل تقدستم ، بل تبررتم باسم الرب يسوع وبروح الهنا » (١ كو ٦ : ١١) وقوله « لأن كلكم الذين اعتمدتم بالمسيح » (غل ٣ : ٢٧) وقول بطرس الرسول

« الذى مثاله يخلصنا نحن الآن ، أى المعمودية لازالة وسخ الجسد ، بل سؤال ضمير صالح عن الله بقيامة يسوع المسيح » (١ بط ٣ : ٢١) •

فهذه النصوص الصريحة ناطقة بأن المعمودية لازمة للخلاص وبدونها لا يمكن للانسان أن يخلص •

رابعا : يتضح من النصوص المتقدمة ، أن المعمودية ليست علامة تميز المسيحى من غيره ، كما يزعم البروتستانت • اذ أنها ليست علامة ظاهرية تترك أثرا فى الوجه ، أو غيره حتى تصلح لأن تكون علامة لتمييز المسيحى ولكنها عمل يترك أثرا فى النفس ، هو التطهير ومغفرة الخطايا والولادة الثانية •

خامسا : هذا التعليم كان ولا يزال تعليم الكنيسة فى جميع العصور • فقد قال القديس يوستينوس الشهيد « يجب أن نفتش ونعرف من أى طريق يمكننا أن ننال صفح الخطايا ، ونمتلك رجاء ميراث الخطايا الموعود بها ، ولنا فى ذلك طريق واحد فقط ، وهو ان نعرف يسوع ونغسل بالمعمودية لغفران الخطايا ، وهكذا نبتدىء أن نعيش بالقداسة » (خطابه الى تريفون فصل ٤٤) .

وقال القديس كيرلس الأورشليمى « عظيمة هى المعمودية المعدة فداء عن المأسورين ، وصفحا للأوزار ، وموتا للخطية ، وولادة ثانية للنفس ، وثوبا نيرا ، وختما مقدسا لا ينفك ، ومركبة الى السماء ، وتعليم الفردوس ، وعلة الملكوت ، ومنحة التبنى » (تعليم ابتدائى للموعوظين فصل ١٦) •

وقال القديس غريغوريوس النيسى « فالمعمودية اذن تنقية من الخطايا وترك المآثم وعلة التجديد والولادة الثانية » (فى معمودية المسيح) •

وقال أيضا « حينما تدخلون فى الماء لا تجدون بعد ماء بسيطا ، بل تنتظرون خلاصا بالروح القدس ، لأنكم تستطيعون بلا مانع أن تصلوا الى الكمال • وهذا الكلام ليس كلامى بل كلام الرب يسوع نفسه ، الذى له السلطة التامة فى هذا السر ، كما فى كل سر غيره • وهو ان كان أحد لا يولد من الماء والروح فلا يقدر أن يدخل ملكوت الله الذى معناه أن لا تكون المعمودية بماء فقط ، لأن الذى يعتمد بالماء فقط لا يستحق نعمة الله ولا ينالها كاملة ، كما أن الذى لم ينل ختم الماء مهما كان صالحا بأعماله لا يستطيع أن يدخل ملكوت السموات • هذا الكلام صعب ولكنه ليس كلامى لأن الرب يسوع هكذا تكلم • واليك البرهان فى الكتاب ، وأورد حادثة كرنيليوس وعماده ، وختم كلامه بقوله : « ان بطرس عمدهم باسم الرب يسوع ، فأعاد ولادة النفس بالايمان لينال الجسد أيضا النعمة بواسطة الماء » . (عظة ٣ : ٢)

وقال القديس أوغسطينوس : « اننا بميلادنا من الماء والروح القدس نتطهر من كل خطية ، سواء كانت من آدم الذى به أخطأ الجميع ، أو بفعلنا وقولنا لأننا نغسل منها بالمعمودية » (١٧٨ : ٢٨) .

وقال : « ان لنا ميلادين أحدهما أرضى والآخر سماوى . الأول من الجسد ، والثانى من الروح . الأول صادر عن مبدأ قابل الفناء ، والثانى عن مبدأ أبدى . الأول عن الرجل والمرأة ، والثانى عن الله والكنيسة . الأول يجعلنا أبناء الجسد ، والثانى أبناء الروح . الأول يصيرنا أبناء الموت ، والثانى أبناء القيامة . الأول يجعلنا أبناء الدهر ، والثانى أبناء الله . الأول يجعلنا أبناء اللعنة والغضب ، والثانى أبناء البركة والمحبة . الأول يقيدنا بأغلال الخطية الأصلية ، والثانى يحلنا من رباطات كل خطية » (تفسير انجيل يوحنا فصل ١٩) .

وقال القديس يوحنا ذهبى الفم للموعوظين المرشحين للعماد « ان الذين كانوا قبل عمادهم أسرى ، فأنهم يتمتعون الآن ببهاء الحرية . وصاروا أعضاء الكنيسة سالكين فى نور البر البهى ، بعد ما كانوا سائرين فى فيافى الضلال الحالك وظلام الخطية القاتم . حقا انهم الآن محررون ، وليس ذلك فقط بل قديسون فأبرار فأبناء فورثة فأخوة المسيح وارثون معه فأعضاء لجسده الطاهر ، فهياكل الروح القدس . فتأمل فى العطايا الجزيلة والمواهب الثمينة التى يمنحها سر العماد . ان كثيرين يظنون أنه يغفر الخطية فقط ؛ وأما نحن فقد أحصينا له عشرة مفاعيل تجعل النفس فى مركز سام ومقام جليل لا يوصف » .

قال موسهيم المؤرخ البروتستانتى عن سرى المعمودية والعشاء الربانى « لا ينبغى أن يعتبرا مجرد طقس ، أو كأن لهما معنى رمزيا فقط ؛ بل كأن لهما فاعلية مقدسة للعقل » (ك ١ قسم ٢ فصل ٤) .

الفصل الثالث

وجوب تعميد الأطفال

أوضحنا فيما سبق أن المعمودية ضرورية للخلاص ، طبقا لوضع السيد المسيح له المجد ، وأنها هى الباب الأول ولا بد منها لدخول الانسان الى ملكوت النعمة ، لذلك وجب تعميد الجميع على السواء كبارا وصغارا ، غير أن بعض المحدثين زعموا وعلموا بعدم لزوم المعمودية للأطفال ؛ وأنكروا فاعليتها • ويتضح خطأ هذا الزعم من الأدلة الآتية :

أولا : ان المعمودية ضرورية ولازمة ، وبدونها لا يمكن الدخول الى ملكوت النعمة • ففى منعها عن الأطفال منعهم من الدخول للاستحقاق لهذا الملكوت، بينما لا يوجد مانع يمنعهم من الاشتراك فى هذه النعمة ، وبالأخص لطهارة نفوسهم •

ثانيا : ان الأطفال مشتركون فى الخطية الجدية مثل الكبار ، ولا يمكنهم التطهير منها والدخول الى ملكوت النعمة الا من هذا الباب بشهادة الرب نفسه « ان كان أحد لا يولد من الماء والروح لا يقدر أن يدخل ملكوت الله • المولود من الجسد جسد هو والمولود من الروح هو روح » (يو ٣ : ٥ و٦) فيجب أن يولد الأطفال هذه الولادة الثانية الروحية ، ليكونوا مستحقين الدخول الى ملكوت الله •

ثالثا : من المشابهة بين الختان والمعمودية • من المعلوم أن الختان كان عند اليهود هو العلامة التى بها يدخلون فى عهد الله ، لا فرق بين الأطفال والكبار • ولذلك تعين أن يختتن الطفل فى اليوم الثامن • ومن المعلوم أن الختان كان رمزا الى المعمودية • والى ذلك أشار بولس الرسول بقوله « وبه أيضا ختنتم ختانا غير مصنوع بيد ، بخلع جسم خطايا البشرية بختان المسيح • مدفونين معه فى المعمودية ، التى أقمتم فيها أيضا معه بايمان عمل الله ، الذى أقامه من الأموات ، واذ كنتم أمواتا فى الخطايا وغلف جسدكم ، أحياكم معه مسامحا لكم بجميع الخطايا » (كو ٢ : ١١ - ١٣) فاذا كان الله نفسه منح الأطفال نعمة الدخول فى عهده القديم ، أفيليق بنا نحن أن نخرجهم من العهد الجديد ، عهد النعمة ، ونحرمهم هذا الاحسان ؟ واذا اعترض المعترض بأن الأطفال لا يدركون ولا يعرفون ما هو الايمان أو ما هى المعمودية؟ فجوابنا على ذلك أن عدم ادراكهم لا ينفى عمادهم ، أو يوجب تأخيره • والدليل على هذا ما ورد فى الكتاب من المشابهة لذلك فقد قيل عن ابراهيم

« فآمن ابراهيم بالله فحسب له برا ... وأخذ علامة الختان ختما لبر الايمان» (رو ٤ : ٣ و ١١) وذلك في الوقت الذى فيه وضع ابراهيم على أبنه اسحق هذه العلامة نفسها ، وهو طفل ابن ثمانية أيام ، لا يدرك ولا يفهم ولا يعرف ما هو الايمان ولا ما هو الختان • فكما ختم ابراهيم واسحق بختم البر ، هكذا لا يجب منع هذا الختم عن الأطفال المسيحيين •

رابعا : ان المسيح نفسه بارك الأطفال بركة خاصة ، ودعاهم اليه قائلا « دعوا الأولاد يأتون الى ولا تمنعوهم لأن لمثل هؤلاء ملكوت السموات » (مت ١٩ : ١٤ ، ١٨ : ٣ ، مر ١٠ : ١٥ ، لو ١٨ : ١٥ ـ ١٧) وقد سبق وقدس بعضهم وملأهم من روحه كما قدس ارميا (١ : ٥) ويوحنا الذى امتلأ من الروح القدس من بطن أمه (لو ١ : ١٥ و ٤١) فلا مانع مطلقا يمنع الأطفال من تجديدهم وامتلائهم بالروح القدس ، لا من جهة الله تعالى ولا من جهة طبيعتهم • واذا تأملنا في أقوال المسيح الحلوة عنهم ، نرى فيها ما في قلبه القدوس من المحبة والاعتبار لهم ، فنرى :

١ ـ أنه جعلهم مقياسا للكبار في الدخول الى ملكوت السموات بقوله « ان لم ترجعوا وتصيروا مثل الأولاد فلن تدخلوا ملكوت السموات » • (مت ١٨ : ٣)

٢ ـ أوضح أن قبولهم بمنزلة قبول شخصه المبارك فقد قال « ومن قبل ولدا واحدا مثل هذا باسمي فقد قبلني » (مت ١٨ : ٥) •

٣ ـ نهانا عن احتقارهم لاعتبارهم في عيني الله بقوله « انظروا لا تحتقروا أحد هؤلاء الصغار لاني أقول لكم ان ملائكتهم في السموات ينظرون وجه أبي الذى في السموات » (مت ١٨ : ١٠) •

٤ ـ أن الأولاد بمنزلة الحملان الصغار ، والمسيح كراع صالح يقود الخراف الكبار والحملان الصغار • ولا تخفى علاقة الأولاد بوالديهم • وقد سبق اشعياء النبي فوصف المسيح بقوله « كراع يرعى قطيعه ، بذراعه يجمع الحملان وفي حضنه يحملها ويقود المرضعات » (اش ٤٠ : ١١) ولما قدموا الأطفال الى الرب يسوع احتضنهم ووضع يديه عليهم وباركهم (مر ١٠ : ١٦) ولا يجب أن ننسى أن الله تعالى لما دعا شعبه للخروج من مصر للدخول الى أرض كنعان أرض الموعد ، وقاومهم فرعون وأراد منع أولادهم بقوله : أذهبوا أنتم الرجال وأعبدوا الرب (خر ١٠ : ٧ ـ ١١) لم يسلم موسى بذلك بل قال له « نذهب بفتياننا وشيوخنا نذهب ببنينا وبناتنا » • فبمثل هذا القول يجب أن نجاوب أولئك الذين يحاولون منع الأولاد من الدخول الى ملكوت النعمة معنا ، ويريدون فصلهم عنا • واذا كان الرب باركهم وقبلهم ودعاهم اليه ودافع عن حقوقهم ، فمن ذا الذى يحتقرهم ويرفض عمادهم ، وقبولهم

فى الاشتراك فى الكنيسة وعضويتها • وهو الذى قد أمر بتربيتهم والاعتناء بهم (راجع تث ٤ : ٩ و ١٠ ، ٦ : ٧ ، ٢ تى ٣ : ١٥ ، أف ٦ : ٤ ، غل ٤ : ١) •

خامسا : من تعليم الرسل وقدوتهم فى ذلك فانهم اتبعوا هذه القاعدة وسلكوا هذا المبدأ • حيث نرى بطرس الرسول فى يوم الخمسين صرح بعماد الذين قبلوا المسيح من الكبار ولم يتأخر أن يعلن لهم قبول أولادهم معهم بقوله لهم « توبوا وليعتمد كل واحد منكم على اسم يسوع المسيح لغفران الخطايا ، فتقبلوا عطية الروح القدس ، لأن الموعد هو لكم ولأولادكم » (أع ٢ : ٣٨) ففى قوله (لكم ولأولادكم) تصريح واضح بقبول الأولاد فى الايمان والمعمودية • وحيثما كرز الرسل بالانجيل قبلوا عائلات وعمدوهم مع أهالى بيوتهم • ومن ذلك ليدية بائعة الأرجوان التى قبلت الايمان وأعتمدت هى وأهل بيتها (أع ١٦ : ١٤ و ١٥) وبيت استفانوس (١ كو ١ : ١٦) والسجان الذى اعتمد هو والذين له أجمعون (أع ١٦ : ٣٣) ولا شك فى أن عائلات هذا عددها ، قد تعمدت بأجمعها ، لم تكن خالية من الأولاد الذين دون البلوغ أو أنهم تركوا بلا عماد ، وهذا بعيد الاحتمال ، ويكاد يكون مستحيلا ، اذ يندر أن توجد عائلات خالية من البنين والبنات •

سادسا : ان معلمى الكنيسة وآباءها الذين أستلموا التعليم من الرسل الأطهار هكذا سلكوا وهكذا علموا بوجوب منح المعمودية للأطفال ، ويذكرون صريحا أن ذلك تقليد رسولى • واليك ما يدل على هذه الحقيقة :

قال القديس **ايريناوس** : « ان يسوع المسيح أتى لكى يخلص جميع البشر أعنى الذين به ولدوا ثانية لله • سواء أكانوا أطفالا أو شبانا أو شيوخا » (ضد الهراطقة ١١ : ٢٢ فصل ٥ : ١٥) •

وقال العلامة **أوريجانوس** : « ان الكنيسة تسلمت من الرسل تقليد عماد الأطفال أيضا ، فالأطفال يعمدون لمغفرة الخطايا ليغتسلوا من الوسخ الجدى بسر المعمودية » •

وقال القديس **كبريانوس** : « اذا كان الذين أخطأوا سابقا أمام الله ، اذ يؤمنون يأخذون صفح خطاياهم ، ولا يمنع أحد منهم عن المعمودية والنعمة وان كان قد فعل خطايا غير محصاة • فالأطفال الذين ضميرهم غير متفتح ولم يخطئوا فى شىء ، والذين نظرا للخطية الكامنة فيهم وتدنسوا بها وصاروا مشاركى الموت الآدمى ، يحتاجون أيضا الى المعمودية لأنها شرط لنوال الخلاص والصفح ، ليس عن الخطايا الشخصية بل الأبوية • **وقد حدد مجمعنا « بأنه** لا يجوز أن نمنع أحدا من المعمودية ونعمة الله الذى هو صالح ورؤوف بالجميع • فالمعمودية هى للجميع وخصوصا للأطفال الصغار ، الذين بنوع خصوصى يستميلون انتباهنا وصلاح الله » (رسالة ٥٩) •

وقال القديس **غريغوريوس الثاولوغوس** : « هل عندك طفل ، فلا يأخذن فيه الشر فرصة ، بل ليقدس وهو رضيع وليكرس للروح منذ نعومة أظفاره ، إنك تخافين أيتها الأم من الختم بسبب ضعف الطبيعة بما أنك ضعيفة النفس وقليلة الايمان ، لكن حنة قبل أن تلد صموئيل وعدت الله به ، وبعد ولادته حالا كرسته وبالحلة الكهنوتية ربته ، ولم تخف من الضعف البشرى بل آمنت بالله » (خطاب فى المعمودية) •

ويشهد القديس **أغسطينوس** فى خطاب ١٧٦ « بأن المعمودية تقليد رسولى ، وأن الكنيسة دائما تتمسك بتعميد الأطفال ، متسلمة اياه من السلف ، ولم تزل حافظة اياه الى الآن ، وسوف تحفظه الى الانقضاء أيضا •

وقد قرر آباء مجمع قرطاجنة سنة ٤٨١ فى القانون ١٢١ هكذا « أيضا حكم أن كل من ينكر أن المعتمدين من الأولاد الصغار ، المولودين حديثا من بطون أمهاتهم يعتمدون لمغفرة الخطايا ، أو يعترف بذلك ولكنه يزعم أنهم لم يشتركوا فى شىء من الخطية الجدية المحتاجة الى التطهير بحميم الولادة الثانية ، وينتج من هذا الزعم أن رسم المعمودية التى لمغفرة الخطايا فى هؤلاء الأطفال ليس بحقيقى بل مخترع ظاهرى ، فليكن مفرزا لأن عبارة الرسول القائلة : « بانسان واحد دخلت الخطية العالم وبالخطية الموت وهكذا اجتاز الموت الى جميع الناس اذ أخطأ الجميع » لا يجب أن تفهم بمعنى آخر الا كما فهمتها دائما الكنيسة الجامعة الممتدة والمنتشرة فى كل مكان ، أعنى أن الأطفال أيضا الذين لا يستطيعون أن يرتكبوا بذواتهم خطية ما من الخطايا يعمدون بناء على قانون الايمان هذا معمودية حقيقية لمغفرة الخطايا ليتطهر فيهم بالولادة الثانية ما ورثوه من أجدادهم » •

ينتج مما تقدم أن منع الأطفال عن المعمودية بدعة غريبة مضادة للكتاب ولتعليم الرسل وقدوتهم ولنظام الكنيسة منذ إبتدائها •

الفصل الرابع

كيفية ممارسة سر المعمودية ووجوب اتمامها بالتغطيس وادحاض طريقة الرش

لقد عين الرب مادة هذا السر وهى الماء ، بقوله : « ان كان أحد لا يولد من الماء والروح الخ » (يو ٣ : ٥) والرسل لم يستعملوا غير الماء (أع ٨ : ٣٦ـ٣٨ ، ١٠ : ٤٧ و ٤٨) فسارت الكنيسة حسب تعليم الرب وتسليم الرسل ، ولم تستعمل فى العماد الا الماء القراح ، دون استعمال آخر مهما كان نوعه •

ثم طبقا للتسليم الرسولى تمارس الكنيسة سر المعمودية بتغطيس المعتمد ثلاثا فى الماء ، باسم الأقانيم الثلاثة الآب والابن والروح القدس ، اشارة الى موت المسيح ودفنه وقيامته ، فقد قال العلامة **ترتوليانوس** : « حين نأتى الى الماء نغطس ثلاث مرات » (فى الأكليل ٣) وقال أيضا : «لأننا نغطس لا مرة واحدة بل ثلاث مرات باسم كل واحد من الأقانيم » (ضد براكسيالس ٢٦) وقال القديس باسيليوس الكبير : « فبثلاث غطسات ودعاء مساو لها فى العدد يتم سر المعمودية العظيم ، لكى يتصور رسم الموت وتستنير نفوس المعمدين بتسليم معرفة الله » (فى الروح القدس لامفيلوشيوس فصل ١٥) • والذهبى الفم فى تفسير يوحنا (مقالة ٢٥ : ٢) وامبروسيوس فى الأسرار (٢ : ٧) وايرونيموس ضد لوكيفروس (فصل ٤) وغيرهم من الآباء •

أما المعمودية فيجب ألا تمارس ـ كقاعدة أصلية ـ الا بالتغطيس وذلك يتضح مما يأتى :

أولا : ان السيد المسيح له المجد الذى شرع هذا السر المقدس هكذا اعتمد ، ليضع لنا مثالا نحتذيه ، فيقول الانجيل عن عماده « فلما اعتمد يسوع صعد للوقت من الماء » (مت ٣ : ١٦) وفى ذلك برهان جلى على أنه كان مغمورا بالماء ونازلا فيه حتى أنه صعد منه •

ثانيا : ان يوحنا المعمدان والرسل الذين سلمونا وديعة الأيمان هكذا مارسوا العماد ، فيوحنا المعمدان عمد الذين أتوا اليه فى نهر الأردن ، ولو جاز العماد بسكب الماء أو رشه لما كانت هناك حاجة للاتيان بهم الى النهر ، بل كان قليل من الماء يكفى فى هذه الحالة • وفيلبس عمد الخصى وزير كنداكة ملكة الحبشة بالتغطيس • حيث جاء فى سفر الأعمال قوله « فأمر أن تقف المركبة فنزلا كلاهما الى الماء فيلبس والخصى فعمده • ولما صعدا من الماء

خطف روح الرب فيلبس فلم يبصره الخصى أيضا » (أع ٨ : ٣٦ـ ٣٩) فلو كان العماد بالرش جائزا لقنع فيلبس بقليل من الماء يرشه على الخصى، وهو فى المركبة دون أن يكلفه النزول الى الماء .

نعم أن البعض استنتج من حادثة عماد الثلاثة آلاف نفس يوم الخمسين (أع ٢ : ٤١) ومن بعض الأشخاص فى البيوت ، كعماد ليدية وأهل بيتها ، والسجان وأهل بيته والذين له (أع ١٦ : ١٥ و ٣٣) أن العماد فى هذه الحالات كان بالرش . ولكن الجزم بذلك متعذر ، لأن الكتاب سكت عن ذكر الكيفية . على أن العماد فى تلك الحوادث بطريقة التغطيس لم يكن مستحيلا .

ثالثا : من التشبيهات الرمزية التى وردت عن المعمودية : فقد أشار بطرس الرسول الى حادثة الطوفان والفلك ، الذى فيه خلص قليلون أى ثمانى أنفس بالماء ، وقال « الذى مثاله يخلصنا نحن الآن أى المعمودية ، لا ازالة وسخ الجسد ، بل سؤال ضمير صالح عن الله بقيامة المسيح » (١ بط ٣ : ٢١) ووجه التشبيه هو أنه كما دخل الثمانى أنفس الى الفلك ، واجتازوا فى الماء ، فخلصوا من الهلاك وخرجوا الى حياة جديدة ، هكذا بدخولنا الى الماء فى المعمودية باعتبارها موتا ودفنا وقيامة مع المسيح ، نخلص من الهلاك ونخرج الى حياة البر .

وأشار بولس الرسول الى معمودية الاسرائيليين فى البحر الأحمر بقوله «وجميعهم اجتازوا فى البحر ، وجميعهم اعتمدوا لموسى فى السحابة وفى البحر» (١ كو ١٠ : ١ و ٢) ووجه التشبيه ظاهر فى هذا المثال وهو أنه كما أن الاسرائيليين اعتمدوا لموسى بعبورهم فى بحر الموت الرمزى ، وخرجوا الى شاطىء النجاة ، هكذا الذين يعتمدون للمسيح فى ماء المعمودية ، يعبرون بحر الموت ويخلصون ويخرجون الى شاطىء الحياة بالقيامة من الأموات (رو ٦ : ٣ و ٤) . وفى هذا الدليل المبنى على قياس التمثيل اشارة واضحة الى ممارسة المعمودية بالتغطيس .

رابعا : مما جاء فى أقوال الرسل عن معنى المعمودية : فقد قال بولس الرسول « أم تجهلون أننا كل من أعتمد ليسوع المسيح اعتمدنا لموته فدفنا معه بالمعمودية للموت ، حتى كما أقيم المسيح من الأموات بمجد الآب هكذا نسلك نحن أيضا فى جدة الحياة ، لأنه ان كنا قد صرنا متحدين معه بشبه موته نصير أيضا بقيامته » (رو ٦ : ٣ ــ ٥) وقال « مدفونين معه فى المعمودية التى فيها أقمتم أيضا معه بايمان عمل الله الذى أقامه من الأموات » (كو ٢ : ١٢) . ففى أقوال الرسول تشبيهات تامة حيث شبه المعمودية بالقبر ، والتغطيس بالدفن ، والانتشال من الماء بالقيامة . ولا يصح تشبيه الموت مع المسيح الا بذلك . فحيث أن المعمودية هى مثال موت المسيح ودفنه وقيامته ، فلا يصح اتمامها الا بالتغطيس الذى به نتحد مع المسيح بشبه موته ودفنه . لأنها تمثل موتنا ودفننا وقيامتنا معه .

وأيضا يدعو الرسول المعمودية « غسلا » بقوله « لا بأعمال فى بر عملناها نحن بل بمقتضى رحمته خلصنا بغسل الميلاد الثانى وتجديد الروح القدس » (تى ٣ : ٥) وقد أشار حنانيا الى هذا المعنى حيث قال لشاول « والآن لماذا تتوانى ، قم واعتمد واغسل خطاياك داعيا باسم الرب » (أع ٢٢ : ١٦) راجع أيضا (١ بط ٣ : ١٨ ــ ٢١ ، أف ٥ : ٢٦) ، والغسل لا يمكن أن يتم بالسكب أو بالرش بل بانغمار الجسم كله فى المـاء •

خامسا : من مدلول لفظة « معمودية » فان هذه اللفظة فى الأصـل اليونانى « فابتزما » وهى صيغة مبالغة من كلمة « فابتين » معناها « الصبغ »، وصبغ الشيء لا يتم الا بوضعه فى السائل وغمره به • أما السكب والرش فلا يؤديان هذه الغاية •

سادسا : ان جميع آباء الكنيسة هكذا علموا وهكذا مارسوا : قال القديس يوستينوس « ان جميع الذين يقتنعون ويصدقون بأن ما نعلمه ونقوله حقيقى ، ويعدون أنهم يستطيعون أن يعيشــوا هكذا ، يعلمون أن يصلوا ويطلبوا من الله بصوم مغفرة خطاياهم السالفة ، ونحن نصلى ونصوم معهم ، بعد ذلك نأتى بهم الى حيث يوجد ماء • وتعاد ولادتهم بأسلوب اعادة الولادة الذى أعيلت به ولادتنا ، لأنهم يستحمون حينئذ فى المـاء على (اسم) أبى الكل الاله السيد ومخلصنا يسوع المسيح والروح القدس » (احتجاج ٧ صفحة ٧٩) •

والقديس **كيرلس الأورشليمى** يقول : « كما أن الذى يدخل فى المـاء ويعمد ينغمر بالمـاء من كل جهة ، هكذا قد اعتمدوا تماما من الروح أيضا ، لكن المـاء يغمر المعمد من الخارج ، وأما الروح فيعمد النفس داخليا بلا انقطاع» (عظة ٣ : ٢) وغير ذلك من أقوال الآباء التى لا متسع لذكرها هنا •

أما سكب المـاء ورشه الذى بدأت الكنيسة الغربية باستعماله حديثا فيكفى أن نقول ان أحواض المعمودية لا تزال موجودة فى أقدم كنائس رومه دليلا على صحة تعليمها قديما ، ولا حق لها فى تحويل معموديتها الى معمودية رش ، ولا صحة للادعاء بأن الكنيسة القديمة لم تسمح بذلك الا فى بعض ظروف استثنائية لا مناص منها ، وعلى الخصوص للمرضى والمقعدين الذين لا يمكن عمـــادهم بالتغطيس (ترتوليانوس فى التوبة فصـــل ٦ وتاريخ أوسابيوس ٦ : ٤٣ وأغسطينوس فى تفسير يوحنا ٨٠) ومع ذلك فقد حدثت مشاجرات عنيفة بين مسيحيى ذلك العصر ، اذ كان كثيرون منهم لا يقبلون اعتبار مثل ذلك العماد الذى تم بالرش ، وكانوا يطلبون اعادة معموديتهم ، حتى اضطر القديس كبريانوس الى أن يكتب فى هذا الموضوع لنزع الخلاف من بينهم فقال : « ان سر العماد لا يعدم قوته ولا صحته اذا تم عند الضرورة بالرش ولا حاجة الى اعادته » (رسالة ٧٦) ولذلك فان الكنيسة الأرثوذكسية لا تعيد معمودية من أقتضى عمادهم بالرش لداعى المرض ، ولكنها لا تسمح باتمام السر اعتياديا الا كما أمر به المسيح وكما سلمنا الرسل •

الفصل الخامس

الاعتماد باسم الثالوث الأقدس ومعنى الاعتماد باسم المسيح

ان الكنيسة حسب تعليم الرب وأمتثالا لأمره تتمم سر العماد باسم الثالوث الاقدس الآب والابن والروح القدس وتذكر أسماء الأقانيم الثلاثة عند تغطيس المعتمد ، وهذا واضح من أمر الرب الصريح القائل « عمدوهم باسم الآب والابن والروح القدس » (مت ٢٨ : ١٩) وقد ورد فى القوانين الرسولية « ان كل أسقف أو قس لا يعمد حسب أمر الرب بالآب والابن والروح القدس بل بثلاثة (آباء) عديمى الابتداء أو بثلاثة بنين أو بثلاثة معزيين يقطع » وعن ذلك يقول العلامة أوريجانوس « معمودية الخلاص لا ينبغى أن تتمم على وجه آخر الا باسم الثالوث الأقدس أعنى باستدعاء الآب والابن والروح القدس » ويقول القديس كبريانوس « ان الرب ذاته أوصى بأن نعتمد باسم الثالوث الأقدس بجملته (١) » (رسالة ٧٣) ويقول القديس أثناسيوس الرسولى « من يرفض هذا الأقنوم أو ذاك من الثالوث الأقدس ، ويعتمد باسم الآب فقط ، أو الابن وحده ، أو الآب والابن خلا الروح القدس ، فذاك يشترك بالسر أصلا لأن الكمال والخلاص هما فى الثالوث » (رسالة الى سرابيون صفحة ٣٠) .

أما ما ورد فى الانجيل من العبارات التى تروى عن المعمودية باسم المسيح ، أو فى المسيح يسوع ، (أع ٢ : ٣٨ ، ٨ : ١٦ ، ١٠ : ٤٨ ، ١٩ : ٤٠) فلا يقصد منها نفى العماد باسم الثالوث الأقدس بل المعنى فى ذلك أننا نعتمد بالمعمودية التى أسسها ورسمها ربنا يسوع المسيح . وقد قال فى ذلك القديس أفلوجيوس « ان الاعتماد بيسوع المسيح هو الأعتماد حسب وصية يسوع المسيح وتسليمه الصريح أعنى باسم الآب والابن والروح القدس » وقال القديس باسيليوس « لا يعثرن أحد كلام الرسول حيث يسكت أحيانا عن ذكر اسم الآب والروح القدس فى المعمودية ، ولا يظن لهذا السبب أن أستدعاء الأسماء أمر لا يجب ملاحظته ، لأنه يقول أيها الذين أعتمدتم بالمسيح قد لبستم المسيح ، وأيضا أيها الذين أعتمدتم بالمسيح ، بموته أعتمدتم . فذكر المسيح هو أعتراف بالجميع لأن هذا الاسم المقدس يدل على الاله الذى مسح ، والابن الذى مسح ، المسحة وهى الروح القدس ، كما يقول بطرس الرسول « يسوع الذى من الناصرة كيف مسحه الله بالروح القدس » : (فى الروح القدس فصل ١٥)

---

(١) يقصد بكلمة (بجملته) هنا أن يكون العماد باسم الأقانيم الثلاثة (معا) .

الفصل السادس

نتائج سر المعمودية غير المنظورة واثبات أنها هى الولادة الثانية

قلنا فيما سبق ان الأسرار تمنح نعما غير منظورة . بعلامات طقوس منظورة ذى علاقة بها . وقد ثبت مما تقدم من ايضاح سر المعمودية فعله غير المنظور ، وهنا نشير الى نتائجه السرية وفعله فى نفوس قابليه :

أولا : المعمودية تعيد الولادة الثانية وتجدد خلقة الانسان روحيا وهذا ظاهر من قول الرب يسوع لنيقوديموس « الحق الحق أقول لك ان كان أحد لا يولد من فوق لا يقدر أن يرى ملكوت الله » فلم يفهم نيقوديموس قصد المسيح وفسره تفسيرا حرفيا ، وقال كيف يمكن الانسان أن يولد وهو شيخ . ألعله يقدر أن يدخل بطن أمه ثانية ويولد ؟ ففسر له الرب معنى كلامه بقوله « الحق الحق أقول لك ان كان أحد لا يولد من الماء والروح لا يقدر أن يدخل ملكوت الله ، وأردف هذا الكلام ببيان الفرق بين الولادة الجسدية والولادة الروحية بقوله : « المولود من الجسد جسد هو ، والمولود من الروح هو روح » ونظرا لأن هذه الولادة الروحية سرية لا تدرك كيفيتها قال له « لا تتعجب انى قلت لك ينبغى أن تولدوا من فوق . الريح تهب من حيث تشاء وتسمع صوتها لكنك لا تعلم من أين تأتى ولا الى أين تذهب ، هكذا كل من ولد من الروح » (يو ٣ : ٣ ـ ٨) فظاهر من هذا الكلام الصريح أن الرب يسوع يدعو المعمودية ميلادا ثانيا ، ويبين فعلها السرى غير المنظور . والى ذلك أشار يوحنا المعمدان الذى أشاد بمعمودية المسيح وقال عنه « هو سيعمدكم بالروح القدس ونار » (مت ٣ : ١١) وبولس الرسول يقول « لا بأعمال فى بر عملناها نحن بل بمقتضى رحمته خلصنا بغسل الميلاد الثانى وتجديد الروح القدس » (تى ٣ : ٥) .

ثانيا : من نتائجها غير المنظورة : التبرير وغفران الخطايا . وهذا واضح أيضا من كلام المخلص نفسه بأن « المولود من الجسد جسد هو ، وأما المولود من الروح فهو روح » وقول بطرس الرسول « توبوا وليعتمد كل منكم على اسم يسوع المسيح لغفران الخطايا فتقبلوا عطية الروح القدس » (أع ٢ : ٣٨) وقوله أيضا « الذى مثاله يخلصنا نحن الآن أى المعمودية » . موضحا بأن المراد بها « لا ازالة وسخ الجسد ، بل سؤال ضمير صالح عن الله » (١ بط ٣ : ٢١) وقول بولس الرسول « أيها الرجال أحبوا نساءكم كما أحب المسيح أيضا الكنيسة وأسلم نفسه لأجلها ، لكى يقدسها مطهرا اياها بغسل الماء بالكلمة ، لكى يحضرها لنفسه كنيسة مجيدة لا دنس

فيها ولا غضن ، أو شيء من مثل ذلك ، بل تكون مقدسة وبلا عيب » (أف ٥ : ٢٥ — ٢٧) فيسميها الرسول هنا « غسل الماء » وفى (١ كو ٦ : ١١) ويقول « لكن اغتسلتم بل تقدستم بل تبررتم باسم الرب يسوع وبروح الهنا » • فالمعمودية اذن تمارس بالماء الذى يستعمل للغسل ، وهى مقدسة ومطهرة ومبررة من الخطية الجدية بفعل الروح القدس وعمله غير المنظور (راجع ما جاء فى صحيفة ٢٤ عن ضرورة المعمودية ولزومها للخلاص) •

ثالثا : ان المعمودية تمنح الانسان نعمة التبنى حسب قول بولس الرسول « لأنكم جميعا أبناء الله بالايمان بالمسيح يسوع ، لأن كلكم الذين اعتمدتم بالمسيح ، قد لبستم المسيح ، ليس يهودى ولا يونانى ، ليس عبد ولا حر ، ليس ذكر وأنثى ، لأنكم جميعا واحد فى المسيح يسوع • فان كنتم للمسيح فأنتم اذا نسل ابراهيم وحسب الموعد ورثة » (غل ٣ : ٢٦ — ٢٩) وقوله أيضا « لأننا جميعنا بروح واحد أيضا أعتمدنا الى جسد واحد يهودا كنا أم يونانيين ، عبيدا أم أحرارا • جميعنا سقينا روحا واحدا » (١ كو ١٢ : ١٣) راجع أيضا (أع ٢ : ٤١ ، رو ٦ : ٣ و ٤) •

رابعا : من نتائجها العتق من عقوبة الخطية ، وأخذ ميراث الحياة الأبدية، حسب قول السيد « من آمن وأعتمد خلص ومن لم يؤمن يدن » (مر ١٦ : ١٦) وقول بولس الرسول « خلصنا بغسل الميلاد الثانى وتجديد الروح القدس ، الذى سكبه بغنى علينا بيسوع المسيح مخلصنا ، حتى اذا تبررنا بنعمته نصير ورثة حسب رجاء الحياة الأبدية » (تى ٣ : ٥ — ٧) وقول بطرس الرسول « ولدنا ثانية لرجاء حى بقيامة يسوع المسيح من الأموات ، لميراث لا يفنى ولا يتدنس ولا يضمحل محفوظ فى السموات لأجلكم » •
(١ بط ١ : ٣ و ٤)

فمن هذه النصوص المقدسة يتضح جليا أن نتائج المعمودية غير المنظورة بفعل روح الله القدوس هى الولادة الثانية ، والتبرير ، والتبنى ، وارث الملكوت • وهذه المنح والنتائج مرتبطة بعضها ببعض ، لأن نعمة الله اذ تلد الانسان ثانية تبرره وتقدسه وتجعله ابنا لله مستحقا لوراثة الحياة الأبدية •

وهذا التعليم هو تعليم المسيح ورسله ، وعليه سارت الكنيسة فى كل الأجيال ، وهكذا اعتقد آباء الكنيسة منذ الأجيال الأول •

واليك بعض شهاداتهم :

قال القديس برنابا فى رسالته فصل ١١ : « تتمم المعمودية لغفران الخطايا فننزل فى الماء موعبين (١) من الخطايا والوسخ ، ونصعد مسمرين الخوف

---

(١) كلمة « موعبين » بكسر العين تعنى الجمع والشمول • فكلنا ننزل المعمودية بخطايانا بلا استثناء •

فى قلوبنا ، ومالكين الرجاء بيسوع فى روحنا » وقال القديس يوستينوس (فى خطابه الى تريفون فصل ٤٤) « يجب أن نفتش ونعرف من أى طريق يمكن أن ننال صفح الخطايا ، ونمتلك رجاء ميراث الخيرات الموعود بها ، ولنا فى ذلك طريق واحد فقط ، وهو أن نعرف يسوع ونغتسل بالمعمودية لغفران الخطايا ، وهكذا نبتدىء أن نعيش بالقداسة » .

وقال القديس أكليمنضس الاسكندرى : « هذا الأمر عينه يحصل لنا نحن أيضا الذين قد صار لنا المسيح مثالا فاذ نعتمد نستنير ، واذ نستنير نتبنى ، واذ نتبنى نكمل ، واذ نكمل نضحى غير مائتين . كما يقول « أنا قلت انكم آلهة وبنو العلى جميعكم » ويدعى هذا الفعل بأسماء كثيرة أعنى نعمة واستنارة وكمالا وحميما . فهو نعمة اذ به نترك عقوبات خطايانا ، واستنارة اذ به نرى النور القدوس الخلاصى ، أعنى أننا نشخص به الى اللاهوت ، وكمال لأنه لا يحتاج الى شىء ، وحميم لأننا به نغسل خطايانا » (المربى كتاب ١ فصل ٦ : ٢٢٦) .

وقال القديس غريغوريوس الثاولوغوس : « ان نعمة المعمودية تنقى الانسان من كل خطية وتغسله غسلا كاملا من الأوساخ والأقذار اللاحقة به من الرذيلة ... وهى من حيث أنها نجدة للولادة الأولى تجعلنا جددا من عتق والهيين بدلا مما نحن عليه » (خطبة فى المعمودية) .

وقال القديس باسيليوس الكبير : « المعمودية فدية المأسورين ، وصفح الأوزار ، وموت الخطية ، واعادة ولادة النفس ، وثوب نير ، وختم لا ينفك ، ومركبة الى السماء تؤدى الى الملكوت ، ومنحة التبنى » (تعليم ابتدائى للموعوظين فصل ١٦) .

وقال القديس يوحنا ذهبى الفم : « ان معمودية النعمة تطهر كل انسان ، سواء كان فاسدا أو زانيا ، عابدا للأصنام أو غير ذلك ، لأنه مهما كان غارقا فى الخطية فحالما يدخل مياه المعمودية يخرج من هذه المياه الالهية أنقى من أشعة الشمس عينها ، وليس نقيا بل قديسا بل بارا أيضا ، لأن الرسول لم يقل « واغتسلتم » فقط بل قال « وتقدستم وتبررتم باسم الرب يسوع » . ثم انه فضلا عن نوالنا بالمعمودية صفح الخطايا والتنقية من المآثم والمظالم ، فاننا نولد بعد المعمودية ولادة ثانية ونخلق ونصور بها » (عظة ثالثة) .

وقال القديس أوغسطينوس : « اننا بميلادنا من الماء والروح القدس نتطهر من كل خطية ، سواء كانت من آدم الذى به أخطأ الجميع ؛ أو بفعلنا وقولنا لأننا نغسل منها بالمعمودية » (رسالة ١٧٨ : ٢٨) .

وهكذا علم باقى الآباء القديسين معلمى الكنيسة فى كل الأجيال .

الفصل السابع

وحدة المعمودية وعدم اعادتها

ان الكنيسة تعترف وتعلم طبقا لتعليم الرب ورسله بأن المعمودية واحدة ، ولذلك قررت فى قانون الايمان هكذا « نعترف بمعمودية واحدة لمغفرة الخطايا » وتعنى بذلك عدم جواز اعادتها ثانية متى تمت قانونيا حسب الشروط التى ذكرناها سابقا ، وذلك لسببين :

أولا : لأن المعمودية ولادة روحية ، فكما أن الانسان لا يولد جسديا الا مرة واحدة ، هكذا يجب أن تكون ولادته الروحية مرة واحدة ، وكما أن الانسان بميلاده الجسدى يأخذ صورة وهيئة خاصة يبقى عليها مدى حياته ، هكذا فى ميلاده الروحى يأخذ رسما وختما لا يمحى ٠

ثانيا : لأن المعمودية هى مثال موت المسيح ودفنه وقيامته ٠ فكما أن المسيح مات مرة واحدة مقدما ذاته كفارة أبدية (رو ٦ : ٤ ـ ٦ ، كو ٢ : ١٢ ، عب ٦ : ٤ ، ٧ : ٢٧ ، ٩ : ١٢ ، ١٠ : ١٠) ، وكما أنه وضع للناس أن يموتوا مرة واحدة (عب ٩ : ٢٧) هكذا لا يجوز أن تعاد المعمودية مرة ثانية ٠

ولذلك يقول آباء الكنيسة عن سر المعمودية « انه ختم لا يمحى وختم لا ينكسر » (أوامر الرسل ك ٣ فصل ١٦) « وانه ختم الله ، وكما خلق الانسان الأول على صورة الله ومثاله هكذا الذى يتبع الروح القدس يختم منه ويأخذ صورة الخالق » (أيرونيموس على رسالة أفسس ١ : ١٣) ويقول القديس أوغسطينوس « ان السمة السيدية لا تمحى البتة عن الذين نقتبلهم ولا نعمدهم ثانية » (رسالة ١٨٥ الى بونيفانيوس فصل ١٣) ويقول ترتوليانوس « لا يجوز أن تعاد المعمودية » (فى العفة) ويقول القديس يوحنا ذهبى الفم « قد دفنا معه بالمعمودية للموت ، وكما أنه غير ممكن أن يصلب المسيح مرة ثانية ، هكذا لا يقدر من قد أعتمد مرة أن يقبل معمودية ثانية » (مقالة ١١ : ٣ على رسالة العبرانيين) ٠ ويقول القديس افرآم السريانى « ان الرب أوصى تلاميذه أن ينقوا بمياه المعمودية خطايا الطبيعة البشرية مرة واحدة » (كتاب الايمان ٤ : ٩) ٠

الفصل الثامن

معمودية الدم أو الشهادة

ومن الواجب أن نبين هنا أن الكنيسة تعتبر معمودية أخرى تسميها « معمودية فوق العادة » أو « معمودية الدم والشهادة » • وتقصد بها الذين يقدمون أنفسهم للشهادة على اسم المسيح قبل أن يقتبلوا معمودية الماء ، وذلك بناء على قول الرب نفسه « كل من يعترف بي قدام الناس أعترف أنا أيضا به قدام أبي الذي في السموات » (مت ١٠ : ٣٢) « وأن من أراد أن يخلص نفسه يهلكها ومن يهلك نفسه من أجلي يجدها » (مت ١٦ : ٢٥) « طوبى للمطرودين من أجل البر لأن لهم ملكوت السموات »(مت ٥ : ١٠) « قد غفرت خطاياها الكثيرة لأنها أحبت كثيرا » (لو ٧ : ٤٧) « الذى يحبني يحبه أبي وأنا أحبه وأظهر له ذاتي » (يو ١٤ : ٢١) « ليس لأحد حب أعظم من هذا أن يضع نفسه لأجل أحبائه • أنتم أحبائي ان فعلتم ما أوصيكم به » (يو ١٥ : ١٣ و ١٤) . وبهذه المعمودية التى نحن بصددها قد أعتمد جمهور كثير من الشهداء الذين قدموا ذواتهم وسفكوا دمهم لأجل المسيح .

وقد أعتبر آباء الكنيسة هذه المعمودية اعتبارا كثيرا • فقد قال القديس كبريانوس : « لا يجهل أحد أن الموعوظين بعد استشهادهم لا يكونون غير معمدين ، لأنهم اصطبغوا أعظم صبغة وأشرفها ، أى صبغة الدم التى تكلم عنها المخلص • والرب يؤكد أيضا أن المعتمدين بدمهم والمقدسين بالتعذيبات يضحون كاملين ويأخذون نعمة الموعد الالهى » • وقال القديس كيرلس الأورشليمى : « من لا يقبل المعمودية فلا خلاص له • ما عدا الشهداء وحدهم الذين بدون الماء ينالون الخلاص • لأن المخلص لما كان يفتدى العالم كله بالصلب نخس فى جنبه فخرج منه دم وماء ، ليعتمد البعض بالماء فى أوقات السلام ، والبعض الآخر بدمهم فى أوقات الاضطهادات • ان المخلص نفسه دعا الشهادة صبغة بقوله « هل تستطيعان أن تشربا الكأس التى أشربها أنا وأن تصطبغا بالصبغة التى أصطبغ بها » (عظة ٣ : ٨) وقال القديس باسيليوس « ان بعضا نالوا الموت بالجهاد الذى عن حسن العبادة لأجل المسيح حقيقة لا اقتداء ، ولم يحتاجوا الى شىء من الرسوم التى من الماء لخلاصهم ، لأنهم تعمدوا بدمهم » (لامفيلوشيوس فى الروح القدس رأس ١٥) وقال القديس غريغوريوس الثاولوغوس « اننى أعرف معمودية أخرى أيضا وهى معمودية الشهادة والدم ، المعمودية التى تعمدها مخلصنا نفسه • هذه المعمودية هى أكثر مجدا من غيرها » (خطاب فى عيد الظهور) وقال القديس أغسطينوس عن أطفال بيت لحم « الطوبى لكم لأنكم بعد الولادة وقبيل المحاربة قد تكللتم بالظفر ، وأنى لا أرتاب فى أن استشهادكم قد أستحق لكم اكليل عدم الموت ، كما لا أرتاب فى أن المعمودية مفيدة للأطفال » •

الفصل التاسع

١ ـ من له حق التعميد :

ان الرب يسوع قد جعل حق التعميد للرسل حيث قال لهم « اذهبوا وتلمذوا جميع الأمم وعمدوهم الخ » (مت ٢٨ : ١٩ ، مر ١٦ : ١٦) وقد انتقل هذا الحق من الرسل الى خلفائهم الأساقفة ، ومن الأساقفة الى القسوس، أى أن الذين لهم حق التعميد هم الأساقفة والقسوس لا غير مع خدمة الشماس معهم • وقد نصت القوانين الرسولية هكذا « اننا لا نسمح بحق التعميد لأحد من الأكليروسيين مثل القارئين والمرتلين والبوابين والخدمة ، الا للأساقفة والقسوس وحدهم ، الذين يخدم معهم الشمامسة » وقد أثبت ذلك جميع آباء الكنيسة • قال القديس أغناطيوس الشهيد فى رسالته الى أهل أزمير « لا يسمح لكم أن تعمدوا بدون أسقف ولا أن تقربوا قرابين ولا أن تقدموا ذبيحة » وقال العلامة ترتوليانوس « ان السلطة فى تتميم المعمودية منوطة بالأسقف ثم بالقسوس مع الشمامسة • ولكن ليس بدون اذن من الأسقف لشرف الكنيسة » وقال القديس أبيفانيوس « انه حسب النظام الكنسى لا يتمم الشمامسة سرا من الأسرار ، ولكنهم يخدمون فى خدمة الأسرار ، غير أنه حينما تدعو الضرورة يسمح للعالميين (١) أيضا أن يعمدوا » (ضد الهرطقات ٨٩) وقال أيضا « لو كان التعميد مسموحا به للنساء ، لما تقبل ربنا يسوع المسيح المعمودية من يوحنا ، بل من أمه الكلية القداسة » (ضد الهراطقة ٧٩) •

٢ ـ واجبات المعتمدين :

الواجبات المطلوبة من المعتمدين هى :

أولا : الايمان بالرب يسوع (مر ١٦ : ١٦ ، أع ١٦ : ٣١) •

ثانيا : الاعتراف بهذا الايمان علنا وصريحا •

ثالثا : التوبة حسب قول بطرس الرسول « توبوا وليعتمد كل واحد منكم على اسم يسوع المسيح لغفران الخطايا فتقبلوا عطية الروح القدس • (أع ٢ : ٣٨ ، ٣ : ١٩)

---

(١) كلمة « العالميين » هنا يقصد بها على التغليب الشمامسة لأن الكنيسة تقيمهم لمعاونة رجال الكهنوت فى الخدمات الكنسية والخدمات فى العالم بين الناس ، وقد اختار الرسل الشمامسة السبعة كما جاء فى سفر الأعمال لمثل ذلك •

رابعا : بما أن ابن الله أظهر لكي ينقض أعمال ابليس (١ يو ٣ : ٨) لذلك يجب على المعتمد قبل كل شيء أن يجحد الشيطان ويرفض أعماله ، ويتعهد بأن يترك كل أباطيل العالم ويكفر بأعمال الظلمة ، لأنه رجع من ظلمات الجهل والشر والخطية الى نور المعرفة والقداسة والبر ، ومن سلطان الشيطان الى الله (أع ٢٦ : ١٨) • والمراد بجحد الشيطان ترك الخطية ورفض كل أعمال ابليس ، وأتباع المسيح والسلوك بحسب تعليمه ، والسير فى أثر خطواته • وهذا التعليم موافق كل الموافقة لروح الكتاب
هكذا « لينتهرك الرب يا شيطان » (زك ٣ : ٢) « اذهب يا شيطان » (مت ٤ : ١٠) وما جاء فى سفر أعمال الرسل من أن كثيرين من الذين آمنوا كانوا يأتون مقرين ومخبرين بأفعالهم • وكان كثيرون من الذين يستعملون السحر يجمعون الكتب ويحرقونها أمام الجميع ••• الخ (أع ١٩ : ١٨ و ١٩) راجع أيضا (١ كو ١٠ : ٢٠ ، ٢ كو ٦ : ١٥ ، أف ٥ : ١١ ، فى ٣ : ٨ ، ١٣ ، كو ٣ : ٥ ـ ١٠) •

والكنيسة تمارس هذا الأمر من عهد تأسيسها وذلك بشهادة العلامة ترتليانوس (فى المعمودية ٢٠) والقديس أكليمنضس الاسكندرى (فى الوصومات ٥ : ١١) وكيرلس الأورشليمى (عظة ١ : ٣٥) والقديس يوحنا ذهبى الفم (فى مقالة على رسالة أفسس) •

وقد ورد فى تاريخ موسهيم : « كان الأسقف والقسوس تحت أمره يعمدون مرتين فى السنة ، أى فى الفصح والأحد الجديد بعد الفصح • فمن جهة الطالبين يظن أنهم كانوا يغطسون بالماء كليا مع الابتهال للثالوث الأقدس حسب أمر المخلص بعد أن يكونوا قد تلوا ما يسمونه **قانون الايمان** ويرفضوا كل خطاياهم ولا سيما الشيطان وجنوده ، وكان يرسم الصليب على المعتمدين ويمسحونهم ويستودعونهم لله بالصلاة ووضع الأيادى وأخيرا يذيقونهم من اللبن والعسل •• كان على البالغين أن يروضوا عقولهم بالصلاة والصوم ورياضات أخر خشوعية • ووضع الأشابين أولا للبالغين ثم وضعوا للأطفال أيضا (موسهيم كتاب قرن ٢ قسم ٢ فصل ٤ عدد ١٣) •

وهذا الطقس لا يزال جاريا فى جميع الكنائس الكاثوليكية والأرثوذكسية والشيع البروتستانتية • فقد جاء فى كتاب الصلاة العامة للكنيسة الأسقفية : « بما أن هذا الوعد قد حصل من المسيح فينبغى لهذا الطفل أن يعد بأمانة على يدكم (أى الأشابين) معشر كفلائه الى أن يبلغ • فيتعين عليه وفاء ذلك بأن يرفض الشيطان وجميع أعماله ويؤمن بكلمة الله المقدسة راسخا ، ويحافظ على وصاياه مطيعا » ثم يسأل القسيس العراب (الأشبين) أبالنيابة عن هذا ترفض الشيطان وجميع أفعاله وزخارف الدنيا ومجدها الباطل الخ ؟ (راجع كتاب الصلاة العامة • باب معمودية الأطفال) •

٣ ـ وظيفة الأشابين :

كانت الكنيسة تلاحظ الذين يعتمدون وتراقبهم بكل حذر وتتلمذهم أولا زمنا تحت التعليم حتى تتحقق من ثباتهم في الايمان . ولما كانوا يمكثون مدة تحت الارشاد والوعظ فقد سمتهم « الموعوظين » وكانت الكنيسة ولا تزال تصلي لأجلهم مستمدة لهم من الرب نعمة الاستنارة ، وعنهم قال القديس غريغوريوس الثاولوغوس في مقالة يوم الخمسين « انه لا يليق ولا يوافق للاعين الضعيفة أن تعاين الشمس ، ولا للرضع أن يتناولوا طعاما كاملا ، بل الأجدر أن يتدرجوا قليلا قليلا الى ما هو قدام ويرتقوا الى الأمور السامية، فنحن بهذا الصنيع نمنح هؤلاء نورا بعد نور مبينين لهم من الحق يقينا » .

ولما كان الأطفال لا يدركون ماهية الايمان ، ولا يستطيعون اعلان ايمانهم ، ولا يفقهون معنى المعمودية ، ولا يمكن أيضا تلمذتهم ، فلذلك رأت الكنيسة منذ القديم أن تعمدهم على ايمان والديهم وتعهد أشابينهم ، الذين يتكفلون بتربيتهم التربية المسيحية وتعليمهم حقائق الايمان ، ويتعهدون بذلك أمام الكنيسة .

أما كلمة « أشبين » فانها سريانية الأصل ومعناها الحارس أو الوصي .

وتعيين الأشابين قديم جدا ويرجع الى زمن الرسل ، فقد ورد في سفر الاعمال أن الرب نفسه عهد الى حنانيا تعليم شاول وارشاده قبل عماده (أع ٩) وبعد ذلك مكث في دمشق عند حنانيا مع التلاميذ أياما (أع ٩ : ٢٨) وكذلك عهد الى بطرس الرسول تعليم كرنيليوس القائد الروماني قواعد الايمان وارشاده الى طريق الحياة الأبدية بالمسيح يسوع (أع ١٠) وقد قال القديس ديوناسيوس الأريوباغي تلميذ بولس الرسول عن هذه العادة : « ان هذا الأمر افتكر به معلمونا الالهيون (الرسل) ورأوه موافقا أن يقبل الأطفال على هذا الوجه الشريف أعني أن يسلم الوالدان الطبيعيان ولدهم لمرب صالح وأن يبقى الولد فيما بعد تحت ادارته كأنه تحت عناية أب الهي وكفيل لخلاص مقدس ، فمتمم السر يرفعه وهو معترف الى الحياة المقدسة طالبا رفض الشيطان والاقرار الشريف » (في رئاسة الكهنوت ٧ : ١١) وقال القديس يوحنا ذهبي الفم « وان كان المعمدون أطفالا أو طرشا لا يستطيعون استماع التعليم فليجاوب أشابينهم عنهم ، وهكذا يعمدون حسب العادة » (على مز ١٤) وقال القديس أغسطينوس « اننا نؤمن ونصدق بتقوى وصواب أن ايمان الوالدين والأشابين يفيد الأطفال ، وعلى هذا الايمان يعمدون » (في السلطة الذاتية ٢٣ : ٦٧ ورسالة ١٩٣ : ٣) .

٢ — سر الميرون
أو المسحة المقدسة

الفصل الأول

١ — ارتباط هذا السر بسر المعمودية وتعريفه وأسماؤه والغرض منه وتأسيسه .

اننا بسر المعمودية نولد ولادة ثانية من فوق . ومن ولد ولادة جديدة يحتاج الى قوة تثبته وتحفظ وجوده ونموه فى الحياة الروحية ، ولهذا منح الرب يسوع هذا السر للمؤمنين لثباتهم فى الايمان وتقويتهم ونموهم فى التقوى. وبناء عليه يكون لهذا السر بالنسبة للمعمدين الرتبة الثانية بين الأسرار ، ولهذا السبب يمنح بعد المعمودية حالا .

وهو سر مقدس به ننال ختم موهبة الروح القدس .

وبالنظر الى طبيعة السر ومفاعيله دعى « وضع الأيادى » لأن الرسل كانوا يتممونه فى العصر الأول بوضع الأيادى على المعتمدين ، وسمى غالبا مسحة ، ومسحة سرية ، وسر المسحة ، ومسحة الميرون ، ومسحة الخلاص ، وذلك لأنه يتمم بمسح المعتمد بالميرون الذى هو طيب خاص . وأما بالنسبة لمفاعيله الداخلية الروحية فقد سمى موهبة الروح القدس ، وسر الروح ، وعلامة الروح ، وسر التثبيت ، وختم الروح ، وختم الحياة الأبدية .

٢ — الغرض من هذا السر :

أما الغرض من هذا السر فواضح مما تقدم ، وهو النمو والتدرج فى الحياة الروحية ، فكما أنه توجد فى الطبيعة البشرية للمولود جديدا قوة لازمة للنمو والنشوء للوصول الى الكمال ، وكما أنه توجد أيضا فى القوى العقلية قوة كامنة — وان كانت غير ظاهرة فى الصغر — تنمو وتزداد شيئا فشيئا ، كذلك المولود روحيا بالعماد تلزمه قوة لينمو روحيا ، وتلك القوة تمنح بسر الميرون. ولما كانت حياتنا الروحية تبدأ وتنمو فى دائرة روحية لزم أن تأتينا هذه القوة المكملة للحياة من روح علوى ، وبما أن هذه الحياة هى الهية لزم أن ينميها روح الله نفسه . فاننا بالعماد نتطهر ، وبالميرون نتقوى . بالعماد ننجو من الموت ، وبالميرون نحيا ونثبت فى الحياة . بالمعمودية ننال الولادة الثانية ونقبل الروح القدس للتبرير ، وبالميرون ننال الروح الذى يهبنا

الكمال . بالمعمودية ندخل فى ملكوت المسيح ، وبالميرون نتجند ونلبس أسلحة الحرب . بالمعمودية نتدرج ضمن عضوية الكنيسة ، وبالتثبيت نكون جنودا للمسيح . المعمودية تجعلنا من رعايا المسيح وبالميرون ندخل فى صفوف الجيش .

٣ ـ تأسيس هذا السر :

وقد أسس الرب يسوع هذا السر عندما قال : « ان عطش أحد فليقبل الى ويشرب . من آمن بى كما قال الكتاب تجرى من بطنه أنهار ماء حى . قال هذا عن الروح الذى كان المؤمنون به مزمعين أن يقبلوه لأن الروح القدس لم يكن قد أعطى بعد لأن يسوع لم يكن قد مجد بعد » (يو ٧ : ٣٧ ـ ٣٩) فمن هذا النص الشريف يتضح أن الرب يسوع يشير الى موهبة كان مزمعا أن يهبها للمؤمنين ، وهى عطية الروح القدس الضرورية لكل مؤمن ، وليس الى المواهب غير الاعتيادية التى تمنح أحيانا الى بعض من المؤمنين لمقاصد خاصة ، كفعل المعجزات والتكلم بالألسنة وغير ذلك .
(راجع ١ كو ١٢ : ٧ و ٢٩)

وللروح القدس أعمال عظيمة فى سر الفداء وفى حياة الكنيسة . فهو منذ البدء يبث روح الحياة فى المادة (تك ١ : ٢) وهو الذى أعلن الحقائق الالهية والنبوات الى الأنبياء . وهو الذى قدس السيدة العذراء لحلول المسيح فى أحشائها . وهو الذى كرس ناسوت المسيح وجعل جميع أعماله العلنية مخصصة لله الآب . وقد أسس المسيح الكنيسة وجمعها وباركها وفداها ، والروح القدس قدسها وأنشأ فيها قوته المحيية وثبتها ووحدها ولا يزال يحييها .

ولذلك وعد الرب يسوع تلاميذه بحلول الروح القدس قائلا : « وأنا أطلب من الآب فيعطيكم معزيا آخر ليمكث معكم الى الأبد . روح الحق الذى لا يستطيع العالم أن يقبله لأنه لا يراه ولا يعرفه . وأما أنتم فتعرفونه لانه ماكث معكم ويكون فيكم » (يو ١٤ : ١٦ و ١٧) « ان لم أنطلق لا يأتيكم المعزى ولكن ان ذهبت أرسله اليكم . واما متى جاء ذاك روح الحق فهو يرشدكم الى جميع الحق . الخ » (يو ١٦ : ٧ و ١٣) « وأوصاهم أن لا يبرحوا من أورشليم بل ينتظروا موعد الآب ... لأن يوحنا عمد بالماء وأما أنتم فستتعمدون بالروح القدس » (أع ١ : ٤ و ٥) .

ولا ريب أن العنصرة كانت للرسل تثبيتا ، وفى ذلك اليوم قبلوا هذا السر المقدس بمعجزة من الروح القدس مباشرة ، اذ لم يكن فى الكنيسة أحد قبلهم ليمنحهم اياه .

وأما الرسل فقد أعطوا أن يمنحوا هذا السر لغيرهم من المؤمنين ، لأن المخلص أقامهم خداما لانجيله ووكلاء لأسرار نعمه ، وما تم للرسل فى يوم الخمسين يمنح لكل مؤمن لدى قبوله سر التثبيت .

الفصل الثانى

استقلال هذا السر عن سر المعمودية واثباته

هذا السر وان كان يمنح بعد المعمودية الا أنه سر مستقل بنفسه كما يتضح ذلك مما يأتي :

أولا : مما تقدم من مواعيد السيد له المجد عن هذا السر ما يبرهن على أنه شيء خاص خلاف المعمودية (راجع صفحة ٤٣) .

ثانيا : مما نراه واضحا من أعمال الرسـل عن هذا السر . فقد ورد صريحا فى سفر الأعمال أنه « لما سمع الرسل الذين فى أورشليم أن السامرة قد قبلت كلمة الله أرسلوا اليهم بطرس ويوحنا . اللذين لما نزلا صليا لأجلهم لكي يقبلوا الروح القدس . لأنه لم يكن قد حل بعد على أحد منهم . غير أنهم كانوا معتمدين باسم الرب يسوع . حينئذ وضعا الأيادى عليهم فقبلوا الروح القدس » (أع ٨ : ١٤ - ١٧) فمن قوله « غير أنهم كانوا معتمدين باسم الرب يسوع » يتضح أن سر المعمودية ليس هو قبول الروح القدس للتثبيت الذى لا يحل الا بواسطة سر الميرون . وكذلك لما جاء بولس الرسول الى أفسس « فاذ وجد تلاميذه قال لهم هل قبلتم الروح القدس لما آمنتم : قالوا له ولا سمعنا أنه يوجد الروح القدس . فقال لهم فبماذا اعتمدتم فقالوا بمعمودية يوحنا . فقال بولس ان يوحنا عمد بمعمودية التوبة قائلا للشعب أن يؤمنوا بالذى أتي بعده أى بالمسيح يسوع . فلما سمعوا اعتمدوا باسم الرب يسوع . ولما وضع بولس يده عليهم حل الروح القدس عليهم » (أع ١٩ : ٢ و ٦) .

ومن هذين النصين يتضح :

١ - أن الرسل كانوا يتممون هذا السر بوضع اليد بعد المعمودية .

٢ - أنهم بوضع اليد كانوا يمنحون للمؤمنين موهبة حلول الروح القدس .

٣ - أن الرسل عندما كانوا يضعون أياديهم على المعتمدين كانوا يصلون الى الله ليحل الروح القدس . ومن ذلك يظهر أنه عمل سرى قائم بنفسه ، مستقل عن المعمودية .

٤ - أن هذا السر المنفصل عن سر المعمودية هو سر مؤسس من المسـيح نفسه ، لأن كلام الرسل وتعليمهم وأعمالهم ليست لهم لكنهم تسلموها من المسيح ، وألهموا بها من قبل روحه الأقدس .

ثالثا : أن الرسل الأطهار يشيرون فى رسائلهم الى هذا السر المقدس ويؤكدون للمؤمنين بأنهم أخذوا به موهبة الروح القدس ، وهذا صريح فى قول القديس يوحنا الانجيلى « وأما أنتم فلكم مسحة من القدوس وتعلمون كل شىء ٠٠٠ وأما أنتم فالمسحة التى أخذتموها منه ثابتة فيكم ولا حاجة بكم الى أن يعلمكم أحد بل كما تعلمكم هذه المسحة عينها عن كل شىء ٠ وهى حق وليست كذبا كما علمتكم تثبتون فيه » (١ يو ٣ : ٢٠ ، ٢٧) واذا قابلت كلام يوحنا هذا مع وعد المسيح عن الروح القدس بقوله « وأما المعزى الروح القدس الذى سيرسله الآب بأسمى فهو يعلمكم كل شىء ويذكركم بكل ما قلته لكم » (يو ١٤ : ٢٦) رأيت أن المسحة التى يشير اليها هى حلول الروح القدس للتثبيت ٠ لا سيما وأن هذا هو اصطلاح الكتاب فقد سبق اشعياء النبى وسمى حلول الروح مسحة بقوله « روح الرب على لأن الرب مسحنى » (اش ٦١ : ١) وبولس الرسول يقول « ولكن الذى يثبتنا معكم فى المسيح وقد مسحنا هو الله الذى ختمنا أيضا وأعطى عربون الروح فى قلوبنا » (٢ كو ١ : ٢١ و ٢٢) وعند كلامه عن المعمودية يقول « لكن اغتسلتم - ثم يردفها بقوله - بل تقدستم » (١ كو ٦ : ١١) ويقول أيضا « خلصنا بغسل الميلاد الثانى وتجديد الروح القدس » (تى ٣ : ٥ ، أف ٥ : ٢٦) وفى (عب ٦ : ٢) يشير الى تعليم المعموديات ووضع الأيادى ، وفى ذلك دلالة ظاهرة على أن وضع الأيادى خلاف المعمودية ٠

ومما تقدم يتضح أن الرسل يشيرون الى هذه المسحة ويسمونها تثبيتا ، وختما ، ووضع الأيادى ، ومسحة ٠ وذلك بالنظر الى فعل السر الداخلى ، ويثبت ذلك أيضا أقوال الآباء الرسوليين مثل ديوناسيوس الأريوباغى تلميذ بولس الرسول فى (كتاب رئاسة الكهنوت ٧ : ٤ - ٧) وكيرلس الأورشليمى فى (مقالة عن الأسرار) ويوحنا ذهبى الفم فى (تفسير ٢ كو فصل ٢) وأمبروسيوس فى (الأسرار فصل ٥) ٠

وبما أن الرسل يذكرون المسحة ووضع اليد فى مقام واحد ، فيستنتج من ذلك اما أنهم كانوا عندما يتممون هذا السر بوضع اليد يستعملون فى الوقت نفسه العلامة الثانية الظاهرة ، أى المسحة التى لم يذكر عنها شىء فى سفر أعمال الرسل ٠ واما أنهم كانوا يتممون السر بوضع الأيادى فقط ثم أستبدلوا - بارشاد الروح القدس - وضع الأيادى بعلامة المسحة ، آخذين مبدأها من تعليم الكتاب عن المسحة فى العهد القديم ٠

رابعا : ان الآباء الرسوليين الذين تسلموا التعليم من الرسل أنفسهم يشيرون فى أقوالهم الى هذا السر ٠

قال القديس ديوناسيوس الأريوباغى فى كلامه عن سر الشركة : « لكن توجد تكملة أخرى معادلة لهذه (أى الشركة) يسميها معلمونا الرسل « تكملة الميرون » ثم أخذ فى شرح تجهيز الميرون وكيف تتم المسحة على المعتمدين ،

والمواهب التي تمنحها الى أن قال « ان مسحة التكميل بالميرون المقدس لمن استحق سر الولادة الثانية يمنحها حلول الروح ذى العزة الالهية » (كتاب رئاسة الكهنوت ٤ : ١ و ١١ ، ٢ : ٨) .

وقال العلامة ترتليانوس : « بعد خروجنا من حميم المعمودية مسحنا بزيت مقدس تبعا للتكملة القديمة ، كما كانوا قديما يدهنون بزيت القرن لنوال الكهنوت ... ان المسحة تتم علينا جسديا لكننا نستثمر منها أثمارا روحية ، كما فى المعمودية حيث نعتمد جسديا بالماء ونستثمر أثمارا روحية اذ نتنقى من خطايانا . وبعد ذلك توضع اليد التى مع البركة تستدعى الروح القدس وتحدره » (فى المعمودية فصل ٧ وفى رفض الهراطقة فصل ٣٧ وضد مركيانوس ٣ : ٢٢) .

ويذكر القديس أكليمنضس الاسكندرى فى كلامه عن تلاميذ باسيليدس الهرطوقى أن المعمودية فى هذا المذهب الفتالى أى الذى ينسب كل شىء الى المقدرة » «ليست معمودية حقيقية ولا ختما مضبوطا» (فى البديعيات ٣:١١) .

وقال القديس كبريانوس : « من أعتمد ينبغى أن يمسح أيضا لكى يصير بواسطة المسحة ممسوحا لله ويأخذ نعمة المسيح » (رسالة ٧٠) وقال فى (رسالة ٧٢ عن الهراطقة) « لأنهم لا يستطيعون أن يتقدسوا تماما ويصيروا أبناء الله بدون اعادة ولادتهم بواسطة السرين » وقال أيضا فى (رسالة ٧٣) « كما أن الرسولين بطرس ويوحنا بعد صلاة واحدة استحدرا الروح القدس على سكان السامرة بوضع الأيادى ، هكذا فى الكنيسة أيضا من ذلك الحين جميع المعمدين ينالون الروح القدس ويختمون بختمه عند دعاء الكهنة ووضع أياديهم » .

وقد ورد فى أوامر الرسل « بعد هذا فليعمده الكاهن باسم الآب والابن والروح القدس وليمسحه بالميرون » (كتاب ٧ : ٤٣) .

وقال القديس كيرلس الأورشليمى : « قد صرتم مسحاء اذ قبلتم الروح القدس ، وكل شىء قد صار عليكم بحسب الرسم اذ أنكم رسوم المسيح ، فانه لما استحم فى نهر الأردن وصعد منه انحدر الروح القدس عليه جوهريا واستراح المثيل على مثيله ، ونحن أيضا بعد أن صعدنا من جرن الينابيع المقدسة منحت لنا المسحة رسميا كما مسح بها المسيح أعنى الروح القدس ... لكن أنظر واحترس من أن تظن ذاك الميرون بسيطا ، لأنه كما أن خبز الشكر بعد استدعاء الروح ليس خبزا بسيطا ، بل هو جسد المسيح . هكذا هذا الميرون المقدس لا يعد ميرونا بسيطا ولا عموميا بعد الدعاء ، بل هو موهبة المسيح وحضور الروح القدس فاعلا فعل ألوهيته فتمسح به على جبهتك وسائر حواسك ، والمسيح هو الذى وسم . فان الجسم يدهن بالميرون الظاهر ولكن النفس تقدس معا بالروح القدس المحيى » (تعليم الأسرار ٣ : ٣) .

وقال القديس افرآم السرياني : « ان سفينة نوح كانت تبشر بمجيء المزمع أن يسوس كنيسته فى المياه ، وأن يرتد أعضاؤها الى الحرية باسم الثالوث الأقدس • وأما الحمامة فكانت ترمز الى الروح القدس المزمع أن يصنع مسحة هي سر الخلاص » (خطاب ١٩ ضد الفاحصين) •

وقال القديس كيرلس الاسكندرى : « ان الميرون يشير حسنا الى مسحة الروح القدس » (على يوئيل ٢ : ٢٣) •

خامسا : ومما يستحق الاعتبار أن هذا السر وكذا باقى الأسرار السبعة المقدسة محترمة ومعتبرة هكذا عند جميع الكنائس الشرقية والغربية ، مع اختلاف هذه الكنائس فى أمور عقائدية كثيرة • فهذا الاتفاق العام دليل على أن هذا التعليم لم يصل الى الكنائس الا عن سليم رسولى منذ بداءة الكنيسة .

سادسا : أما شهادة التاريخ فنكتفى هنا بما ذكره المؤرخ البروتستانتى موسهيم حيث قال : « كان الأسقف أو القسوس تحت أمره يعمدون مرتين فى السنة أى فى الفصح والأحد الجديد الذى بعد الفصح • فمن جهة الطالبين يظن أنهم كانوا يغطسون بالماء كليا مع الابتهال للثالوث الأقدس حسب أمر المخلص ، بعد أن يكونوا قد تلوا ما يسمونه القانون ويرفضوا كل خطاياهم ومعاصيهم ولا سيما الشيطان وجنوده • وكان يرسم الصليب على المعمدين ويمسحون ويستودعون لله بالصلاة ووضع الأيادى » •
(كتاب ١ قرن ٢ قسم ٢ فصل ٤ عدد ١٣)

سابعا : ان كنائس كثيرة من الكنائس الحديثة التى أتبعت تعاليم **لوثر وكلفن** قد قبلت هذا السر وتمارسه • قال القس جيمس انس الأمريكى فى كتابه (نظام التعليم فى علم اللاهوت القديم) عن سر التثبيت « ان الكنائس اللوثرية والانكليزية الأسقفية والمصلحة الجرمانية تقبله نظير عمل يضاف الى معمودية الأطفال بعد تعليمهم التعليم المسيحى » (جزء أول صحيفة ١١٧) والكنيسة الأسقفية تتممه بوضع الأيادى للذين اعتمدوا وبلغوا سن التمييز ، وله عندها طقس خاص كما هو واضح فى كتابهم (الصلاة العامة) •

قال القس بنيامين شنيدر الانكليزى فى كتابه (ريحانة النفوس فى أصل الاعتقادات والطقوس • ص ١٦١) عن المسحة « قد أبتدىء باستعمالها قديما فان ترتوليانوس الذى توفى سنة ٢٢٠ يشير اليها (فى المعمودية رأس ٧) ولهذا يتضح أنها كانت موجودة فى آخر الجيل الثانى أو أول الجيل الثالث ••• الا أن وجودها فى ذلك العصر كعادة مقبولة من عامة الكنيسة يتضح من كيرلس (تعليم مسيحى لكيرلس) ومن الكتاب المدعو القوانين الرسولية (كتاب ٣ رأس ١٧ و كتاب ٧ رأس ٢٢) ومن ايرونيموس (فى نبوة حزقيال ص ٩) الى أن قال : بعد ذلك لم يكتفوا بهذه التشابيه بل أخذوا يستعملون عبارات

تشعر أن الروح القدس كان يعطى مع الزيت حتى أننا نجد عبارات مثل هذه في كبريانوس (رسالة ٧٠ الى يانواريوس) وأمبروسيوس (في الداخلين رأس ٧) وأغسطينوس (فصل ٦ فى تفسير رسالة يوحنا) ٠

وقال العالم أدورد وليم الانكليزى فى كتابه (القلائد الدرية فى الحياة المسيحية) « ولعل مما يزيل الأشكال من أذهان بعض الناس ايراد الأسماء المختلفة للمعمودية بالروح القدس ، فعبر عنها أحيانا « بالحلول » وأحيانا « بالنزول » وأحيانا « بالقبول » وأحيانا « بالختم » وأحيانا « بالمسحة » أى مسحة الروح القدس ، فعبر عنها بالمسحة فى (١ يو ٢ : ٢٧) كما عبر بطرس عن معمودية ربنا « بمسح الله اياه بالروح القوس والقوة » (أع ١٠ : ٣٨) وعبر عنها ربنا نفسه « بالحلول » أى حلول الروح القدس (أع ١ : ٨) وبهذا عبر عن قبول الافسسيين للروح القدس (أع ١٩ : ٦) وأكاد لا أدرى الى أى حد يجب أن أتقدم فى هذا البيان ٠ لأن ما يحتاج اليه من الايضاح أقل مما نحتاج اليه من الأشواق الى الله نفسه ٠ ومما يساعد بعض الناس ملاحظة أن الكنائس المسيحية القديمة تشهد بأنها قبلت الروح القدس بقانون التثبيت ، ولكن هذا القانون قلما فهم ، وكثيرا ما أحتقر وأعتزل مع أنه قانون الرسل (أنظر أع ٨ و ١٩) وما اهتمت به الكنائس القديمة كل الاهتمام وحسبت القانون الدائم الذى لا بد منه الى نهاية الأيام ، ومراعاة هذا القانون تدفع اعتراضات كثيرة قامت على تعليم المعمودية بالروح ، وهى المعمودية الواحدة بدليل قوله « اننا جميعنا بروح واحد أيضا اعتمدنا الى جسد واحد » (١ كو ١٢ : ١٣) وقوله « رب واحد وايمان واحد معمودية واحدة » (أف ٤ : ٥) ويحل ذلك المشكل أيضا برجوعنا الى الأصحاح الثامن من الأعمال ، حيث ورد فيه ولكن لما صدقوا (أى أهل السامرة) فيلبس وهو يبشر بالأمور المختصة بملكوت الله وباسم يسوع المسيح اعتمدوا رجالا ونساء» (أع ٨ : ١٢) ولكن ماذا كان بعد المعمودية « ان الروح لم يكن قد حل بعد على أحد منهم » (أع ٨ : ١٦) فنرى أنه قد مر وقت بين اعتمادهم ودخولهم الكنيسة وبين قبولهم الروح القدس (أع ٨ : ١٤ و ١٥) فلننظر هنا حسننا أنه كما لا ينكر أن امتيازات المعمودية متوقفة على قانون التثبيت لا ينكر أن المعمودية الواحدة قبول الروح القدس » (صحيفة ١٠ ــ ١٢) ٠

الفصل الثالث

منح هذا السر حالا بعد المعمودية وخطأ الذين يؤخرونه

ان الكنيسة الأرثوذكسية تمنح سر الميرون بعد المعمودية حالا ، متبعة في ذلك تعليم الرب يسوع ورسله الأطهار ، وما استلمته منذ العصر الرسولى. ولكن الكنائس الغربية بدأت منذ الجيل الثالث عشر أن تؤخر منحه للأولاد المعتمدين حتى تجاوزهم سن الطفولة ، أى في السنة السابعة أو الثانية عشرة حتى يشتركوا فيه بعقل بالغ ومعرفة كافية ، ولكن الأدلة الآتية تثبت الحقيقة الأرثوذكسية فى منحه بعد المعمودية حالا :

أولا : ان السيد المسيح له المجد لما اعتمد صعد للوقت من الماء ، واذا السموات قد انفتحت له فرأى روح الله نازلا مثل حمامة وآتيا عليه (مت ٣ : ١٦) وهذا يدل على أن الروح القدس يحل بواسطة الميرون بعد المعمودية حالا .

ثانيا : ان الرسل الأطهار الذين سلمونا وديعة الايمان كانوا يتممون هذا السر المقدس بوضع الأيادى بعد المعمودية حالا ، كما نرى ذلك فيما عمله بولس الرسول مع تلاميذ أفسس اذ قال لهم « هل قبلتم الروح القدس لما آمنتم . قالوا له ولا سمعنا أنه يوجد الروح القدس . فعمدهم باسم الرب يسوع ولما وضع بولس يديه عليهم حل الروح القدس عليهم » (أع ١٩ : ١ ــ ٦) وكما نشاهد ذلك أيضا من أنه حين سمع الرسل الذين فى أورشليم أن أهل السامرة قد قبلوا كلمة الله واعتمدوا على يد فيلبس الذى لا حق له فى وضع الأيادى ، أرسلوا اليهم بطرس ويوحنا اللذين لما نزلا صليا لأجلهم لكى يقبلوا الروح القدس ، لأنه لم يكن قد حل بعد على أحد منهم ، غير أنهم كانوا معتمدين باسم الرب يسوع . حينئذ وضعا الأيادى عليهم فقبلوا الروح القدس (أع ٨ : ١٤ ــ ١٧) فمن ذلك يتضح أن الرسل كانوا يتممون هذا السر بعد المعمودية حالا .

ثالثا : ان آباء الكنيسة فى الأجيال الأولى كانوا يتممونه حسب التعليم الرسولى بعد المعمودية حالا ، وذلك بشهادة العلامة ترتوليانوس الذى عاش فى الجيل الثانى فقد قال : « بعد خروجنا من حميم المعمودية مسحنا بزيت مقدس تبعا للتكملة القديمة ، كما كانوا قديما يدهنون بزيت القرن لنوال

الكهنوت ... ان المسحة تتمم علينا جسديا لكننا نستثمر منها أثمارا روحية كما فى المعمودية حيث نعتمد جسديا بالماء ونستثمر أثمارا روحية اذ نتنقى من خطايانا ، وبعد ذلك توضع اليد التى مع البركة تستدعى الروح القدس وتحدره » كما قال القديس كيرلس الأورشليمى فى مقالته الثالثة عن الأسرار : « بعد خروجنا من جرن المجارى المقدسة أعطيت المسحة وهى رسم المسحة التى مسح بها المسيح فهذه هى الروح القدس » وورد فى مجمع اللاذقية « يجب على المستنيرين أن يمسحوا بعد المعمودية بمسحة سمائية ويشتركوا فى ملكوت المسيح » .

رابعا : ان علماء الكنيسة الرومانية أنفسهم يقرون ويشهدون أن المسحة المقدسة كانت تتمم مدة أثنى عشر قرنا على المستنيرين حديثا بعد المعمودية حالا ، ليس ذلك فى الشرق فقط بل وفى الغرب أيضا (بيرون فى مقدماته فى اللاهوت جزء ٦ صحيفة ١٣٢) .

خامسا : ان تأخير هذا السر يحرم الأطفال من هذه النعمة التى تمنحهم هبة حلول الروح القدس وسمة التثبيت التى يحق لهم الاشتراك فيها كما يشتركون فى غيرها من الأسرار ، والا فاذا كان من الضرورى أن يشترك الانسان فى الأسرار بعقل بالغ لزم أن يشترك فى باقى الأسرار المقدسة كالمعمودية وغيرها وهو طفل . وما الذى يمنع الأولاد من قبول هذا السر ونحن نرى أن يوحنا المعمدان قد امتلأ من الروح القدس وهو فى بطن أمه . (لو ١ : ١٥)

سادسا : ان الكنيسة لا تضمن حياة الأطفال حتى تجاوزهم سن الطفولة ، فلربما فاجأهم الموت قبل أن يبلغوها كما يحصل كثيرا ، وبذلك تكون الكنيسة قد حرمتهم هبة من أسنى المواهب وأفضل الخيرات .

الفصل الرابع

الميرون واستعماله وتاريخه

الميرون كلمة يونانية معناها « طيب » وتطلق فى الاصطلاح الكنسى على المزيج السائل المركب من نحو ٣٠ صنفا من أصناف الطيوب والعطور كالمر والعود والسليخة وقصب الذريرة وعود اللبان (راجع مز ٤٥ : ٨ ، خر ٣٠ : ٢٢ ــ ٣٣) وقد روى آباء الكنيسة أن الرسل الأطهار أخذوا الحنوط التى كانت على جسد الرب يسوع ، مع الحنوط والأطياب التى ابتاعتها النسوة (لو ٢٣ : ٥٦ ، ٢٤ : ١) وأضافوا اليها من زيت الزيتون وغيره وقدسوها بكلمة الله والصلاة وجعلوها ميرونا لسر المسحة ووزعوه على الكنائس وكانوا يمسحون به المعتمدين · وأمروا أن يكون مادة محسوسة وعلامة ظاهرة فى سر التثبيت ، وما زال الرسل وخلفاؤهم من بعدهم يستعملونه · وقد جاء فى أوامر الرسل (ك ٧ ف ٣٢) ما يدل على ذلك « أيها الأسقف أو القس يجب أن تمسح بزيت ثم تعمد بماء وأخيراً تختم بالميرون » وقولهم « بعد ذلك فليعمده الكاهن وليمسحه بالميرون » (ف ١٤٣) وقال القديس ديوناسيوس الأريوباغى تلميذ بولس الرسول « توجد تكملة أخرى معادلة لهذه (أى للشركة) يسميها معلمونا الرسل **تكملة الميرون** » وغير ذلك من أقوال الآباء التى أوردنا بعضها فى صحيفة ٤٦ ــ ٤٨ مما يدل على أن هذا الاستعمال مأخوذ من الرسل ·

أما الذى حدا بالرسل الى استعمال الميرون على هذا النحو فهو

أولا : لأن لكل سر علامة ظاهرة ومادة منظورة . فالمسح اشارة الى المسحة الروحية ، وكما أن المعمودية لها علامة ظاهرة وهى الماء مشابهة لفعلها فى الجسد تمام المشابهة لفعلها فى النفس ، هكذا المسحة علامة منظورة مشابهة لفظا ومعنى للمسحة الداخلية التى من القدوس ·

ثانيا : ان اسم المسيح مشتق من كلمة مسح حيث كان رؤساء الكهنة والملوك يمسحون بالزيت قبل نوالهم رتبتهم الكهنوتية أو الملوكية (راجع خر ٢٨ : ٤١ ، لا ٦ : ٢٢ ، ١ صم ١٠ : ١ ، ١٢ : ١٣) ·

ثالثا : ان كلمة مسحة وردت فى أقوال الرسل ، فقد قال يوحنا الرسول « لكم مسحة من القدوس ··· وأما أنتم فالمسحة التى أخذتموها منه ثابتة

فيكم الخ » (١ يو ٢ : ٢٠ و ٢٧) وقال بولس الرسول « الذى يثبتنا معكم فى المسيح قد مسحنا الخ » (٢ كو ١ : ٢١ و ٢٢) راجع أيضا (اش ٦١ : ١) ٠

رابعا : يظهر مما تقدم أن الرسل الأطهار هم الذين استعملوا المسحة فى سر التثبيت مع وضع اليد الذى كان خاصا بهم.(أع ٨ : ١٤ ـ ١٧ ، ١٩ : ٦) وخولوا الكهنة حق مسح المعتمدين ، ولذلك قال القديس كيرلس الأورشليمى « من الضرورى أن تعلموا أن رسم هذه المسحة هو فى العهد القديم لأن موسى لما جاء بأمر الله الى أخيه وجعله رئيس كهنة وبعد أن غسله بالماء مسحه ، وكان يدعى مسيحا من المسحة الرمزية ٠ وهكذا رئيس الكهنة لما أقام سليمان ملكا مسحه بعد غسله فى جيحون غير أن هذه الأمور جرت على أولئك رمزيا ، ولكنها عليكم ليست رمزية ، بل هى حقيقية لأنكم مسحتم حقيقة من الروح القدس » (فى الأسرار ٣ : ٦) ٠

خامسا : ان استعمال المسحة حسب أمرا جوهريا لازما للمعتمدين بدليل ما ورد فى أقوال آباء المجامع المسكونية دون أن يذكروا شيئا عن وضع اليد ، وهذا يدل على أن سر المسحة كان قائما فى الكنيسة القديمة بمسح الميرون لا بوضع الأيادى ، وقد أضافت بعض كنائس الغرب وضع الأيادى فى تتميمه ، فان القديس كبريانوس يذكر المسحة ويذكر وضع الأيادى ويصرح بأنه من الضرورى أن ينال المسحة كل واحد من المستنيرين حديثا ٠ والبابا أينوشنسيوس الثالث يقول « ان وضع الأيادى يشار اليه بمسح الجبهة وهو من وجه آخر يدعى مسحة » ٠ والبابا أفجانيوس الثالث يقول « عوضا عن وضع اليد تمنح المسحة فى الكنيسة » ٠

قال المطران جراسيموس مسرة صاحب كتاب الأنوار فى الأسرار : « ما دام من المؤكد والثابت أن الرسل القديسين سلموا الكنيسة سر المسحة بالمسح بالميرون فلا يكون محل للقول بأن الرسل أبدلوا وضع الأيدى بالمسحة ٠ لأن البحث انما هو فى الكيفية التى بها تسلمت الكنيسة الأسرار المقدسة من الرسل لا أكثر ٠ ولا أظن أن الرسل تسلموا وضع اليد ثم أبدلوه بغيره وأبطلوه مع أن وضع اليد لم يزل فى الكنيسة الى الآن ، لكنهم كانوا يستعملون وضع اليد لغاية أعلى من الغاية المقصودة من سر المسحة أعنى أنهم كانوا يضعون أيديهم على المؤمنين الحقيقيين لا للتثبيت وحده فقط بل ليمنحوهم مع التثبيت مواهب خصوصية أيضا كموهبة التعليم والنبوة والكهنوت الخ ٠ وأما التثبيت العمومى فكان محصورا بالمسحة كما تفعل الكنيسة الأرثوذكسية ٠٠٠ وهذا يمكن اثباته بأن هذا السر (يقصد طقس الميرون) سمى مسحة وسر المسحة ورمزا ورسما وتثبيتا وختما ٠ ومعلوم أن لفظ المسحة والختم لا يدل على وضع اليد بل على الدهن والطبع بالميرون ٠ وقد قال بعض اللاهوتيين ان وضع اليد الذى كان الرسل يمنحون به للمؤمنين

مواهب الروح القدس لم يكن منفصلا عن المسح فى تتميم سر المسحة ، بل كان ولم يزل متحدا معه لأن راعى الكنيسة حين يتمم السر داهنا بيده جبهة المعتمد وسائر أعضاء جسده يرفع يمينه عليه ليدهنه ، فبرفعه يمينه يكون قد وضع يده عليه وتم وضع اليد » (صحيفة ٣٩) ٠

تاريخ الميرون :

قلنا فى الفصل السابق أن عمل الميرون بدأ من أيام الرسل ، وقد روى مؤرخو الكنيسة القبطية بأن الميرون الذى أتى به مار مرقس الانجيلى بقى حتى زمن القديس أثناسيوس الرسولى العشرين فى عدد باباوات الاسكندرية ، فى أوائل القرن الرابع الى أن نفد أكثره ولم يبق منه شىء فى كنائس رومية وانطاكية والقسطنطينية ولما علم رؤساء تلك الكنائس بوجود بقية منه فى كنيسة الاسكندرية بعثوا برسائل الى القديس أثناسيوس يطلبون منه امدادهم بجزء منه ، فأخبرهم بأن ما عنده لا يكفيه واياهم وأشار عليهم بعمله من الطيوب التى أمر بها موسى مضافا اليه ما عنده من الذخيرة الباقية من الميرون الأصلى ٠ فاستحسنوا هذه الفكرة وأرسلوا اليه يشكرونه وسألوه الاسراع فى هذا العمل ٠ فاعتمد على الله وباشر عمله وتقديسه بحضور لفيف الأساقفة ورؤساء المجامع ، وبعد تقديسه أضاف اليه ما عنده ووزعه على الكنائس وبعث اليهم بطريقة العمل لتكون مثالا يسيرون عليه فى عمل الميرون، فاستقبلوه بفرح وابتهاج بالتراتيل الكنسية ٠ أما كيفية عمله فواضحة فى الكتاب الخاص الذى لا يزال موجودا بالكنيسة ٠

الفصل الخامس

نتائج السر وعدم اعادته وحق اتمامه

١ ــ نتائج سر المسحة :

ان نتائج سر المسحة غير المنظورة هى قبول الروح القدس ومواهبه التى أشار اليها اشعياء النبى بقوله : « ويحل عليه روح الرب روح الحكمة والفهم، روح المشورة والقوة ، روح المعرفة ومخافة الرب » (اش ١١ : ٢) .

وعليه فهذا السر :

أولا : يمنحنا انارة العقل والمعرفة . وقد أشار يوحنا الرسول الى ذلك بقوله : « أما أنتم فلكم مسحة من القدوس وتعلمون كل شيء ... وأما أنتم فالمسحة التى أخذتموها منه ثابتة فيكم ولا حاجة بكم الى أن يعلمكم أحد بل كما تعلمكم هذه المسحة عينها عن كل شيء وهى حق وليست كذبا . كما علمتكم تثبتون فيه » (١ يو ٢ : ٢٠ و ٢٧) وقال القديس كيرلس الأورشليمى : « هذه المسحة احفظوها طاهرة لأنها تعلم كل شيء اذا لبثت فيكم كما سمعتم أقوال يوحنا المغبوط الذى قال أقوالا حكيمة كثيرة فى هذه المسحة لأن الروح القدس حرز للجسد وخلاص للنفس » (فى الأسرار عظة ٣ : ٧) .

ثانيا : يمنحنا تقوية الارادة فى العبادة وفى مخافة الرب حسب قول بولس الرسول : « ولكن الذى يثبتنا معكم فى المسيح وقد مسحنا هو الله الذى ختمنا أيضا وأعطى عربون الروح فى قلوبنا » (٢ كو ١ : ٢١ و ٢٢) وعن ذلك قال القديس كيرلس الأورشليمى : « بعد ذلك يمسحكم على صدوركم لكى تلبسوا درع العدل وتثبتوا لدى حيل الشيطان . وكما أن المسيح بعد المعمودية وحلول الروح القدس خرج وحارب المعاند ، هكذا أنتم بعد المعمودية المقدسة والمسحة السرية تثبتون لدى القوة المضادة لابسين سلاح الروح القدس الكامل وتحاربونها قائلين : انى أستطيع كل شيء فى المسيح الذى يقوينى » (فى الأسرار ٣ : ٤) .

٢ ــ عدم اعادة السر :

وبما أن هذا السر يطبع فينا ختم موهبة الروح القدس كما قال بولس الرسول (٢ كو ١ : ٢٢) فقد أعتبر منذ القديم مثل المعمودية لا يتمم للانسان الا مرة واحدة .

٣ ـ حق اتمام السر :

ان الكنيســة الأرثوذكسـية تعلم أن تكريس سر الميرون هو من حق الأساقفة فقط ، أما اتمامه فلا يختص بالأساقفة وحدهم بل بالقسوس أيضا .. فقد ورد في أوامر الرسل « أيها الأسقف أو القس قد رتبنا سابقا والآن نقول ··· ينبغى أن تدهن أولا بزيت ثم تعمد بماء وأخيرا تختم بالميرون ». والقديس أمبروسيوس يؤكد أن مسحة الميرون تتمم من القس ، وأنه عندما يصلي يحل الروح القدس وقال « فعندما تتقدم بعد هذا (أى بعد المعمودية) الى الكاهن ، تأمل ماذا يتم · أليس ما قاله داود : مثل الدهن على الرأس النازل على اللحية لحية هرون ، هذا هو الميرون الخ » (في الأسرار فصل ٧) وقال القديس يوحنا ذهبي الفم : « لأنهم (أى الأساقفة) يعلون على القسوس بالشرطونية وحدها فقط ، وبها وحدها يظهر أنهم يسمون عليهم » (مقالة ١٠ : ١ على ١ تى) وقال القديس أيارونيموس : « ما الذى يصنعه الأسقف ولا يصنعه القس غير الشرطونية » (رسالة ١٤٥ : ١) ·

أما استناد الذين يقولون ان حق المسحة للأساقفة وحدهم بناء على ما جاء في (أع ٨ : ١٤ ـ ١٦) من جهة ارسال بطرس ويوحنا الى أهل السامرة لوضع أيديهما عليهم لحلول الروح القدس ، فهذا لأن فيلبس الذى عمدهم كان شماسا ولم يكن قسا ، ولذلك قال يوحنا ذهبي الفم : « لماذا لم يكن هؤلاء السامريون قد نالوا الروح القدس بعد التعميد ؟ اما لأن فيلبس لم يمنحهم اياه اعتبارا للرسل على رأى بعضهم · وأما لأنه لم تكن له هذه المسلطة بما أنه كان واحدا من الشمامسة السبعة وهذا هو الأرجح »· (مقالة ١٨ : ٣ على سفر الأعمال)

٣ - سر الشكر أو الافخارستيا

الفصل الأول

١ ـ تعريف السر وسموه على باقى الأسرار :

سر الشكر هو سر مقدس به يأكل المؤمن جسد المسيح الأقدس ، ويشرب دمه الزكى تحت أعراض الخبز والخمر ٠ ولهذا السر المقام الأسمى بين الأسرار السبعة المقدسة :

أولا : لغزارة نعمه وسموه عن الادراك ، لأن النعمة بواسطة باقى الأسرار تفعل بحالة غير منظورة تحت مادة منظورة ، وتلبث تلك المادة غير متغيرة ولا مستحيلة ٠ أما فى السر الأقدس فيستحيل جوهر المادة لأن الخبز والخمر مع حفظهما شكليهما وأعراضهما يستحيلان بوجه سرى عجيب الى جسد المسيح ودمه ٠

ثانيا : لفرط محبة ربنا يسوع المسيح التى أظهرها فى هذا السر ، وسمو المواهب التى يهبها لنا بتناوله ، فان المخلص له المجد يمنح المؤمنين بواسطة باقى الأسرار بعضا من مواهبه الخلاصية بحسب طبيعة كل سر منها ، ولكنه فى سر الشكر يقدم لنا ذاته غذاء مقدسا وبتناوله نتحد به اتحادا تاما ونثبت فيه الى الأبد ٠

ثالثا : لأن كل سر من الأسرار يفعل فى الشخص الذى يقبله ، ولكن سر الشكر فضلا عن كونه أكثر سموا عن الادراك وأكثر خلاصا بين الأسرار ، فهو أيضا ذبيحة تقدم لله كفارة عن الجميع أحياءا وأمواتا ٠

٢ ـ أسماء السر :

وقد سمى هذا السر منذ القديم بأسماء متعددة فدعى « سر الشكر » و « العشاء الربانى » و « العشاء السرى » و « العشاء الالهى » و « مائدة الرب » و « مائدة المسيح » و « المائدة المقدسة » و « المادة السرية » و « سر المذبح » و « خبز الرب » و « خبز الله » و « الخبز السماوى » و « الخبز الجوهرى » و « جسد المسيح » و « الجسد الربانى والخلاصى والمقدس » و « دم

المسيح » و « الدم الكريم » وسمى أيضا « شركة » و « اتحادا » و « كأس الحياة الخلاصية » و « الأسرار المقدسة » و « الأسرار الالهية » و « الأسرار المخوفة السموية » و « الذبيحة المقدسة السرية » ، وهكذا من الأسماء الرهيبة ٠

٣ ـ الوعد بهذا السر المقدس :

قد شاء مخلصنا له المجد أن يهيىء الناس لقبول هذا السر السامى قبل تأسيسه بزمن ، فوعدهم به وأوضح لهم طبيعته وضرورته وقوته ٠ وقد أنبأنا بذلك القديس يوحنا الانجيلى فى الأصحاح السادس بعد ما صنع الرب معجزة اشباع الخمسة آلاف رجل من خمسة أرغفة وسمكتين ٠ فلما رأى الناس الآية التى صنعها يسوع قالوا ان هذا هو بالحقيقة النبى الآتى الى العالم ٠ وأما يسوع فاذ علم أنهم مزمعون أن يأتوا ويختطفوه ليجعلوه ملكا انصرف أيضا الى الجبل وحده ٠ ولما تبعه الناس وأتوا اليه أراد أن يجذب أفكارهم فوعدهم بتأسيس هذا السر المقدس ، وأخذ ينقل أفكارهم من القوت الجسدى الى القوت الروحى غير الفاسد ، فقال لهم : « أنتم تطلبوننى ليس لأنكم رأيتم آيات بل لأنكم أكلتم من الخبز فشبعتم ٠ اعملوا لا للطعام البائد بل للطعام الباقى للحياة الأبدية الذى يعطيكم ابن الانسان ، لأن هذا الله الآب قد ختمه » ولما قالوا له « آباؤنا أكلوا المن فى البرية كما هو مكتوب أنه أعطاهم خبزا من السماء ليأكلوا » قال لهم يسوع « الحق أقول لكم ليس موسى أعطاكم الخبز من السماء بل أبى يعطيكم الخبز الحقيقى من السماء ٠ لأن خبز الله هو النازل من السماء الواهب حياة للعالم ٠ فقالوا له يا سيد أعطنا فى كل حين هذا الخبز ٠ فقال لهم يسوع أنا هو خبز الحياة ٠ من يقبل الى فلا يجوع ومن يؤمن بى فلا يعطش أبدا » ولما تذمروا من كلامه قال لهم « آباؤكم أكلوا المن فى البرية وماتوا ٠ هذا هو الخبز النازل من السماء ، لكى يأكل منه الانسان ولا يموت ٠ أنا هو الخبز الحى الذى نزل من السماء ، ان أكل أحد من هذا الخبز يحيا الى الأبد ، والخبز الذى أنا أعطى هو جسدى الذى أبذله من أجل حياة العالم » ٠ ولما خاصم اليهود بعضهم بعضا قائلين كيف يقدر هذا أن يعطينا جسده لنأكل عاد فأكد لهم كلامه قائلا : « الحق أقول لكم ان لم تأكلوا جسد ابن الانسان وتشربوا دمه فليس لكم حياة فيكم ، من يأكل جسدى ويشرب دمى فله حياة أبدية وأنا أقيمه فى اليوم الأخير ، لأن جسدى مأكل حق ودمى مشرب حق ٠ من يأكل جسدى ويشرب دمى يثبت فى وأنا فيه ٠ كما أرسلنى الآب الحى وأنا حى بالأب فمن يأكلنى فهو يحيا بى ٠ هذا هو الخبز الذى نزل من السماء ، ليس كما أكل آباؤكم المن وماتوا ٠ من يأكل هذا الخبز فانه يحيا الى الأبد » حتى أن كثيرين من تلاميذه قالوا ان هذا الكلام صعب ، من يقدر أن يسمعه ٠ فقال لهم يسوع « أهذا يعثركم ٠ فان رأيتم ابن الانسان صاعدا الى حيث كان أولا » ٠ ومن هذا الوقت رجع

عنه كثيرون من تلاميذه لعدم احتمالهم هذا الكلام • فقال المسيح لتلاميذه الأثنى عشر ألعلكم أنتم أيضا تريدون أن تمضوا • فأجابه سمعان بطرس يا رب الى من نذهب • كلام الحياة الأبدية عندك ، ونحن قد آمنا وعرفنا أنك أنت المسيح ابن الله الحى •

بهذا الكلام وبهذا الوعد قد هيأ الرب تلاميذه لقبول هذا السر ، حتى أنه عند تأسيسه وتسليمه لهم ليلة آلامه قبلوه ولم يظهر أحد منهم أدنى اشارة للشك فى حقيقته ، ولا سألوه شيئا بخصوصه لأنهم كانوا متأهبين لقبوله •

٤ ـ تأسيس السر فى ليلة آلامه :

وكما شاء الرب أن يهيىء تلاميذه لقبول هذا السر ، هكذا سر وأرتضى أن يؤسسه ويسلمه لهم فى ظروف هامة • فانه له المجد لما قرب عيد الفصح الذى كان أعظم أعياد اليهود ، وكان رمزا الى حمل الله الذى يرفع خطايا العالم ، وجاء الوقت الذى فيه يقدم المسيح نفسه ذبيحة لله أبيه لأجل خلاصنا . ففى ذلك الوقت قبل أن يقدم اليهود فصحهم بيوم واحد أرسل الرب اثنين من تلاميذه الى أورشليم لعيد الفصح وفى الليلة التى فيها أسلم حضر مع تلاميذه الاثنى عشر الى علية صهيون وهناك غسل أرجل تلاميذه معلما اياهم التواضع ، ثم سلمهم سر جسده ودمه الأقدسين كما يقول القديس متى الانجيلى : « وفيما هم يأكلون أخذ يسوع الخبز وبارك وكسر وأعطى التلاميذ وقال خذوا كلوا هذا هو جسدى • وأخذ الكأس وشكر وأعطاهم قائلا اشربوا منها كلكم ، لأن هذا هو دمى الذى للعهد الجديد الذى يسفك من أجل كثيرين لمغفرة الخطايا » (مت ٢٦ : ٢٦ ــ ٢٨) وقد كتب بولس الرسول قائلا : « لأننى تسلمت من الرب ما سلمتكم أيضا أن الرب يسوع فى الليلة التى أسلم فيها أخذ خبزا وشكر فكسر وقال خذوا كلوا هذا هو جسدى المكسور لأجلكم • اصنعوا هذا لذكرى • كذلك الكأس أيضا بعد ما تعشوا قائلا هذه الكأس هى العهد الجديد بدمى اصنعوا هذا كلما شربتم لذكرى ، فانكم كلما أكلتم هذا الخبز وشربتم هذه الكأس تخبرون بموت الرب الى أن يجىء • اذن أى من أكل هذا الخبز أو شرب كأس الرب بدون استحقاق يكون مجرما فى جسد الرب ودمه • ولكن ليمتحن الانسان نفسه وهكذا يأكل من الخبز ويشرب من الكأس لأن الذى يأكل ويشرب بدون استحقاق يأكل ويشرب دينونة لنفسه غير مميز جسد الرب • من أجل هذا فيكم كثيرون ضعفاء ومرضى وكثيرون يرقدون » (١ كو ١١ : ٢٣ ــ ٣٠) •

الفصل الثاني

١ ـ ايمان الكنيسة الأرثوذكسية في هذا السر :

اننا نؤمن أنه بعد تقديس سر الشكر واستدعاء حلول الروح القدس على القرابين يستحيل الخبز والخمر استحالة سرية الى جسد المسيح ودمه الأقدسين • حتى أن الخبز والخمر اللذين ننظرهما على المائدة ليسا خبزا وخمرا بسيطين بل هما جسد الرب ذاته ودمه تحت شكلي الخبز والخمر • ونؤمن أن ربنا يسوع المسيح حاضر في هذه الخدمة لا بوجه الرمز أو الاشارة أو الرسم أو الصورة أو المجاز • ولا بأنه مستتر في الخبز بل هو حاضر حضورا فعليا • وهذا الايمان هو ايمان الكنيسة كلها شرقا وغربا منذ ابتدائها • لأن الرسل الأطهار تسلموا هذا الايمان وسلموه لجميع المؤمنين في كل المسكونة • وظل هذا السر يمارس في جميع الكنائس على هذا الايمان الى الآن والى الأبد •

٢ ـ الذين أنكروا حقيقة هذا السر :

وحتى القرن الثامن لم يقم من يقاوم حقيقة هذا السر الأقدس ، مع أنه قام كثيرون من الهراطقة وقاوموا أكثر التعاليم اللاهوتية • ولكن في القرن التاسع قام يوحنا أريجانا الأيرلندى وأبتدع بدعة بأن هذا السر لا يحوى جسد المسيح ودمه حقيقة ، زاعما أن الافخارستيا ليست الا صورة يسوع المسيح • وفي هذه الهرطقة عينها وقع برنغاريوس رئيس مدرسة تورس بفرنسا في القرن الحادى عشر آخذا هذا التعليم من كتاب أريجانا المذكور • وفى القرن الثانى عشر كان البطروبروسيون (تلاميذ بطرس دى بريز بفرنسا) وأتباع هنريكوس الايطالى يعلمون هذه الضلالة أيضا قائلين ان سر الشكر ليس الا اشارة محضة الى جسد المسيح ودمه • وفى هذا الضلال وقع أيضا الهراطقة المعروفون باسم الالبيجنسيين فى القرن الثالث عشر • ثم نشر هذه المزاعم أخيرا يوحنا ويكلف الانجليزى وزوينكل وكلفن وتلاميذهم الذين ينكرون حضور الرب يسوع فى هذا السر ، ويعلمون أن الخبز والخمر يلبثان بعد التقديس خبزا بسيطا وخمرا بسيطة ، وليسا هما سوى اشارة وصورة ورمزا ومثالا ومجازا لجسد المسيح ددمه •

أما أتباع لوثيروس فانهم يخالفون تلك الآراء ويعتقدون بحقيقة حضور الرب يسوع المسيح فى سر الشكر ، غير أنهم يزعمون أن حضوره انما هو بواسطة دخوله فى الخبز والخمر اللذين يلبثان غير متغيرين ولا مستحيلين • وفى ذلك قال لوثيروس : « ان جسد المسيح هو فى الخبز مع الخبز تحت الخبز » ولكن الكنيسة الأرثوذكسية تنكر وترفض كل هذه الآراء والمزاعم من أسسها •

الفصل الثالث

اثبات صحة الحقيقة الأرثوذكسية فى هذا السر

ان الكنيسة الأرثوذكسية قبلت هذا السر وما زالت تقبله مفسرة كلام المسيح على حقيقته تفسيرا حرفيا • ومن الأدلة الآتية يتضح لك صحة هذا الايمان وخطأ الذين يزعمون بأن هذا الكلام رمز أو مجاز :

أولا : ان كلام المسيح له المجد فى هذا السر يتضمن ثلاث قضايا أساسية ايجابية وهى : الشهادة ، والميثاق ، والأمر • فالشهادة الصحيحة فى سائر الأحكام الشرعية محكوم بها على حسب نطقها الصريح • ولا يدخلها المجاز ولا تقبل التأويل • وبمقتضاها يتبرر الانسان أو يحكم عليه • واذا دخلها شيء من المجاز أو التأويل أو لم تكن متوفرة الشروط المعتبرة فانها ترفض ولا يحكم بموجبها • وكما قال القديس يوحنا الرسول : « ان كنا نقبل شهادة الناس فشهادة الله أعظم » (١ يو ٥ : ٩) فالسيد المسيح شهد لجسده بأنه مأكل حق ولدمه بأنه مشرب حق • ونظير هذه الشهادة شهد لأبيه قائلا « كلامك هو حق » وشهد الآب لابنه قائلا « هذا هو ابنى الحبيب الذى به سررت » فمن ذا الذى يتجاسر وينكر شهادة المسيح • فاذا كانت شهادة المسيح لجسده مجازية تكون شهادة الآب لابنه مجازية أيضا ، وهذا كفر لا يقول به أحد من المسيحيين •

أما الميثاق فهو عبارة عن عقد معاهدة بين اثنين فصاعدا • وحكمه كحكم الشهادة بالتمام • لأن المواثيق يحكم بمقتضاها فى سائر الأحوال الشرعية على حسب شروط المتعاقدين ويستحيل ادخال أقوال فى شروطها من قبيل المجاز أو أى قول يقبل التأويل • والشرط الذى يوجد فيه شيء من ذلك يرفض ولا يصح أن يكون ميثاقا ، لأن ذلك يوجب وقوع الأشكال والتنازع بين المتعاقدين ، وفى هذه الحالة يؤول كلّ من المتعاقدين الكلام بحسب غرضه فيتعذر صحة الحكم • وان لم تكن المواثيق متوفرة الشروط المعتبرة فانها لا تعتبر وتكون ملغاة لا عمل لها • وبحسب هذه القاعدة نرى المخلص له المجد فى كلمات العهد الجديد قرر ميثاقا أبديا عاقدنا به بقوله « من لم يأكل جسدى ويشرب دمى فليس له حياة أبدية » ونظير ذلك قرر أن « من لا يولد من الماء والروح لا يقدر أن يعاين ملكوت الله » « ومن لم يؤمن يدن » فاذا كان ميثاق السيد المسيح عن جسده مجازا تكون كل عهوده ومواثيقه مجازية لا حقيقة فيها • وهذا ضلال كبير •

أما الأمر فشرطه أن يكون صريحا ، خاليا من كل ابهام ، غير قابل للتأويل والمجاز ، لأنه لو قبل ذلك لتوقف عمله ، والأوامر الالهية منزهة عن التأويلات. فالسيد المسيح له المجد أمر تلاميذه قائلا : « خذوا هذا هو جسدى وهذا هو دمى » فمن يقدر أن يغير كلامه أو يدخل فيه نوعا من المجاز ويقول انه شبه جسده أو رسم جسده أو رمز الى جسده . واذا كانت الأوامر الملكية تقبل كنصها الظاهر ولا يدخلها التأويل والمجاز فكيف يجوز للانسان أن يؤول أوامر الله ويحولها من الحقيقة الى المجاز . فلو صح ذلك لأصبحت كل أوامره قابلة للتأويل ، وبالتالى أمكننا أن نفسر كل شيء حسب غرضنا ، وليس من يقول بذلك .

ولنرجع الآن الى تلك الأوقات والظروف التى فيها وعد السيد بهذا السر، وظروف تأسيسه ، لنرى هل كان كلام السيد مجازا أم حقيقة :

أولا : ان اليهود أنفسهم الذين خاطبهم السيد بتلك الأقوال قد فهموها فيما حرفيا لا رمزيا ولا مجازيا . لأنهم عندما سمعوه يقول : « أنا هو الخبز الحى الذى نزل من السماء . ان أكل أحد من هذا الخبز يحيا الى الأبد . والخبز الذى أنا أعطى هو جسدى الذى أبذله من أجل حياة العالم » (يو ٦ : ٥١) ابتدأوا يتخاصمون ويتساءلون فيما بينهم لعدم امكانهم فهمه . وقالوا — كما يقول المعترضون اليوم — كيف يستطيع هذا أن يعطينا جسده لنأكله . فلو لم يفهموا كلام السيد فهما حرفيا لما كان محل لهذا الاعتراض ، ولا وجد داع لهذا الخصام .

ثانيا : ان الرب يسوع كان من عادته متى تكلم عن أمر ورأى أن اليهود قد فهموه على غير المقصود ، يبادر له المجد ويوضح لهم المعنى الحقيقى ويرفع من أمامهم كل ابهام (راجع يو ٢ : ٣ — ٥ ، ٤ : ٣٢ ، ٨ : ٢١ — ٤٠ ، ١١ ، ١٦ : ١٨ ، مت ١٦ : ٦ ، ١٩ : ٣٤) فلو رأى الرب أن اليهود أخطأوا فى فهم كلامه وقصده لأوضح لهم ذلك وأبان لهم أنه يتكلم مجازيا ورمزيا . ولكننا نرى الأمر بالعكس فانه أخذ يردف كلامه بالأقوال المتكررة المشددة ، ويزيد الكلام قوة وايضاحا للمعنى الحرفى قائلا : « الحق الحق أقول لكم ان لم تأكلوا جسد ابن الانسان وتشربوا دمه فليس لكم حياة فيكم . من يأكل جسدى ويشرب دمى فله حياة أبدية وأنا أقيمه فى اليوم الأخير . لأن جسدى مأكل حق ودمى مشرب حق » (يو ٦ : ٥٣ — ٥٥) فنلاحظ هنا :

١ — انه بدأ كلامه بقوله « الحق الحق » التى كان معتادا أن يبدأ بها عندما يقصد ايضاح حقيقة من الحقائق وزيادة تأكيدها .

٢ — انه يفرض الشركة فى جسده وفى دمه أمرا ضروريا للحصول على الحياة الأبدية بقوله « ان لم تأكلوا ... فليس لكم حياة فيكم ... من يأكل جسدى ويشرب دمى فله حياة أبدية » .

٣ ـ ان كلمة « حق » فى قوله « جسدى مأكل حق ودمى مشرب حق » تشهد بأن موضوع التأكيد فى كلامه غير قابل للتغيير الى معنى آخر غير معنى الجسد ·

ثالثا : ان تلاميذ المسيح قد فهموا هذا المعنى الحرفى ولذا ضاق فكرهم ولم يستطيعوا فهمه · فطفق كثيرون منهم يتذمرون قائلين : « ان هذا الكلام صعب من يقدر أن يسمعه » (يو ٦ : ٦٠) ولذلك أخذ المسيح يقنعهم بامكان شركتهم فى جسده ودمه مؤيدا كلامه بآية أخرى وهى صعوده الى السماء حيث كان أولا · وكان يأتى بهذا البرهان كلما اقتضى الحال اقامة برهان يدل على أقتداره ·

رابعا : ان كثيرين من تلاميذه رجعوا عنه لأنهم لم يقدروا أن يفهموا كلامه واستصعبوا الأمر ، فلو لم يكن المسيح يقصد جسده الحقيقى ودمه الحقيقى بل يقصد الرمز الى جسده ـ كما يتوهم البعض الآن ـ لكان فسر لهم ذلك ولم يدع هؤلاء التلاميذ ينفصلون عنه ، وهو الذى يريد أن جميع الناس يخلصون والى معرفة الحق يقبلون ·

خامسا : ان السيد المسيح سلم هذا السر الأقدس فى ليلة آلامه الى تلاميذه وأخصائه وأصفيائه الذين قال لهم أنتم أصدقائى ، ونطق بكلامه فى برهة لم يكن يتكلم فيها بأمثال وألغاز ورموز ومجازات ، بل تكلم صريحا وعلنا لأنها الساعة الأخيرة من حياته · ومن المعلوم أن الانسان فى مثل هذه الساعة يفتح قلبه لأصدقائه ويبين لهم ما يريده بكل ايضاح لا بألغاز ولا بمجاز · فهل يليق بالمسيح أن يأتى فى مثل هذه الظروف التى لا تسمح للانسان الا بأن يوضح كلامه بكل صراحة ، ويستعمل المجاز والرمز ؟

سادسا : ان جميع آباء الكنيسة شرقا وغربا قد فهموا هذا الكلام وقبلوه بمعناه الحرفى · وكذلك فسرته المجامع · فلو فرضنا فرضا مستحيلا بأن السيد المسيح قصد بكلامه المعنى الرمزى لا المعنى الحرفى · فهل يا ترى خدع المسيح تلاميذه الذين فهموا الكلام حرفيا ، والتلاميذ خدعوا الكنيسة كلها التى فهمت هذا الفهم عينه ؟ ومن يتجاسر ويقول ذلك ؟ ومن يستطيع أن يغير الكلام الذى يقوله الله ؟ · قال الرسول « فماذا ان كان قوم لم يكونوا أمناء · أفلعل عدم أمانتهم يبطل أمانة الله · حاشا · بل ليكن الله صادقا وكل انسان كاذبا » (رو ٣ : ٣ و ٤) ·

سابعا : ان عبارة « أكل اللحم » فى الكتاب المقدس اذا وردت بمعنى رمزى فانها تدل على الوقيعة والسعاية والمذمة وعمل الشر (راجع مز ٢٦ : ٢ ، أى ١٩ : ٢٢ ، مى ٣ : ٣ ، غل ٥ : ١٥) ولا تدل فى الكتاب على غير هذا

المعنى فمن أراد أن يفسر كلام المسيح عن أكل جسده بهذا المعنى الرمزى يسقط فى أشنع تفسير .

ثامنا : ان قرائن الأحوال تدحض رأى المعترضين الذين يفسرون كلمة « أكل الجسد » بمعنى الاتحاد والاشتراك الروحى مع المسيح وبالتالى الايمان به . اذ يرد عليهم بأن المسيح كان يتكلم وقتئذ مع سامعيه ، ويعدهم بطعام جديد لم يذوقوه الى ذلك الوقت ، وأنه مزمع أن يعطيه لهم فى المستقبل « الخبز الذى أنا أعطى هو جسدى » فلو كان يشير الى الايمان به لا الى جسده لوجب أن نصدق أن جميع تلاميذه الى ذلك الحين لم يكونوا قد آمنوا به ، على أن ظروف الأحوال ونفس الكلمات التى كررها المسيح تنفى هذا الزعم الباطل .

تاسعا : اذا التفتنا الى كلام الانجيليين نجد فيه الأدلة القوية التى تزيل كل ريب ، حيث أن القديسين متى ومرقس ولوقا يوضحون المعنى بكلام صريح العبارة ، لا رمز ولا مجاز فيه ، وبولس الرسول الذى لم يكن حاضرا هذا السر وتسلمه فيما بعد يقول لأهل كورنثوس : « أقول كما للحكماء . احكموا أنتم فى ما أقول . كأس البركة التى نباركها . أليست هى شركة دم المسيح . الخبز الذى نكسره . أليس هو شركة جسد المسيح » (١ كو ١٠ : ١٥ و ١٦) . فمن هذا الكلام يتضح :

١ ـ أننا نشترك فى جسد المسيح ودمه بواسطة اشتراكنا فى الخبز وفى الكأس .

٢ ـ أن الذى نشترك فيه هو جسد الرب ذاته لأن من يتناوله بدون استحقاق يكون مجرما فى جسد الرب . فاذا لم يكن هو جسد الرب ذاته فكيف يكون انسان مجرما فيه ؟ هل يعطينا الله حجرا ويطالبنا بجوهرة ؟ وهل يعطينا خبزا بسيطا ـ كما يقول المعترض ـ ويطالبنا بجسده ؟ لذلك تهدد الرسول الذين يتناولون بدون استحقاق قائلا : « لان الذى يأكل ويشرب بدون استحقاق يأكل ويشرب دينونة لنفسه غير مميز جسد الرب » . وأخيرا أتى الرسول بالأدلة المحسوسة على أن الذين يقتربون من تلك الأسرار بدون استحقاق يقعون فى الأمراض وفى الموت بقوله : « من أجل هذا فيكم كثيرون ضعفاء ومرضى وكثيرون يرقدون . لاننا لو كنا حكمنا على أنفسنا لما حكم علينا » . (١ كو ١١ : ٢٩ ـ ٣١)

وقد أخبر القديسان كبريانوس ويوحنا ذهبى الفم فى أيامهما أن بعضا من الذين أكلوا ذبائح الأوثان ثم تقدموا الى الافخارستيا ، اغتالتهم يد النقمة الالهية . فمنهم من بلى بالخرس . ومنهم من أكل لسانه . ومنهم من كان يعذب بعذاب شديد ، الى غير ذلك من البلايا التى حلت عليهم .

الفصل الرابع

أقوال آباء الكنيسة والمجامع وايمانهم بهذا السر

ذكرنا فى صحيفة ٦٣ أن جميع آباء الكنيسة شرقا وغربا قد فهموا كلام المسيح فهما حرفيا . وآمنوا ايمانا وثيقا بحقيقة حضور الرب فى سر الشكر واستحالة الخبز والخمر بعد التقديس الى جسد الرب ودمه . ونكتفى هنا بايراد أقوال واعترافات أشهر آباء الكنيسة :

قال القديس اغناطيوس عن الهراطقة : « انهم يبتعدون عن الافخارستيا والصلاة لعدم اعترافهم بأن الافخارستيا هى جسد مخلصنا يسوع المسيح الذى تألم لأجلنا والذى أقامه الآب بصلاحه » (رسالة الى أهل أزمير ٧) .

وقال القديس يوستينوس الفيلسوف الشهيد : « لأننا لا نتناولهما بمثابة خبز عادى ، لكن كما أنه بكلمة الله لما تجسد يسوع المسيح مخلصنا قد اتخذ لأجل خلاصنا لحما ودما ، هكذا تعلمنا أن الغذاء الذى شكر عليه بدعاء كلامه وبه يغتذى لحمنا ودمنا بحسب الاستحالة هو لحم ودم ذلك المتجسد » (احتجاج ١ : ٦١) .

وقال القديس ايريناوس عن الهراطقة : « كيف يستطيعون أن يدركوا أن الخبز الذى عليه تم الشكر هو جسد الرب ، وأن هذه الكأس هى كأس دمه ، اذا لم يفهموا أنه هو ابن صانع العالم » (ضد الهراطقة ٤ : ١٨ : ٤ و ٥) وقال أيضا : « لو كانوا يتناولون الكأس وهى ممزوجة بالماء ويتناولون الخبز وهو معد ككلمة الله ذاته ، ولو كانت لهم هكذا شركة الخبز والخمر سر شكر جسد المسيح ودمه اللذين يغذيان ويثبتان وجود جسدنا ، فكيف يستطيعون أن يقولوا أن هذا الجسد الذى يغتذى من جسد المسيح ودمه لا يشترك بموهبة الله الذى هو الحياة الأبدية (١) » (ضد الهراطقة ٥ : ٢ ، ٤ : ١٧ : ٥ ، ٢٣ : ٢) .

وقال القديس كيرلس الأورشليمى : « لكونه هو نفسه تكلم وقال عن الخبز هذا جسدى فمن يجسر بعد ذلك أن يرتاب ، ولكونه هو نفسه ثبت وقال هذا هو دمى فمن يتوهم أو يقول انه ليس دمه ؟ لأن الذى حول وقتا

(١) كأن القديس يقول للهراطقة ، اذا اعترفتم بان الخبز والخمر فى سر الشكر يغذيان أجسادنا ويهبان هذه الأجساد ثباتا ، فلماذا تنكرون نصيبها فى الحياة الأبدية ؟

ما الماء الى خمر في قانا الجليل باشارته ، أفليس مصدقا اذا قال انه حول الخمر الى دم ؟ وقد دعى الى عرس جسدى فصنع فيه تلك العجيبة الفائقة . فكيف لا نعترف له بالأحرى بأنه منح بنى العرس التمتع بجسده ودمه ؟ فلنتناولهما اذن باليقين التام أنهما جسد المسيح ودمه . لأنه برسم الخبز يعطى لك الجسد ، وبرسم الخمر يعطى لك الدم ، لكى بتناولك من جسد المسيح ودمه تصير متحدا معه جسدا ودما . لأننا بهذه الحالة نصير لابسى المسيح ، أى بامتزاج جسده ودمه في أعضائنا ، وبهذه الواسطة نصير مشاركى الطبيعة الالهية كما يقول بطرس المغبوط . فلا تنظر اذن الى الخبز والخمر كأنهما عاديان ، اذ هما جسد ودم حسب القول السيدى . لأنه وان كان الحس يظهرهما لك عاديين لكن الايمان يحقق لك أنهما جسد ودم . فلا تحكم اذن بحسب الذوق الحسى بل تحقق من الايمان وتأكد بلا ارتياب أنك قد أهلت لجسد المسيح ودمه » (في الأسرار ٤ : ١ و ٢ و ٣ ـ ٦) .

وقال القديس يوحنا ذهبى الفم : « كم منكم يقول الآن ليتنى كنت أرى هيئة الرب وشكله وملابسه . فها أنت تنظره وتلمسه وتأكله هو نفسه ، وأنت تشتهى أن ترى ملابسه مع أنه هو يعطيك ذاته ، لا لتراه فقط بل لتلمسه أيضا ولتأكله ولتأخذه فى داخلك ، فلا يتقدم أحد غافلا ولا متراخيا ، بل فلنبادر جميعنا بحماسة وحمية ونهضة ... ويجب أن نكون من كل جهة ساهرين ، لأن القصاص المعد للمشتركين على خلاف الاستحقاق ليس صغيرا . تفطن كم أنت تتمرمر من الذى خانه ومن الذين صلبوه . فاحترس اذن من أن تصير أنت أيضا مجرما فى جسد المسيح ودمه . فان أولئك قد ذبحوا الجسد الكلى قدسه ، وأما أنت فتقتبله حينئذ بنفس دنسة بعد احسانات كثيرة جدا . لأنه لم يكتف بأن يصير انسانا ويضرب ويذبح عنا بل أن يمزج ذاته فينا ، لا بالايمان فقط بل بالفعل أيضا ، جاعلا ايانا جسدا له أفلا ينبغى أن لا نكون أقل نقاوة من الذى يتمتع بهذه الذبيحة . وأى شعاع شمسى (١) يجب أن لا يكون أقل بهاء من اليد التى تقطع هذا الجسد ، والفم الذى يمتلىء من النار الروحانية ، واللسان الذى يصطبغ بالدم المخوف ؟ فتأمل الكرامة التى كرمتها والمائدة التى تتمتع بها . ان الذى تنظر اليه الملائكة وترتعد ولا تجسر أن تحدق به بلا خوف من البرق الساطع منه ، هذا نفسه نحن نغتذى به ، وبه ننعجن وقد صرنا جسدا واحدا للمسيح لحما ودما . من يتكلم بعظائم الرب ويجعل تسابيحه مسموعة ؟ أى راع يغذى خرافه بأعضائه . وما لى أذكر الراعى . كثيرا ما دفعت أمهات أولادهن بعد أوجاعهن الى مرضعات أخر ، وهو لم يطق أن يفعل ذلك ، بل شاء هو نفسه

(١) يقصد بقوله (أى شعاع شمسى الخ) أن يقارن بين الاشعة الطاهرة وبين اليد التى تمسك جسد الرب ، والفم الذى يأكله ، وأن يبين أن هذه الاشعة مع نقائها فهى أقل بهاء من هذه اليد وهذا الفم .

أن يغذينا بدمه ويجعلنا مرتبطين ومتحدين بذاته بكل الوسائط » (تفسير متى مقالة ٨٢ : ٤ و ٥) .

وقال القديس أمبروسيوس : « هذا الجسد الذى نقدمه فى سر الشكر قد جاء من البتول . ولماذا تبحثون هنا وتطلبون العمل الطبيعى والموضوع هو جسد يسوع المسيح . أفلم يولد الرب نفسه من البتول بحال تفوق الطبيعة . هذه هى بشرة يسوع المسيح المصلوبة والمدفونة . فهذا هو اذن سر الجسد بعينه بكل الحقيقة » (فى الأسرار ٩ : ٥٣ ، ٨ : ٣٧ و ٤٨) كأنه يقول كيف آمنتم بسر تجسده الفائق الطبيعة ثم تحاولون وضع سر الشكر تحت البحث العقلى فقط مجردا من الايمان .

والخلاصة أن هذا الايمان هو ايمان جميع الآباء فى كل عصر منذ نشأت الكنيسة حتى الآن ، وتجد هذا التعليم فى مؤلفات القديس اكليمنضس الاسكندرى (كتاب المربى ١ : ٦١ ، ١١ : ٥) والعلامة ترتوليانوس فى (كتابه ضد مركيون ٥ : ٨) وديوناسيوس الاسكندرى فى (مجموع القوانين) والقديس باسيليوس فى (رسالته ٩٣) والقديس ابيفانيوس والقديس كيرلس الاسكندرى فى (تفسيره يوحنا ٢٠ : ٣٧ وضد نسطور ٤ : ٥ : ٦) وغيرهم من الآباء .

وكذلك ترى هذا التعليم واضحا فى اقرار المجامع فقد ورد فى قرارات المجمع المسكونى الأول « لا ينبغى أن ننظر على المائدة المقدسة الى الخبز والكأس كأنهما مقدمان على بسيط الحال ، بل يجب أن نرفع الروح فوق الحواس ، ونتفهم بالايمان أن حمل الله الرافع خطية العالم يستريح ههنا مذبوحا من الكهنة ، وأنهم يتناولون جسد الرب نفسه ودمه الكريم نفسه اللذين نؤمن بأنهما رسوم لقيامتنا » .

وقد ثبت المجمع الثالث المسكونى رسالة القديس كيرلس بطريرك الاسكندرية الى نسطور ، وهذه الرسالة كتبت من قبل مجمع اسكندرية المكانى وجاء فى نصها هذه العبارة وهى « اننا ننادى بأن ابن الله الوحيد ربنا يسوع المسيح مات بالجسد ، ونقر بقيامته وبصعوده الى السموات ، فنتمم فى الكنائس الذبيحة الغير الدموية ، وهكذا نقترب من الأسرار المباركة ونتقدس اذ نشارك جسد يسوع المسيح مخلصنا المقدس ودمه الكريم ... لكن لا ينبغى أن ننظر الى جسده كما الى جسد انسان يماثلنا من كل الوجوه فى أهوائنا ، بل يجب أن نوقن أنه بالحقيقة جسد الذى قد صار وسمى لأجلنا ابن الانسان نفسه » (مجمع أفسس جلسة ١ وكيرلس الاسكندرى جزء ٥ قسم ٢) .

تمسك مارتين لوثر واعتقاده بهذا السر :

ومما يجب ذكره هنا أن **مارتين لوثر** زعيم البروتستانت عندما كان يجادله أصحابه جدالا عنيفا فى هذا السر ، لم يخرج عن الاعتقاد الصحيح ولم يتحول عن فكره ، بل كان يقرر قول الرب « هذا هو جسدى » ويكتبها فى المحضر بخطه أمام الجميع ، رافضا كل فلسفة بشرية ، ويقول « انى أصرح بأنى أختلف عن خصومى فى تعليم عشية الرب ، وانى أختلف دائما عنهم فان المسيح قد قال هذا هو جسدى ، فليبينوا لى أن الجسد ليس هو جسده . وانى أرفض العقل والعرف والاحتجاجات اللحمية والبراهين التعليمية فان الله أعلى من الهندسيات . عندنا كلام الله فيجب علينا أن نكمله ونحترمه » (راجع تاريخ الاصلاح للعلامة ميرل روبينياه جزء ٢ صحيفة ٣٨٢) .



الفصل الخامس

كيفية حضور الرب فى هذا السر ومعنى الاستحالة

مما تقدم يتضح جليا أن التقدمة المقدســـة لا تبقى بعد البركة خبزا بسيطا ولا خمرا بسيطة بل يتناولهما المؤمنون بأنهما جسد المسيح نفسه حسب قوله الطاهر • وذلك يتم باستحالة سرية لا تدرك بالحواس ويتضح ذلك مما يأتى :

أولا : من عبارات الكتاب الالهى التى أوردناها سابقا ، فان الرب جل ذكره لما وعد بهذا السر قال « أنا هو الخبز الحى الذى نزل من السماء • ان أكل أحد من هذا الخبز يحيا الى الأبد • والخبز الذى أنا أعطى هو جسدى الذى أبذله من أجل حياة العالم » (يو ٦ : ٥١) وحين سلم تلاميذه هذا السر قال « خذوا هذا هو جسدى • وهذا هو دمى » وبولس الرسول كتب الى أهل كورنثوس يقول « كأس البركة ألتى نباركها أليست هى شركة دم المسيح الخبز الذى نكسره أليس هو شركة جسد المسيح » (١ كو ١٠ : ١٦) وقال « اذن أى من أكل هذا الخبز أو شرب كأس الرب بدون استحقاق يكون مجرما فى جسد الرب ودمه • ولكن ليمتحن الانسان نفسه وهكذا يأكل من الخبز ويشرب من الكأس • لأن الذى يأكل ويشرب بدون استحقاق يأكل ويشرب دينونة لنفسه غير مميز جسد الرب » (١ كو ١١ : ٢٧ ــ ٢٩) • والحقيقة هنا واضحة من كل هذه النصوص وهى أن الرب والرسول يسميان الخبز جسد المسيح ، والخمر دم المسيح بأصرح عبارة . ولم يقل الكتاب ان جسد المسيح يكون فى الخبز ، أو مع الخبز ، أو تحت الخبز • ولم يقل السيد أن الخبز الذى أعطيه يكون فيه جسدى ، بل قال « الخبز الذى أنا أعطى هو جسدى » •

ثانيا : اذا راجعنا جميع كتب القداســات المستعملة فى كل الكنائس شرقا وغربا ، وهى قديمة جدا • نجدها كلها متفقة فى تضرعاتها على هذه الكلمات « ليحل روحك القدوس على هذه القرابين الموضوعة ويطهرها وينقلها ويظهرها قدسا لقديسيك • وهذا الخبز يجعله جسدا مقدسا له ، وهذه الكأس أيضا دما كريما للعهد الجديد الذى له •• الخ » وهذا يدل على ايمان الكنيسة الجامعة الذى لم يتغير منذ القديم حتى الآن •

ثالثا : مما ورد فى أقوال الآباء التى سبق ذكرها حيث وردت فيها كلمات « ينتقلان ، يتغيران ، يستحيلان » كما قال القديس غريغوريوس « اننى أعتقد وأقر بالحقيقة أن الخبز يستحيل اليوم أيضا اذ يتقدس بالكلمة الالهية الى

جسد الاله الكلمة » (تعليمه فصل ٣٧) وقال القديس أمبروسيوس « كلما تناولنا القرابين المقدسة التى تتحول سريا بالطلبة المقدسة الى جسد المسيح ودمه نخبر بموت الرب » (فى الايمان ٤ : ١٠ : ١٢٤) وقال القديس افرآم السريانى « انكم تشتركون فى جسد الرب الكلى قدسه بايمان كامل غير مرتابين بأنكم تأكلون الحمل كله » وقال فى موضع آخر « ان جسد الرب يتحد بجسدنا على وجه لا يلفظ به أيضا ودمه الطاهر يصب فى شراييننا ، وهو كله بصلاحه الأقصى يدخل فينا » (جزء ٣ : ٤٢٤) ٠

عدم انقسام القدسات مع تفصيل أجزائها ، ووحدة السر :

وان كان الجسد المقدس يفصل ويقسم فى سر الشكر ، ويوزع على المؤمنين تحت شكلى الخبز والخمر اللذين بهما يصير الجسد والدم منظورين وملموسين، الا أنهما كاملان بذاتهما وغير منقسمين ٠ ولهذا نؤمن أن كل جزء من الخبز ومن الخمر فى هذا السر الأقدس حتى أصغر الأجزاء منها ليس هو جزء من جسد المسيح ودمه ، بل ينال به المؤمن جسد المسيح كله ودمه كله ٠

كذلك وان كان سر الشكر يتمم فى جميع كنائس المسكونة ، فجسد المسيح هو واحد ودمه واحد فى جميع الأمكنة والأزمنة ، والمسيح حاضر فيه بذاته ٠ لا يمكن ادراك وفهم ذلك الا بالايمان ٠ كما نؤمن أيضا أن الخبز والخمر بعد تقديسهما وانتقالهما واستحالتهما سريا الى جسد الرب ودمه ، يلبثان دائما هكذا أى أن حضور الرب فى الأسرار بعد التقديس هو ثابت وغير منقطع فى وقت الشركة وبعده ، خلافا للذين يزعمون أن حضور الرب محصور فى وقت اشتراك المؤمنين بالأسرار ، وأن القرابين بعد الشركة ليست سوى خبز وخمر بسيطين ٠

وبما أن الخبز والخمر فى هذا السر الأقدس هما جسد المسيح ودمه فيجب أن تقدم لهما العبادة والسجود ٠ قال القديس يوحنا ذهبى الفم « هذا الجسد لما كان بعد فى هذا المذود خجل منه المجوس ٠ ورجال كفرة وبرابرة تركوا أوطانهم وبيوتهم وقطعوا طريقا طويلة ، وأتوا بخوف وارتجاف كثير وسجدوا له ٠ فلنقتدين اذن بالبرابرة على الأقل نحن أبناء السموات ٠ لأن أولئك مع أنهم رأوه فى مذود وضمن كوخ ، ولم يروا شيئا مما تراه أنت الآن تقدموا برعب كثير ٠ وأما أنت فلست تراه فى مذود بل على مذبح ، ولست ترى امرأة حاملة اياه بل كاهنا واقفا وروحا طائرة على الموضوعات ونازلا عليها بغزارة لأنك لست تنظر الجسد وحده فقط على بسيط الحال مثل أولئك ، لكنك تعلم أيضا قدرته وكل التدبير ، وليس خافيا عليك شيء مما تمم به لأنك متعلم جميع الأسرار بتدقيق » (مقالة على تفسير ١ كو ٢٤ : ٥) وقال القديس أغسطينوس « ما من أحد يشارك جسد يسوع المسيح ما لم يقدم له عبادة الهية » (على مزمور ٩٨) ٠

الفصل السادس

ادحاض الاعتراضات على هذا السر

ان بعض الفرق المسيحية الذين لا يؤمنون بهذا السر الأقدس يعترضون على تعليم الكنيسة في شأنه ببعض اعتراضات نذكر هنا أهمها مع الرد عليها وهي :

أولا : يزعمون أن الخبز والخمر في هذا السر ما هما الا مثال ورمز لجسد المسيح ودمه .

ولدفع هذا الاعتراض نقول : جاء في كتاب القواعد السنية في تفسير الأسفار الالهية تاليف القس **جيمس أنس** الأمريكي (صفحة ١٦٢) ما يأتي : « ان الرمز هو ما عينه الله اشارة الى أمر أعظم منه عتيد أن يكون في نظام ملكوته سمي المرموز اليه . وهذا الحد يتضمن ثلاثة شروط . **الأول :** وجود اشارة حقيقية في الرمز الى المرموز اليه وهي مبنية اما على مشابهة خارجية أو داخلية روحية . **والثاني :** تعيين الرمز من قبل الله للاشارة الى المرموز اليه . وهذا التعيين من باب الاستعداد لاظهار المرموز اليه في حينه . **والثالث:** ان المرموز اليه يكون من الأمور المتعلقة بمستقبل ملكوت الله » . فاذا طبقنا هذا التعريف على ما نحن بصدده ظهر الفرق الواضح بين الرمز وبين هذا السر الذي وضعه السيد للعهد الجديد .

قال طيب الذكر المرحوم **عريان مفتاح** في رده على هذا الاعتراض « المثال والرمز لا بد أن يكون بينهما وبين الممثل به والمرموز اليه تناسب معنوي يدل على صفته التي يقصد تمثيلها والرمز اليها ، والقياس على ذلك ذبح اسحق حين أمر الله أباه ابراهيم بأن يقدمه له قربانا (تك ٢٢ : ١ ــ ١٨) فالتناسب المعنوي الذي بينه وبين المسيح هو أنه كان الابن الحبيب لأبيه ، ولما أراد أبوه أن يقدمه ذبيحة أطاع أباه حتى الموت ، وحمل الحطب الذي كان مزمعا أن يرفع عليه ، هكذا السيد المسيح فانه الابن الحبيب الوحيد للآب ولما سر الآب أن يقدمه ذبيحة عن خطايا العالم أطاع حتى الموت وحمل صليبه . كذلك كان خروف الفصح الذي بلا عيب الذي كان يقدمه بنو اسرائيل رمزا الى المسيح ، فكما أنه بواسطة ذبحه واراقة دمه نجا بنو اسرائيل من الهلاك الزمني ، هكذا بسفك دم المسيح حمل الله الذي بلا عيب ، خلصنا من الهلاك الأبدي . وقس على ذلك باقي الرموز والمثالات التي وردت في العهد القديم . ولكن في أكل خبز وخمر بسيطين ــ كما يزعم المعترض ــ لا نجد أدنى

متناسبة معنوية لمثال موت المسيح ، لا في الصورة ولا في الصفة ولا في الفعل ، خصوصا وأن الرمز يستعمل الأشياء لم تظهر في عالم الوجود بعد ، وبظهور المرموز اليه يبطل الرمز ، ونحن نعلم أن بمجيء المسيح له المجد بطلت الرموز التي كانت تشير وترمز اليه · قال بولس الرسول : « ان طريق الأقداس لم يظهر بعد ما دام المسكن الأول له اقامة الذى هو رمز للوقت الحاضر الذى فيه تقدم قرابين وذبائح لا يمكن من جهة الضمير أن تكمل الذى يخدم » (عب ٩ : ٨ و ٩) وقال « لأن الناموس اذ له ظل الخيرات العتيدة لا نفس صورة الأشياء » (عب ١٠ : ١) فيلزم هنا أن نقول اما أن السيد المسيح أتى وبمجيئه أكمل الرموز التى تقدمت عنه وأبطلها بوجوده وأن الذى قامه السيد المسيح لتلاميذه هو حقيقة لا رمز ، واما أن المسيح لم يأت بعد وأن فعل الرموز هو غيره وبذلك نكون مع اليهود منتظرين مجيئه » (حاشا لله) ··

ثانيا : يزعمون أن كلام السيد المسيح عن جسده ودمه مجازى لا حقيقى ، ويوردون بعض عبارات مجازية وردت فى الكتاب كقوله : أنا هو الباب والطريق ، وتسميته سمعان بصخرة ، وهيرودس بثعلب ، وتسمية المعمدان للسيد بحمل ، وأن السيد المسيح على هذا القياس قد سمى نفسه خبزا : وبناء عليه يعتقدون بأن تعليم السيد عن هذا السر مجازى ·

وندفع ذلك بأننا سبق أن أثبتنا فى صفحة ٦٠ ــ ٦٤ أن كلام المسيح عن هذا السر حقيقى لا مجازى ونقول هنا : ان المجاز هو استعارة اسم شيء لغيره لتناسب بعض صفاته ، والمقصود منه تشبيه شيء بشيء لتقريب المعنى المراد استعمال المجاز له ، فمثلا يستعار النور والظلمة للنجاح والضيق والفرح والحزن ، للمعرفة والجهالة · وينابيع المياه والأمطار والظل وندى الليل لبركات الانجيل ، وما أشبه ذلك · والمجاز فى الكتاب المقدس نوعان : **الأول** : ما يكون الغرض منه ظاهرا لسامعيه كتسمية السيد المسيح لهيرودس بثعلب نظرا لما كان معروفا ومتصفا به من المكر والخديعة المتصف بهما الثعلب · وتسمية يوحنا بايليا لمشابهته له فى النسك والغيرة · وقد سبق النبى فأخبر بأنه يتقدم المسيح بروح ايليا وقوته (ملا ٣ : ١ ، ٤ : ٥) · وأما **الثانى** : فهو ما يكون غامضا على سامعيه فيلتزم المتكلم بايضاح قصده منه كقول السيد « أنا هو الباب » الذى فسره بقوله « ان دخل بى أحد فيخلص ويدخل ويخرج ويجد مرعى » (يو ١٠ : ٩) وقول « أنا هو الطريق » وفسره بقوله « ليس أحد يأتى الى الآب الا بى » (يو ١٤ : ٦) ، وقوله « أنا الكرمة » وفسره بقوله « كما أن الغصن لا يقدر أن يأتى بثمر من ذاته ان لم يثبت فى الكرمة كذلك أنتم أيضا ان لم تثبتوا فى ·· بدونى لا تقدرون أن تفعلوا شيئا » (يو ١٥ : ١ ــ ٦) وكتسمية يوحنا المعمدان السيد المسيح بحمل ثم تفسيرها بقوله « الذى يرفع خطية العالم » (يو ١ : ٢٩) ، وتسمية المسيح سمعان ببطرس بناء على اعترافه بأن المسيح هو ابن الله .

الحي وأن المسيح مزمع أن يؤسس كنيسته على صخرة هذا الايمان ، وتسميته تلاميذه بملح الأرض لأنهم يكونون بصفة مصلحين لفساد العالم ، وقس على ذلك • فهذه العبارات المجازية متضمنة معانيها ، وفيها قرائن تدل على المراد بها ولا ينطبق شيء منها على سر الافخارستيا مطلقا ، فلماذا نترك معنى الكتاب الواضح ونلتفت الى تأويلات بعيدة عن الصواب ؟ قال **لوثيروس** : « ان معنى الكتاب المقدس البسيط هو أساس الايمان ، والأمر الوحيد الذى لا يتزعزع فى وقت الضيق والامتحان » وقال القس **جيمس أنس** الأمريكى مؤلف كتاب «القواعد السنية فى تفسير الأسفار الألهية» عند كلامه عن المجاز : « لا بد للمجاز من قرينة تدل عليه وهى اما لفظية أو معنوية • فان انتفت القرينة حمل الكلام على الحقيقة ما لم يعلم أو يظن ان قائله لم يعتقد ظاهره (ص ١٢٢) وقال فى القاعدة الأولى من قواعد التفسير « ان معنى الكتاب البسيط الواضح هو على الغالب المعنى الصحيح ، وفسر هذه القاعدة بأن البسيط الواضح هو الكلام المتبادر اليه فهم الجمهور ، ويؤيد ذلك كون الكتاب كتب للعالم أجمع ، فلا بد أن معناه يطابق ظاهر الكلام » (صفحة ٧٨) وقال فى القاعدة السادسة من قواعد المجاز « ان المجاز وحده ليس أساسا كافيا لتعليم مهمة ولا يناسب لأنه أحيانا يقود الى الضلال » (صفحة ١٤٥) •

ثالثا : يقولون ان السيد المسيح قال عن هذا السر « اصنعوا هذا لذكرى » فهو اذن تذكار لجسد المسيح ودمه ، والشيء لا يكون تذكارا لنفسه •

وندفع هذا الاعتراض بعد أن نعرف أنواع التذكار : قسم المرحوم **عريان مفتاح** التذكار الى أربعة أنواع • فقال يلزم أن يكون التذكار بأحد أربعة أشياء • اما عينا (أى من عين الشيء) كالمن الذى أمر الله موسى بحفظه فى قسط من الذهب تذكارا للمن (وهذا ينفى القول بأن الشيء لا يكون تذكارا لنفسه لأن المن كان تذكارا لنفسه) واما أثرا كالحجارة التى أمر يشوع بن نون بأخذها من أرض الأردن تذكارا لمرورهم فيه (يش ٤ : ٩) واما صورة كالكروبين اللذين أمر موسى النبى بصنعهما ووضعهما فى قبة الشهادة تذكارا للسمائيات (خر ٢٥ : ١٧ ـ ٢٢) واما خبرا كما فعل موسى النبى اذ قص على بنى اسرائيل ما ورد فى سفرى الخروج والعدد ، عما صنع الله على يديه معهم ، والوقائع التى حدثت فى خلال ذلك • واذا طبقنا تذكار موت المسيح على أحد هذه الأنواع الأربعة فانه يلزم أن يكون اما عينا أى من عين جسده ودمه • واما أثرا أى بالآلات التى استعملت فى آلامه وموته • واما صورة أى برسم هيئة الواقعة • واما خبرا أى بخبرها الوارد فى الأناجيل المقدسة • فالخبز والخمر اللذان سلمهما السيد لتلاميذه ليسا تذكارا أثريا ولا صوريا ولا خبريا ، لأنهما ليسا آلة من آلات موته ، ولا هما صورة مرسومة على هيئته ، ولا هما مجرد حكاية تاريخية تحفظ لنا تذكار الواقعة خبريا ، وكيف يحصل تذكار موت المسيح من أكل خبز وشرب خمر ، اذا كانا لا يزالان

على بساطتهما ولا يتحولان الى جسده الحقيقى ودمه الحقيقى . فلا بد أذن أن يكون السر تذكارا من عين الشىء ، أى من عين جسده ودمه ، كما كان المن تذكارا لنفسه . وقد يكون الذكر أيضا لما يتصوره العقل ولا تدركه الحواس ، فان الله تعالى مثلا حاضر فى كل مكان ، ومع ذلك يقال ان الأبرار يتذكرونه دائما ، كقول المرتل « ذكره الى جيل الأجيال » فاذن يقال بكل صواب ان هذا السر تذكار لموت المسيح لأنه حاضر فيه بنوع سرى غير منظور ولا تدركه حواسنا » .

رابعا : يزعمون أن السيد المسيح قصد بكلامه عن جسده ودمه فى الاصحاح السادس من انجيل يوحنا الايمان به .

وندفعه بأن قرائن الكلام وظروف الأحوال تنفى هذا الزعم ، لأن السيد له المجد كان يعدهم بطعام لم يذوقوه بعد ، بل وعدهم بأنه سيعطيهم اياه فى المستقبل . فلو كان كلامه يقصد منه الايمان به لا الى جسده ودمه لوجب أن نسلم بأن جميع الذين كانوا يسمعونه كانوا غير مؤمنين به ، والحال أن تلاميذه سبق فآمنوا به ، وأن نعمة الايمان كانت قد أعطيت لكثيرين ولا محل للوعد بها فى المستقبل . ومن الملاحظات الجديرة بالاعتبار أن يوحنا الانجيلى اكتفى بما أورده عن هذا السر فى الأصحاح السادس ، ولم يذكر تأسيسه عندما سلمه الرب لتلاميذه كما كتب باقى الانجيليين ، وهذا دليل مقنع بأن يوحنا الانجيلى يقصد بكلامه جسد الرب ودمه لا الايمان به .

خامسا : يزعمون بأن كلام بولس الرسول (١ كو ١٠ : ١٥ ــ ٢٢) عن كأس البركة والخبز المقدس أنها شركة جسد المسيح ، لا يترتب عليه أن يكون الخبز والخمر جسد المسيح ودمه بل شركة فقط ، وأن تسمية الرسول لهما خبزا وكأسا دليل على عدم الاستحالة .

وندفع هذه المغالطة بأن الاشتراك فى الشىء هو الحصول عليه ، ولا فلا يكون المسيح اشترك فى جسدنا . لأن الرسول يقول « فاذ قد تشارك الأولاد فى اللحم والدم اشترك هو أيضا كذلك فيهما » (عب ٢ : ١٤) ويقول « لأننا أعضاء جسمه من لحمه ومن عظامه » (أف ٥ : ٣٠) ويقول (أليس الذين يأكلون الذبائح هم شركاء المذبح » (١ كو ١٠ : ١٨) بل ان كلام الرسول عن الشركة لا يقبل هذا التأويل ، لأنه يقول بصريح العبارة هكذا « احكموا أنتم فى ما أقول . كأس البركة التى نباركها أليست هى شركة دم المسيح . الخبز الذى نكسره أليس هو شركة جسد المسيح » (١ كو ١٠ : ١٥ و ١٦) لا سيما وأنه قال بعد ذلك « لأننى تسلمت من الرب ما سلمتكم أيضا » الى أن قال « اذن أى من أكل هذا الخبز أو شرب كأس الرب بدون استحقاق يكون مجرما فى جسد الرب ودمه . ولكن ليمتحن الانسان نفسه وهكذا يأكل من الخبز ويشرب من الكأس . لأن الذى يأكل ويشرب بدون استحقاق يأكل ويشرب دينونة لنفسه غير مميز جسد الرب . من أجل هذا فيكم كثيرون

ضعفاء ومرضى كثيرون يرقدون الخ » (١ كو ١١ : ٢٣ ـ ٣٤) •

وأما تسمية الرسول للجسد والدم خبزا وخمرا فذلك بناء على ظهور السر أمام أعيننا هكذا ، وبناء على ما كانا عليه قبل التقديس ، وهذا أمر جائز في كل لغة اذ يسمى الشيء باسم ما كان عليه أولا ، وقد ورد مثل ذلك في الكتاب المقدس ، كما ذكر عن الماء الذى حوله السيد المسيح الى خمر في عرس قانا الجليل حيث يقول « فلما ذاق رئيس المتكأ الماء » (يو ٢ : ٩) مع أنه كان قد تحول خمرا ، فسماه ماء باعتبار ما كان أولا ، ومنه قول الكتاب « ولكن عصا هرون ابتلعت عصيهم » (خر ٧ : ١٢) مع أنها كانت تحولت الى ثعبان ، وقوله عن لعازر عند قيامته « فخرج الميت ويداه ورجلاه مربوطات بأقمطة الخ » مع أنه خرج حيا • فسماه « الميت » باعتبار ما كان ، ولم يقل خرج الحى الذى كان ميتا ، ولا خرج الميت الذى صار حيا • فهل يترتب على ذلك أن لعازر كان لا يزال مائتا حال خروجه • وبناء عليه لا تكون تسمية الرسول للسر خبزا وخمرا دليلا على عدم تغيره واستحالته الى جسد المسيح ودمه •

سادسا : يعترضون بقولهم كيف أن الخبز والخمر اللذين هما من نباتات الأرض يستحيلان الى جسد المسيح ودمه ويكونون هما جسد ودم المسيح •

ونرد على ذلك بأن الاستحالة نوعان ، حسية أى واقعة تحت الحواس ، وسرية لا يقع عليها حكم ، والاستحالة هى انتقال الشيء الى غيره • فالحسية هى تحويل طبع وصورة وفعل شيء ما الى طبع وصورة وفعل الشيء الذى يتحول اليه ، كتحويل امرأة لوط الى عمود ملح ، وتحويل عصا هرون الى ثعبان ، وتحويل ماء النهر في مصر الى دم ، وتحويل الماء في عرس قانا الجليل الى خمر • وأما الاستحالة السرية التى لا تدخل تحت الحواس فهى استحالة الخبز والخمر الى جسد المسيح ودمه في سر الأفخارستيا ، وذلك بناء على قول السيد الصريح « هذا هو جسدى وهذا هو دمى » • وان قال المعترض كيف يكون ذلك ؟ فنرد عليه بأن أعمال الله لا يسأل عنها بكيف • وقد اقتضت الحكمة الالهية أن تكون استحالة امرأة لوط الى ملح ، والماء الى دم في مصر ، والى خمر في عرس قانا الجليل لضرورة اعتبار الحس ، لأن الغاية منها ظهور قوة الله علنا • وأما الاستحالة في سر الأفخارستيا فليس من الضرورى ظهورها للحواس : وليس أيضا من المناسب اذ لا يمكن للانسان أن يأكل لحما ويشرب دما ، فهذه الاستحالة سرية لا تدرك بالحواس ، فمع أننا نأكل خبزا ونشرب خمرا الا أن هذا الخبز وهذا الخمر ليسا بعد التقديس خبزا وخمرا عاديين بل هما جسد ودم المسيح كما قال الرسول « لأننا بالايمان نسلك لا بالعيان » (٢ كو ٥ : ٧) « ولأننا بالرجاء خلصنا • ولكن الرجاء المنظور ليس رجاء ، لأن ما ينظره أحد كيف يرجوه أيضا » (رو ٨ : ٢٤) والايمان بأعمال الله السرية أعظم من الايمان بأعماله الظاهرة ، لأن هذه يحكم عليها بالحواس ،

وأما تلك فيراها العقل بنور الايمان • وقد سبق نيقوديموس وسأل المسيح له المجد عن سر الميلاد الثانى فأجابه موبخا « المولود من الجسد جسد هو ، والمولود من الروح هو روح (وطبعا يحصل ذلك بسر لا يدرك وانما يفعله الروح القدس) لا تتعجب انى قلت لك ينبغى أن تولدوا من فوق • الريح تهب حيث تشاء وتسمع صوتها ولكنك لا تعلم من أين تأتى ولا الى أين تذهب • هكذا كل من ولد من الروح » (يو ٣ : ٦ – ٨) •

أما قول المعترض أن الخبز والخمر هما من نباتات الأرض فانه اذا تأمل فى فعل الطبيعة وجد أن كل جسد ودم هما من نبات الأرض ويعودان أيضا نباتا ، وهذا أمر مسلم به ، وأما صيرورتهما جسد المسيح ودمه فهذا موكول لفعل القدرة الالهية التى لا يشك فيها •

سابعا : يقولون كيف أن الذى سلمه السيد المسيح لتلاميذه هو جسده ودمه ، مع أنه كان جالسا فى وسطهم ، ولم يسلمهم الا خبزا وخمرا منظورين •

فنقول بأن هذا الاعتراض ليس موجها لنا ، وانما هو موجه لشخص السيد ، لأن هو الذى قال هذا وفعل هكذا ، وقد سبق أن أعترض اليهود بهذا الأعتراض قائلين « كيف يقدر هذا أن يعطينا جسده لنأكل » فسمعوا جوابه المسكت « ان لم تأكلوا جسد ابن الانسان وتشربوا دمه فليس لكم حياة فيكم • لأن جسدى مأكل حق ودمى مشرب حق » • ونحن هكذا آمنا وقبلنا هذا السر بناء على شهادته الصادقة • أما الذين لا يؤمنون ولا يصدقون الا بناء على شهادة الحواس فانهم يهدمون أركان الديانة المسيحية • لأن الحواس لا تستطيع أن تدرك شيئا من أسرار الديانة • فمثلا ان الله الآب قد شهد لابنه قائلا « هذا هو ابنى الحبيب الذى به سررت » فاذا اعتمدنا على الحواس رأينا أن العين لم تشاهد الا هيئة شخص مثل بنى البشر • فاذا كنا لا نؤمن الا بما تحكم به الحواس أنكرنا هذه الشهادة (حمانا الله من ذلك) • وليقل لنا الذين يهتمون بحكم الحواس كيف صير الله نار أتون بابل على الفتية الثلاثة كنسيم بارد ، حتى انها لم تؤثر فى أجسامهم ولا فى شعورهم ولا فى رائحة ثيابهم • فان قالوا قد نزعت منها قوة الأحراق فنجيبهم كيف اذن أحرقت الكلدانيين الذين اقتربوا منها ؟ وان كان فيها قوة الأحراق فلماذا لم تحرق الفتية ؟ كيف تكون النار حارة وباردة فى آن واحد ؟ هل يمكن أن يفهم ذلك بالحواس . وكيف أشبع السيد المسيح الألوف من خمسة أرغفة وسمكتين وفضل عنها أثنتا عشرة قفة من الكسر • وكيف تجسد المسيح فى بطن السيدة العذراء وهو مالىء الكون ، وكيف صلب على الصليب وهو مع ذلك لا يزال فى حضن أبيه ، وكيف خرج من القبر وهو مختوم والحراس واقفون على بابه ، وكيف دخل على التلاميذ والأبواب مغلقة ؟ ألا نعترف بأن الديانة المسيحية كلها أسرار فائقة لا قدرة للعقل ولا للحواس على ادراكها • ألم يقل السيد

بأن كلامه هو روح وحياة ، وبولس الرسول يقول « كلامي وكرازتي لم يكونا بكلام الحكمة الانسانية المقنع بل ببرهان الروح والقوة لكى لا يكون ايمانكم بحكمة الناس بل بقوة الله » (١ كو ٢ : ٤ و ٥) وقوله « ونحن لم نأخذ روح العالم بل الروح الذى من الله لنعرف الأشياء الموهوبة لنا من الله التى نتكلم بها أيضا • لا بأقوال تعلمها حكمة انسانية بل بما يعلمه الروح القدس قارنين الروحيات بالروحيات ، ولكن الانسان الطبيعى لا يقبل ما لروح الله لأنه عنده جهالة ، ولا يقدر أن يعرفه لأنه انما يحكم فيه روحيا » (١ كو ٢ : ١٢ ــ ١٤) فعلينا أن نرفع أسرار الديانة فوق العقل والحواس حتى نستطيع أن نؤمن بها •

ومالى أقول بوجود أسرار فى الديانة ، وهوذا الطبيعة كلها أسرار لا تزال فائقة لا تدرك ، مثال ذلك الانسان فاننا نعلم أنه مؤلف من نفس وجسد متحدين اتحادا طبيعيا جوهريا ، ولكن لا يوجد من يستطيع أن يدرك كيفية هذا الاتحاد العجيب • ونعلم أن نفسنا تأمر يدينا ورجلينا بالحركة ولا نعرف كيف ينفذ هذا الروح البسيط أمره بهذه السرعة العجيبة فى الجسد الهيولى • ونرى أن حبة صغيرة تبذر فى الأرض وبعد قليل نشاهدها شجرة كبيرة ذات أغصان مرتفعة ولا ندرك سر نموها • وأيضا نرى صور المبصرات تنطبع فى الأعين معكوسة ولكننا نراها مستقيمة ولا نقدر أن نبرهن علة ذلك • وها هى المآكل التى نأكلها ونغتذى بها كل يوم تتحول الى دم ينبث وينتشر فى سائر أجزاء الجسد ولا نعلم كيف يكون ذلك • والمياه التى نشربها مركبة من الأوكسجين والهيدروجين ، فالأول عنصر بسيط يعين المواد على الاشتعال اذ يتحد بكربونها ، والثانى عنصر بسيط يشتعل باتحاده مع الأوكسجين ويولد حرارة عظيمة ، ونفس هذا الاتحاد يولد لنا المياه التى نروى بها عطشنا فكيف أن المياه المؤلفة من عناصر تذيب الجلمود لشدة حرارتها نرتوى بها • فهذا الانقلاب الذى حدث فى طبيعة هذين العنصرين لا يعلم كيفيته الا الله ، وهكذا من الأسرار الغريبة نظير القوة الكهربائية ، والقوتين الجاذبة والدافعة وسير النور العجيب ، والهواء المتحرك والنار المخيفة ، وغير ذلك من الأسرار التى نؤكد وجودها فى الطبيعة ونجهل كيفيتها وعلتها الحقيقية • فهذه كلها تبطل ادعاء الفهم البشرى وتبرهن على ضعفه • فاذا كانت الطبيعة مملوءة بالأسرار العسرة الفهم فهل من المستحيل وجود أسرار فائقة الادراك فى الديانة الالهية • فاما أن توجد حقائق فائقة الادراك البشرى ، واما أن يكون العقل قياس كل الحقائق • وبذلك نسقط فى مذهبى العقليين والماديين المرفوضين من كل المسيحيين ، ونسقط فى ضلال وخيم ، هو أن معرفة الله لا تتميز عن معرفة البشر • وهذا ظاهر البطلان •

الفصل السابع

سر الشكر من حيث هو ذبيحة ، وصفات هذه الذبيحة ، ونسبتها الى الذبيحة التى قدمت على الصليب

ان الكنيسة الأرثوذكسية تؤمن وتعترف بأن سر الشكر فضلا عن كونه سرا ، فهو أيضا ذبيحة تقدم لله ، والبراهين على ذلك هى :

أولا : تعليم المخلص نفسه الذى أوضح هذه الحقيقة فقد قال عند وعده باعطاء هذا السر « أنا هو الخبز الحى الذى نزل من السماء • ان أكل أحد من هذا الخبز يحيا الى الأبد • والخبز الذى أنا أعطى هو جسدى الذى أبذله من أجل حياة العالم » (يو ٦ : ٥١) ومن هذا الكلام الالهى يتضح أن هذا السر الخلاصى هو ذبيحة غفران أمام الله • وكذلك عند تسليمه السر لتلاميذه قال لهم « هذا هو جسدى الذى يبذل عنكم • اصنعوا هذا لذكرى ••• هذه الكأس هى العهد الجديد بدمى الذى يسفك عنكم » (لو ٢٢ : ١٩ و ٢٠) فهذا السر الذى يقام تذكارا لذبيحة الاستغفار التى قدمت على الصليب ، هو ذبيحة حقيقية فعلية •

ثانيا : ان الرسل الأطهار علموا هذا التعليم • فقد كتب بولس الرسول الى أهل كورنثوس يقول « أنظروا اسرائيل حسب الجسد • أليس الذين يأكلون الذبائح هم شركاء المذبح • فماذا أقول • ان الوثن شىء أو ان ما ذبح للوثن شىء • بل ان ما يذبحه الأمم فانما يذبحونه للشياطين لا لله • فلست أريد أن تكونوا أنتم شركاء الشياطين • لا تقدرون أن تشربوا كأس الرب وكأس شياطين • لا تقدرون أن تشتركوا فى مائدة الرب وفى مائدة شياطين » (١ كو ١٠ : ١٨ ـ ٢١) ففى هذه الآية يقابل الرسول مائدة الرب أى مذبح المسيحيين ، بمائدة الشياطين أى مذبح الأمم الذى كانت تقدم عليه ذبائح ـ وان كانت رجسة وغير مقبولة ـ وبهذا يؤكد أن ما يقدم على مذبح المسيحيين فى سر الشكر هو ذبيحة حقيقية أمام الله . وهذا الرسول نفسه كتب فى رسالته الى العبرانيين يقول « لنا مذبح لا سلطان للذين يخدمون المسكن أن يأكلوا منه » (عب ١٣ : ١٠) وبمقابلته مذبح العهد الجديد بمذبح العهد القديم الذى كان الاسرائيليون يقدمون عليه ذبائح حقيقية يأكلون منها ، يشهد بأن المسيحيين يقدمون لله ذبيحة حقيقية على مذبحهم ، ولهم وحدهم السلطان أن يأكلوا منها •

ثالثا : ان ذبيحة العهد الجديد سبق الله فأنبأ بها على لسان ملاخى النبى. قائلا « ليست لى مسرة بكم قال رب الجنود ولا أقبل تقدمة من يدكم • لأنه من مشرق الشمس الى مغربها اسمى عظيم بين الأمم وفى كل مكان يقرب. لاسمى بخور وتقدمة طاهرة لان اسمى عظيم بين الأمم قال رب الجنود » (ملا ١ : ١٠ و ١١) وواضح من هذا القول أن النبى يتكلم عن ذبيحة جديدة طاهرة • ولا يمكن أن نقول انها ذبائح اليهود التى أعلن الرب كراهيته لها ، وهى محصورة ضمن حدود اليهودية • ولا يمكن القول أيضا انها ذبائح الأمم التى لا قيمة لها فى الكتب المقدسة لأنها رجسة ومرذولة عند الله • ولا يمكن الظن بأن النبى يشير الى الذبيحة الروحية التى أشير اليها فى المزمور (٥١ : ١٩) لأن هذه الذبيحة قدمها كثيرون من رجال الله الأتقياء منذ تأسيس العالم • لا سيما وأن ملاخى النبى يخبر عن ذبيحة جديدة لم تكن موجودة من قبل • ذبيحة منظورة مدركة ومعدة لأن تبطل الذبائح اليهودية وتحل محلها • ولا يمكن الظن بأن النبى قصد بهذه الذبيحة تلك الذبيحة السامية التى قدمها المخلص على الصليب ، لأن هذه الذبيحة قدمت فى مكان واحد وهو الجلجثة • ولكن النبى يخبرنا عن ذبيحة طاهرة مزمعة أن تقدم فى كل مكان على الأرض • فلا يبقى أذن سوى أن نعترف بأن هذه الذبيحة هى سر الشكر الذى يقدم ذبيحة طاهرة لله فى كل مكان •

رابعا : ان الكنيسة المقدسة قد علمت منذ نشأتها هذه الحقيقة وهى أن سر جسد يسوع المسيح هو ذبيحة حقيقية وتعترف بذلك فى قداساتها بأنها تقدم لله ذبيحة مقدسة ناطقة غير دموية حيث تقول « ففيما نحن أيضا نصنع ذكر آلامه •• نقرب لك قرابينك من الذى لك » وعندما يبسط الكاهن يديه يقول « ربنا والهنا ومخلصنا يسوع ••• يعطى عنا خلاصا وغفرانا للخطايا وحياة أبدية لمن يتناول منه » وقوله « هوذا كائن معنا على هذه المائدة اليوم عمانوئيل الهنا حمل الله الذى يحمل خطية العالم كله » •

خامسا : نجد هذا التعليم واضحا فى شهادات المجامع المسكونية فقد جاء فى قوانين المجمع المسكونى الأول هذا التصريح « على المائدة المقدسة يوضع حمل الله الرافع خطايا العالم ويذبح من خدام الله ذبيحة غير دموية » وجاء فى شهادات مجمع أفسس هكذا « اننا نقدم فى الكنائس الذبيحة غير الدموية ، وهكذا نلمس الأسرار المقدسة والمباركة ونتقدس باشتراكنا بالجسد المقدس جسد المسيح مخلص العالم كله وبدمه الكريم » وجاء فى أعمال مجمع نيقية « لا الرب ولا الرسل ولا الآباء سمعوا « الذبيحة غير الدموية » المقدسة من الكهنة « صورة » بل هم يسمونها دائما جسد الرب نفسه ودم الرب نفسه » •

سادسا : قد شهد جميع الآباء بهذه الحقيقة فى تعاليمهم • فقد قال القديس اغناطيوس « ان جسد الرب يسوع واحد • هو ودمه المهرق عنا واحد • خبز واحد كسر • وكأس واحدة وزعت للجميع • ومذبح واحد لكل

الكنيسة » (رسالة لأهل فيلادلفيا فصل ٤ والى أهل مغنيسيا فصل ٨ والى أهل أفسس فصل ٥) وقال القديس يوستينوس الشهيد « نقدم باسمه «ذبيحة» قد أمر الرب يسوع أن تقدم ، وذلك فى سر الخبز والكأس وهى ذبيحة «مقدمة من المسيحيين فى كل مكان على الأرض « ذبيحة طاهرة ومرضية لله » (فى خطابه الى تريفن) وقال القديس ايريناوس « ان المسيح علمنا « ذبيحة » جديدة للعهد الجديد فالكنيسة تسلمتها من الرسل وتقدمها فى كل المسكونة بحسب نبوة أحد الأنبياء الاثنى عشر وهو ملاخى حيث يقول لا ارادة لى بكم الخ وينادى بأن الشعب الأول (أى اليهود) سيكف عن أن يقدم لله ذبائح وأنه فى كل مكان ستقدم ذبيحة طاهرة لاسمه الممجد فى الأمم » (ضد الهراطقة). وقال القديس أيبوليطس « اننا من بعد صعود المخلص نقدم بحسب وصيته « ذبيحة » طاهرة غير دموية » (فى المواهب فصل ٢٦) وقال القديس كبريانوس « ان دم المسيح لا يقدم ما لم يكن فى الكأس خمر • وتقديس « ذبيحة الرب » لا يتم قانونيا ما لم يكن « **قرباننا وذبيحتنا** » مطابقين لآلامه ... لانه اذا كان الهنا ومخلصنا يسوع المسيح وهو رئيس الكهنة العظيم للاله الآب قد قدم نفسه ضحية للآب وأمرنا أن نصنع ذلك لذكره فلا يتمم الكاهن على الحقيقة (١) عمل المسيح ما لم يعمل كما عمل يسوع المسيح نفسه . أعنى أن يقدم فى الكنيسة للاله الآب « الذبيحة الحقيقية بتمامها » متبعا فى ذلك مثال المخلص نفسه » (رسالة ٤٣) وقال القديس غريغوريوس « لان المدبر لكل شىء بحسب سلطانه السيدى لم ينتظر الأضطرار الناتج عن الخيانة (٢) ، ولا هجوم اليهود اللصى، ولا محاكمة بيلاطس الخارجة عن الشريعة ، كى لا يكون شر هؤلاء بدءا لخلاص الناس العام وعلة له • لكنه بتدبيره قد سبق هجومهم وهو نفسه قدم ذاته قربانا وذبيحة عنا بعمل التقديس الذى لا ينطق به ، غير المنظور من البشر اذ هو كاهن معا وحمل الله الرافع خطية العالم • وان سألت متى كان هذا ؟ أجيبك • انه كان عندما جعل جسده مأكلا بصريح العبارة وأعطاه للأكل وصارت ذبيحة الحمل كاملة • لأنه لو كان الجسد ذا روح لما كان ضحية تصلح للأكل • فلما منح تلاميذه أن يأكلوا جسده ويشربوا دمه « ضحى جسده » بوجه لا ينطق به وغير منظور • مدبرا هذا السر كما أرادت سلطته » (على قيامة المسيح خطاب ١) وقال القديس يوحنا ذهبى الفم « ألسنا نحن نقدم كل يوم قرابين ؟ نعم نقدم ولكنا نصنع تذكار موته ، وهذه الذبيحة » التى كل يوم نقدمها هى واحدة لا أكثر لأنه قدم مرة واحدة مثل الذبيحة التى كانت تقدم الى قدس القديسين (٣) • وكما أنه هو رسم لتلك هكذا هذه

---

(١) أى على الوجه الأكمل •

(٢) أى لم ينتظر السيد ما ينتج بالضرورة عن خيانة يهوذا وغيره من صلب وفداء حتى لا يكون عملهم الشرير بدءا لخلاص الناس •

(٣) يقصد قدس الأقداس •

« الذبيحة » رسم لها . لأننا نقدمه نفسه دائما حملا واحدا ، ولا نقدم الآن خروفا آخر بل الحمل نفسه دائما . « فالذبيحة » اذن هي واحدة . أو هل المسحاء كثيرون لأن « الذبيحة » تقدم في محلات كثيرة ؟ حاشا . لأن المسيح واحد في كل مكان ، وهو هنا بكليته جسدا واحدا ، كما أنه يقدم في أماكن متعددة ولا يزال جسدا واحدا لا أجسادا كثيرة ، هكذا « الذبيحة » أيضا واحدة هي » (في تفسيره العبرانيين مقالة ١٦ : ٧ وعلى ١ كو ٢٤ : ٤ وعلى رسالة أفسس ٣ : ٥ وخطاب ٣ : ٤ ، ٤ : ٤ في الكهنوت) ونجد مثل هذه الأقوال في تعاليم جميع آباء الكنيسة شرقا وغربا .

وهذه الذبيحة التي نقدمها لله في سر الشكر ، هي الذبيحة التي قدمت على الصليب لأن الذى نقدم على المذبح الآن هو حمل الله نفسه الذى قدم ذاته على الصليب لأجل خطايا العالم . وكما أن المخلص له المجد كان على الصليب مقدِّما ومقدَّما هكذا الآن هو أيضا المقرِّب والمقرَّب والضحية والمضحي . وفي هذا المعنى قال القديس يوحنا ذهبي الفم « ان رئيس كهنتنا العظيم قدم الذبيحة التي تطهرنا . ومن ذاك الوقت الى الآن نقدم نحن أيضا هذه الذبيحه نفسها ، وهذه الذبيحة غير الفانية وغير النافذة هي نفسها ستتمم الى انقضاء الدهر حسب وصية المخلص « هذا اصنعوه لذكرى » غير أن بين ذبيحة سر الشكر والذبيحة التي قدمت على الصليب فرقا بالنظر الى ظروفهما وطريقة تقديمهما ، فان المخلص قدم لأبيه على الصليب جسده ودمه الكريمين ذبيحة منظورة . وأما في سر الشكر فلا يقدمهما تقديما حسيا منظورا بل سريا تحت شكلي الخبز والخمر . على الصليب قدم الذبيحة الاستغفارية لأنه رئيس الكهنة الأعظم ، وهنا على المذبح تقدم تلك الذبيحة بواسطة كهنته . هناك على الصليب قدمت ذبيحة حقيقية بذبح الحمل وهرق دمه ، وهنا بما أنه قام من الأموات ولا يسود عليه الموت مرة ثانية تقدم الذبيحة في سر الشكر باستحالة سرية بدون هرق دم ولا موت . ولهذا سميت هذه الذبيحة « ذبيحة غير دموية » . بذبيحة الصليب حصل الخلاص لكل الجنس البشرى وتم وفاء العدل الالهى ، وأما ذبيحة سر الشكر فانها تستعطف الله دائما للصفح عن خطايا الذين قدمت لأجلهم فينالون الحياة الأبدية بالتناول منها ، ان ذبيحة الصليب قدمت مرة واحدة على الجلجلة ، ولكن ذبيحة سر الشكر فمنذ تأسيسها تقدم دائما وتقدم الى الأبد الى وقت مجيء المسيح الثاني في كل العالم ، وعلى مذابح لا تعد ولا تحصى : ونستنتج مما تقدم أن الذبيحتين متحدتان بلا انفصال وهما ذبيحة واحدة ، الأولى أصل والثانية شجرة ثابتة من ذاك الأصل ، غطت أغصانها كل كنيسة المسيح وتغذى جميع الذين يطلبون الحياة الأبدية بالتناول منها .

ولهذه الاعتبارات اعتبرها جميع الآباء بأنها ذبيحة استغفار تقدم عن الأحياء والأموات ، كما ورد ذلك في كتب القداديس وفي شهادات الآباء

القديسين • قال العلامة ترتوليانوس « انهــا تقدم عن الأحيــاء والأموات (فى الاكليل ۳ وفى وحدة الزيجة فصل ۹) • وقال القديس كبريانوس « انها تقدم عن الأموات » (رسالة ٦٦) وقال القديس كيرلس الأورشليمى « انها ذبيحة اســتغفارية • واننا نقدم المســيح مذبوحا لأجل خطايانا ، مستغفرين الاله المحب البشر عنا وعنهم » (فى الأسرار ٦ : ٨ ، ٥ : ٨ و ١٠) •

وقال القديس يوحنا ذهبى الفم « لأنه لم يرتب هذا الترتيب على بسيط الحال ، ولا باطلا نذكر المتوفين على الأسرار الالهية ، ونأتى متضرعين لأجلهم للحمل الموضوع الرافع خطية العالم ، بل لكى تحصل من ذلك تعزية لهم • ولا عبثا يصرخ الواقف على المذبح عند تتميم الأسرار الرهيبة من أجل جميع الراقدين بالمسيح والذين يصنعون التذكار من أجلهم • ولو لم يقم التذكار من أجلهم لما قيلت هذه الكلمات • فلا نكل اذن فى مساعدتنا الراقدين بتقديمنا الصلوات من أجلهم لأن التنقية العامة لكل المسكونة هى حاضرة • ولهذا نتجاسر أن نطلب من أجل المســكونة وقتئذ وندعو للراقدين والشــهداء والمعترفين والكهنة » (مقالة ٤١ : ٤ على ١ كو) وفى محل آخر يشهد أن اقامة التذكاوات فى سر الافخارستيا عن الراقدين شريعة رسولية ويقول « لم يشرع عبثا من الرسل اقامة تذكار الراقدين حين تتميم الأسرار الرهيبة لأن الرسل يعرفون أن للراقدين ربحا عظيما ونفعا جزيلا من ذلك » (مقالة ۳ على رسالة فيلبى) ويقول القديس كيرلس الأورشليمى « ثم بعد أن نتمم الذبيحة الروحية والعبادة غير الدموية نضرع الى الله تجاه ذبيحة الإستغفار هذه من أجل سلامة الكنائس عموما ، ومن أجل الملوك ، ومن أجل الجنود والمحاربين معهم ، من أجل الذين فى الأمراض ، ومن أجل المتعبين ، وبالاجمال من أجل جميع المحتاجين الى مســـاعدة • فنطلب نحن جميعــا ونقدم هذه الذبيحة » (فى الأسرار ٥ : ١) •

الفصل الثامن

وجوب تناول السر تحت الشكلين

ان الرب يسوع له المجد قد سلم جسده ودمه الأقدسين لتلاميذه الأطهار تحت شكلي الخبز والخمر ، فقد أخذ الخبز وشكر وأعطاهم قائلا « خذوا كلوا هذا هو جسدى الخ » وكذلك أخذ الكأس وشكر وأعطاهم قائلا « أشربوا منها كلكم » وقد سبق له المجد وقال « الحق الحق أقول لكم ان لم تأكلوا جسد ابن الانسان وتشربوا دمه فليس لكم حياة فيكم • من يأكل جسدى ويشرب دمى فله حياة أبدية وأنا أقيمه فى اليوم الأخير »(يو ٦ : ٥٣ و ٥٤) وكذلك قال بولس الرسول « لأنى تسلمت من الرب ما سلمتكم أيضا أن الرب يسوع فى الليلة التى أسلم فيها أخذ خبزا وشكر فكسر وقال خذوا كلوا هذا هو جسدى المكسور لأجلكم • اصنعوا هذا لذكرى • كذلك الكأس أيضا بعد ما تعشوا قائلا هذه الكأس هى العهد الجديد بدمى • اصنعوا هذا كلما شربتم لذكرى • فانكم كلما أكلتم هذا الخبز وشربتم هذه الكأس تخبرون بموت الرب الى أن يجيء » (١ كو ١١ : ٢٣ ــ ٢٦) وعلى ذلك سارت الكنيسة المسيحية منذ نشأتها بأن يتناول المؤمنون هذا السر تحت الشكلين الخبز والخمر ، ويشهد بذلك سفر أعمال الرسل حيث يقول « وكانوا يواظبون على تعليم الرسل والشركة وكسر الخبز والصلوات » (أع ٢ : ٤٢ ــ ٤٦) راجع أيضا (١ كو ١٠ : ١٧ ، ١١ : ٢٠) •

ولكن كنيسة رومية خالفت هذا التعليم فمنعت الشعب من تناول كأس الرب الخلاصية ، اذ أنها تناولهم الجسد فقط دون الدم • والبراهين الآتية تبين فساد ذلك التعليم :

أولا : كلام المخلص له المجد حين وعده بسر الشكر فقد قال بصريح العبارة « الحق أقول لكم ان لم تأكلوا جسد ابن الانسان وتشربوا دمه فليس لكم حياة فيكم • من يأكل جسدى ويشرب دمى فله حياة أبدية وأنا أقيمه فى اليوم الأخير » (يو ٦ : ٥٣ و ٥٤) •

ثانيا : كلام المخلص لتلاميذه حين تأسيس هذا السر الأقدس فقد قال لهم « خذوا كلوا هذا هو جسدى » وأخذ الكأس وشكر وأعطاهم قائلا « اشربوا منها كلكم » فان قالوا ان هذا الكلام موجه للرسل ، نرد عليهم بأنه قال أيضا « خذوا كلوا هذا هو جسدى » وقوله موجه للرسل أيضا لأنهم هم وحدهم الذين تسلموه ، فيلزم على هذا القياس الباطل حرمان الشعب من الجسد أيضا ، لأن الكلام فى كلا الأمرين موجه لأشخاص الرسل الأطهار •

ثالثا : قول بولس الرسول الذى يخاطب به أهل كورنثوس « أحكموا أنتم فى ما أقول • كأس البركة التى نباركها أليست هى شركة دم المسيح • الخبز الذى نكسره اليس هو شركة جسد المسيح » (١ كو ١٠ : ١٥ و ١٦) وقوله أيضا « اذن أى من كل هذا الخبز أو شرب كأس الرب بدون استحقاق يكون مجرما فى جسد الرب ودمه • ولكن ليمتحن الانسان نفسه وهكذا يأكل من الخبز ويشرب من الكأس » (١ كو ١١ : ٢٧ و ٢٨) فهل يوجد أوضح وأصرح من هذه الأقوال •

رابعا : ان الكنيسة المقدسة هكذا سارت منذ نشأتها • واليك شهادة القديس يوستينوس الذى يقول فى احتجاجاته (١ : ٨٥) « وبعد أن يتمم الخادم الشكر ويقول الشعب « آمين » يناول الشمامسة جميع الحاضرين من الخبز والخمر والماء ، ويحفظون جزءا من التقدمة للغائبين » وشهادة القديس كبريانوس الذى يقول فى (رسالة ٥٤) « اننا نحثهم ونحرضهم على الجهاد ولا نتركهم بلا سلاح ، بل نحصنهم بالسلاح الكامل وهو جسد ودم المسيح ، لأننا كيف نعلم أن تدعو الى الاعتراف باسمه أن يهرقوا دمهم اذا كنا لا نمنح دم المسيح للمجاهدين عنه ؟ » وهكذا يقول كيرلس فى (الأسرار ٤ : ٣ و ٦) والقديس يوحنا ذهبى الفم فى (مقالة ٨٢ على تفسير متى) والقديس أمبروسيوس فى (الأسرار ٨ : ٥٨) والقديس ايريناوس (ضد الهراطقة ٤ : ١٨ : ٥ ، ٥ : ٢) وترتليانوس فى (قيامة الأموات فصل ٨) •

خامسا : يشهد بهذه الحقيقة بعض البابوات ، فمنهم البابا لاون الكبير فى القرن الخامس الذى قال فى احدى عظاته فى الصوم الكبير « انهم يتناولون بأفواه غير مستحقة جسد المسيح ، لكنهم يبتعدون كل البعد عن دم افتدائنا فنذكر ذلك على علم من قدسكم، لكى يصير هؤلاء معروفين عندنا ويكشف رياؤهم التالم الالهيات ويمنعوا عن الاشتراك بالقدسات » ، والبابا جلاسيوس فى القرن الخامس الذى كتب هكذا « قد أتضح لنا أن بعضا من المسيحيين يتناولون جسد المسيح الالهى ، لكنهم يبتعدون عن كأس الدم الالهى • ولا نعلم لأى سبب يعملون هذا • فنأمر اذن أنه يجب على الجميع أن يشتركوا بالسر المقدس كاملا والا فليكن أمثال أولئك غير مقبولين فيه ، لأن قسـمة السر الواحد غير ممكنة من دون حصول اهانة عظيمة للموضوعات المقدسة والأشياء الشريفة » وكثير من المؤلفين الرومانيين يؤكدون أن الكنيسة الغربية كانت فى القرون الأثنى عشر الأولى تمنح سر الشركة لجميع المسيحيين تحت الشكلين مثل كنائس الشرق • (راجع المجمع التريدنتينى جلسة ٢١ فى الشكر قسم ١ فصل ٣ قضية ٢٥ قانون ٢ وبيرون فى مقدمات اللاهوت) ، وقال الكاردينال بارونيوس المؤرخ « ان غريغوريوس بابا رومية قال ان المسافرين يحملون معهم جسد المسيح ودمه » (تاريخه خطاب ٣ فصل ٣١) ويشهد الكاردينال بونا نفس هذه الشهادة فى النساك فى (الخدم ٢ : ١٨ : ١١) ويذكر مثال مريم البارة المصرية التى كانت تشترك من يدى القديس زوسيما بجسـد المسيح ودمه (راجع السنكسار) •

الفصل التاسع

مناولة الأطفال من هذا السر

ان الكنيسة المقدسة الرسولية منذ نشأتها اعتادت حسب التعليم الرسولى أنها كما تعمد الأطفال على ايمان والديهم أو أشابينهم ، هكذا تمنحهم سر جسد الرب ودمه الأقدس ، قوتا روحيا لهم لنيل الحياة الأبدية حسب وصية الرب ، ولكن كنيسة رومية كما حرمت الأطفال من سر الميرون المقدس هكذا ابتدأت منذ القرن الثانى عشر أن تحرمهم من سر الشركة المقدس ، بدعوى أنهم لا يفهمون ، على أن ذلك باطل لأنهم أيضا لا يفهمون معنى سر المعمودية الذى يمنحونه • وما قلناه سابقا فى سر الميرون ذلك كاف لادحاض هذا الزعم هنا أيضا ، لا سيما وأن المخلص يقول بصريح العبارة « دعوا الأولاد يأتون الى ولا تمنعوهم الأن لمثل هؤلاء ملكوت السموات » فأى ذنب وأية جريمة اقترفها هؤلاء الأطفال حتى يحرموا من بركات هذا السر الأقدس • قال القديس أوغسطينوس « وحقا من يتجاسر ويقول ان هذا الرأى لا يخص الأطفال وانهم يستطيعون أن تكون لهم حياة فيهم من دون مشاركة فى الجسد والدم » (الساقطين ١ : ٢٠) وقال البابا اينوشنسيوس الأول « أمر خارج عن الواجب أن يكرم الأطفال بقرابين الحياة الأبدية قبل أن ينالوا نعمة المعمودية • لأنهم ان لم يمضغوا دمه (١) لا تكون لهم حياة فيهم » (رسالة ٤٣) وهناك القانون الذى سنته كنيسة رومية فى القرن التاسع « ينبغى أن يعتنى بالأطفال حتى لا يذوقوا غذاء ما أو يرضعوا بعد المعمودية قبل أن يشتركوا بسر جسد المسيح الا عند الضرورة الأخيرة راجع (أوامر الرسل كتاب ٨ فصل ٢١) وديوناسيوس الأريوباغى فى (رئاسة الكهنوت ٧ : ١١) وكبريانوس فى (الساقطين وشهادات ضد اليهود ٣ : ٢٥) •

---

(١) « يمضغوا » هنا منسوبة الى البابا اينوشنسيوس الأول ، وأمانة النقل اضطرت المؤلف الى وضعها كما هى • ولكن كلمة (دمه) بعدها اكدت لن الكلمة (يمضغوا) يحتمل أن يكون أصلها (يرضعوا) لتقارب الكلمتين شكلا كما تتقارب فى الشكل مع كلمة (يمصوا) • والمص واللواك للطفل يشابه المضغ وبالاجمال فالفكرة فى مناولة الطفل دم السيد المسيح معروفة •

الفصل العاشر

الأثمار الخلاصية التي ننالها بواسطة سر الشكر

ان الذين يتناولون هذا السر الأقدس باستحقاق ينالون أثمارا خلاصية أهمها :

أولا : الثبات والاتحاد مع المسيح له المجد ، وذلك بناء على وعده الصادق القائل « من يأكل جسدى ويشرب دمى يثبت فى وأنا فيه » (يو ٦ : ٥٦) فبتناولنا من هذا السر نكون ــ كما يقول آباء الكنيسة ــ أعضاء جسده ومشاركى طبيعته الالهية ٠

ثانيا : النمو فى النعمة والكمال الروحى والحياة فى الرب يسوع لأنه له المجد يقول « جسدى مأكل حق ودمى مشرب حق ٠٠ كما أرسلنى الآب الحى وأنا حى بالآب فمن يأكلنى فهو يحيا بى ٠ هذا هو الخبز الذى نزل من السماء ٠ ليس كما أكل آباؤكم المن وماتوا ٠ من يأكل هذا الخبز فانه يحيا الى الأبد » (يو ٦ : ٥٥ ــ ٥٨) ٠

فاذا كان القوت العادى يغذى الجسم ويقويه ويعيد اليه قواه ويمنحه دقائق حيوية جديدة ، فكم بالحرى هذا القوت الروحى يمنحنا الصحة والغذاء لأرواحنا ويوحدنا بالمسيح ويشفى ضعفنا وينقى نفوسنا من الخطايا ٠

ثالثا : يمنحنا عربون الحياة والقيامة المجيدة كما قال له المجد « من يأكل جسدى ويشرب دمى فله حياة أبدية وأنا أقيمه فى اليوم الأخير ٠٠٠ من يأكل هذا الخبز فانه يحيا الى الأبد » (يو ٦ : ٥٤ ــ ٥٨) ٠

وقد قال عنه الآباء القديسون انه دواء لعدم الموت وحرز ضده ، وتثبيت للحياة الأبدية بيسوع المسيح ، وأن الاشتراك فى سر الشركة هو الاشتراك فى الحياة الأبدية ٠

الفصل الحادى عشر

وجوب استعمال الخبز والخمير ، وادحاض بدعة الفطير

ان الكنيسة الأرثوذكسية قد تسلمت من السيد المسيح والسادة الرسل الأطهار أن تتمم سر الشكر بخبز خمير ، تابعة فى ذلك تعليم الانجيل وما جرى عليه الرسل وآباء الكنيسة • ولكن كنيسة رومية ابتدعت منذ الجيل الحادى عشر بدعة جديدة وهى تقديس هذا السر بالفطير • ولما رأت أن كثيرين من أتباعها الشرقيين لم يقبلوا هذا التعليم ، فلئلا ينشقوا عن كنيستهم ، سمحت لهم باتمام السر بالخبز الخمير ، مدعية أنه لا يجوز تقديس هذا السر بالنوعين سواء من الخمير أو الفطير ، ولكنها لا تتممه الا بالفطير •

وأول ما ابتدع هذه البدعة هو **أبوليناريوس** الملحد الذى جدف قائلا عن المسيح له المجد انه لما تجسد أخذ من البتول القديسة مريم والدته جسدا بلا نفس ولا عقل ، زاعما زعما فاسدا أن لاهوت المسيح أغنى عن هذين الاثنين (النفس والعقل) وبناء على بدعته هذه بدأ يقدس سر الشكر بالفطير خاليا من الملح والخمير • مشيرا بذلك الى أن المسيح عادم النفس والعقل البشريين ، وقد قطع أبوليناريوس هذا من الكنيسة واعتبر هرطوقيا ، وأنكرت الكنيسة استعمال الفطير فى هذا السر المقدس •

ولدحض هذا التعليم تذكر بالاختصار سنة الفطير عند اليهود وزمن تعييدهم الفصح وسبب ذلك • فنقول انه لما أراد الله أن يخرج بنى اسرائيل من أرض مصر وشرع يضرب المصريين الضربة الأخيرة ، التى هى اماتة الأبكار من الناس والبهائم • أمر بنى اسرائيل أن تأخذ كل عائلة منهم حملا وذلك فى اليوم العاشر من شهر نيسان ، الذى جعل رأسا لسنتهم • وأن يذبحوه فى اليوم الرابع عشر ويأخذوا من دمه ويجعلوه على قائمتى الباب وعتبته العليا • ويأكلوا لحمه فى تلك الليلة التى هى الخامس عشر من الشهر مشويا بالنار مع فطير على أعشاب مرة • ويأكلونه وأحقاؤهم مشدودة وأحذيتهم فى أرجلهم وعصيهم فى أيديهم ويأكلونه بعجلة • هو فصح للرب ، فان الرب يجتاز فى تلك الليلة ويضرب كل بكر فى أرض مصر ، ويرى الرب الدم علامة على بيوت الاسرائيليين فلا يكون عليهم ضربة للهلاك • ويكون ذلك فريضة دهرية لهم يخلون منازلهم سبعة أيام من الخمير ويأكلون عوضه فطيرا (راجع خر ١٢ و ١٣ ، لا ٢٣ ، عدد ٩ و ٢٨ ، تث ١٦) •

وبناء على ذلك تعلم كنيستنا أن المسيح له المجد صنع العشاء الربانى قبل أن يأتى عيد الفصح بيوم كامل • أى مساء الخميس ١٣ نيسان الذى هو بدء الجمعة ١٤ منه • لأن اليوم يبتدىء من مساء اليوم الذى قبله • فبدء الجمعة هو مساء الخميس • وبدء السبت الذى كان واقعا وقتئذ ١٥ نيسان أى اليوم الأول من عيد الفطير هو مساء الجمعة ، وعليه يكون السيد له المجد تمم هذا السر بخبز خمير قبل أن يبدأ استعمال الفطير • وأما الكنيسة الباباوية فتزعم أن الخميس الذى صنع المسيح فى مسائه العشاء السرى كان واقعا وقتئذ ١٤ نيسان لا ١٣ منه كما تعلم كنيستنا ، فيكون اليوم الأول من عيد الفطر وقتئذ الجمعة وبدؤه مساء الخميس • وسنورد فيما يأتى البينات الكتابية القاطعة لأثبات صحة تعليم الكنيسة الأرثوذكسية :

أولا : قال القديس يوحنا الانجيلى « أما يسوع قبل عيد الفصح وهو عالم أن ساعته قد جاءت لينتقل من هذا العالم الى الآب اذ كان قد أحب خاصته الذين فى العالم أحبهم الى المنتهى • فحين كان العشاء وقد ألقى الشيطان فى قلب يهوذا سمعان الأسخريوطى أن يسلمه ••• قام عن العشاء وخلع ثيابه وأخذ منشفة واتزر بها • ثم صب ماء فى مغسل وابتدأ يغسل أرجل التلاميذ ويمسحها بالمنشفة التى كان متزرا بها ••• وقال الحق الحق أقول لكم ان واحدا منكم سيسلمنى ••• أجاب يسوع هو ذاك الذى أغمس أنا اللقمة وأعطيه • فغمس اللقمة وأعطاها ليهوذا سمعان الأسخريوطى فبعد اللقمة دخله الشيطان » (يو ١٢ : ١ ـ ٢٧) •

فهنا يصرح يوحنا الانجيلى أن العشاء الربانى الذى عقبه غسل أرجل التلاميذ وتسليم يهوذا ، قد صنعه الرب يسوع قبل عيد الفصح لا فيه أو بعده •

ثانيا : قال القديس يوحنا الانجيلى « ثم قبل الفصح بستة أيام أتى يسوع الى بيت عنيا حيث كان لعازر الميت الذى أقامه من الأموات • فصنعوا له هناك عشاء ••• وفى الغد سمع الجمع الكثير الذى جاء الى العيد أن يسوع آت الى أورشليم فأخذوا سعوف النخل وخرجوا للقائه » (يو ١٢ : ١ ـ ١٣) • فهذا العشاء الذى صنعه يسوع كان قبل الفصح بستة أيام • أى كان مساء ليلة الأحد الذى دخل فيه الرب الى أورشليم راكبا الأتان • وهذا يؤيده تفاسير البابابين • قال نيافة المطران يوسف الدبس مطران الموارنة فى كتابه « تحفة الجيل فى تفسير الأناجيل » الذى ترجمه عن اللاتينية من تفاسير كرنيليوس الحجرى ويوحنا ملدوناتوس ويعقوب تيرينى اليسوعيين فى صفحة ٣١٤ عند تفسير العدد ٦ من ص ٢٦ من تفسير متى « وفيما كان يسوع فى

بيت عنيا : ان هذا الأمر كان حدوثه قبل هذا الوقت (١) فى اليوم السادس مساء الأحد الذى دخل فيه الى أورشليم راكبا الآتان ، وذكره متى هنا تمهيدا لذكر خيانة يهوذا ، وذلك يظهر من بشارة يوحنا (١٢ : ١) حيث روى أن يسوع أتى الى بيت عنيا قبل الفصح بستة أيام فصنعوا له هناك عشاء » واذا تقرر أن قبل الفصح بستة أيام كان السبت مساء الأحد • فهل يكون عيد الفصح عند اليهود الخميس مساء الجمعة كما تدعى الكنيسة البابوية أم الجمعة مساء السبت كما تعلم الكنيسة الأرثوذكسية ؟

ثالثا : جاء أيضا فى (يو ١٨ : ٢٨) « ثم جاءوا بيسوع من عند قيافا الى دار الولاية • وكان صبح • ولم يدخلوا هم الى دار الولاية لئلا يتنجسوا فيأكلون الفصح » والظاهر من هذه العبارة أن اليهود لم يدخلوا دار الولاية صباح الجمعة لئلا يتنجسوا لأن الذى يأكل الفصح يجب أن يكون طاهرا • واذا تنجس امتنع عن أكل الفصح كما جاء فى سفر العدد (٨ : ٦ ـ ١١) وهذا يدل على أن فصح اليهود لم يكن قد بدأ فى يوم الجمعة صباحا وثم يكونوا أكلوه بل كانوا مستعدين لأكله يوم الجمعة مســاء • وهذا أمر لا يحتمــل تأويلا •

رابعا : قال القديس متى الانجيلى (٢٧ : ٦٢ ـ ٦٤) « وفى الغد الذى بعد الاستعداد اجتمع رؤساء الكهنة والفريسيون الى بيلاطس • قائلين ••• فمر بضبط القبر الى اليوم الثالث آلخ » وقال مار مرقس الانجيلى (١٥:٤٢و٤٣) « ولما كان المساء اذ كان الاستعداد • أى ما قبل السبت جاء يوسف وطلب جسد يسوع » وقال لوقا الانجيلى فى (٢٣ : ٥٤) « وكان يوم الاستعداد والسبت يلوح » وقال يوحنا الانجيلى فى (١٩ : ٤٢) « فهناك (أى فى القبر) وضعا يسوع لسبب استعداد اليهود لأن القبر كان قريبا » يتضح من أقوال الانجيليين الأربعة أن يوم الجمعة الذى صلب فيه المسيح كان يوم استعداد للفصح لا يوم الفصح • وعليه تسقط دعوى الكنيسة البابوية بأن ذلك الجمعة كان ١٥ نيسان أى بدء عيد الفطر ـ واذا اعترض البابويون بأن ذلك الاستعداد كان للسبت لا للفصح فندفع اعتراضهم بقول يوحنا الانجيلى « فلما سمع بيلاطس هذا القول أخرج يسوع وجلس على كرسى الولاية ••• وكان استعداد الفصح ونحو الساعة السادسة » (يو ١٩ : ١٣ و ١٤) فيوحنا الانجيلى يصرح بأن ذلك الاستعداد كان للفصح لا للسبت • وأما قول مرقس « ما قبل السبت » ولوقا « وأخذ السبت يلوح » فلا يفهم منه أن الاستعداد كان للسبت بل أن ذلك السبت كان واقعا فيه الفصح ، ولو كان

---

(١) قبل هذا الوقت : أى الوقت الذى تم فيه الفصح ، فقد وقع الفصح بعد دخول السيد بيت عنيا بستة أيام •

الفصح واقعا يوم الخميس مثلا لقالا « ما قبل الخميس » « وأخذ الخميس يلوح » ولا يكون المعنى حينئذ أن الاستعداد للخميس بل أن الفصح متفق وقوعه يوم الخميس .

خامسا : جاء في (مت ٢٧ : ٢ ـ ٧) « حينئذ لما رأى يهوذا الذى أسلمه أنه قد دين ندم ورد الثلاثين من الفضة الى رؤساء الكهنة والشيوخ ... فأخذ رؤساء الكهنة الفضة وقالوا لا يحل أن نلقيها في الخزانة لأنها ثمن دم ، فتشاوروا واشتروا بها حقل الفخارى مقبرة للغرباء » وورد في مرقس (١٥ : ٤٦) ولوقا (٢٣ : ٥٣) « فاشترى يوسف كتانا فأنزله وكفنه بالكتان ووضعه في قبر » وورد أيضا في (مر ١٥ : ٢١ ، لو ٢٣ : ٢٦) « فسخروا رجلا مجتازا كان آتيا من الحقل وهو سمعان القيروانى أبو الكندرس وروفس ليحمل صليبه » فمن قول متى أن رؤساء الكهنة اشتروا يوم الجمعة حقل الفخارى نتأكد أن يوم الجمعة لم يكن قد دخل الفصح لانه لو كان دخل فكيف جاز لهم أن يشتروا فيه ، والناموس ينهى عن ذلك في اليوم الأول من العيد . كذلك من قول مرقس أن يوسف الذى كان من كبار اليهود اشترى كتانا يوم الجمعة نتأكد أن يوم الجمعة لم يكن قد دخل الفصح ، وكذلك أيضا نتأكد من قول مرقس ولوقا أن سمعان القيروانى كان آتيا من الحقل يوم الجمعة ، أن ذلك اليوم لم يكن يوم عيد الفصح .

سادسا : قال يوحنا الانجيلى « ثم اذ كان استعداد فلكى لا تبقى الأجساد على الصليب في السبت لأن يوم ذلك السبت كان عظيما سأل اليهود بيلاطس أن تكسر سيقانهم ويرفعوا » (يو ١٩ : ٣١) ففى هذه الآية نرى :

١ ـ أن يوم ذلك السبت كان عظيما بسبب وقوع الفصح فيه .

٢ ـ أن عصر الجمعة حين موت المسيح على الصليب كان استعداد الفصح لا يوم الفصح .

٣ ـ أن اليهود في عصر ذلك اليوم سألوا بيلاطس أن تكسر سيقان المصلوبين لموتهم ودفنهم قبل السبت لئلا تبقى الأجساد على الصليب في ذلك السبت الواقع فيه الفصح ، لأن دفنها فيه محرم وبقاؤها يذهب ببهاء العيد . فلو كان الفصح وقتئذ الجمعة لما كانوا يلحون على بيلاطس في طلبهم .

سابعا : قال الانجيليون متى ومرقس ولوقا بأن الوالى كان يطلق لليهود في العيد أسيرا من أرادوه وأنه أطلق لهم باراباس وأسلم اليهم يسوع بعد ما جلده (مت ٢٧ : ١٥ ـ ٢٦ ، مر ١٥ : ٦ و ١٥ ، لو ٢٣ : ١٧) فمن اطلاق بيلاطس الوالى باراباس اللص يوم الجمعة حينما حوكم المسيح

وأسلم للصلب ، يتبين أن الفصح لم يكن قد حل ، لأن العادة كانت أن يطلق الأسير قبل دخول الفصح ليعيده مع أهله ، لا بعد مضيه .

ثامنا : قال يوحنا الانجيلي عن يهوذا الأسخريوطي « فبعد اللقمة دخله الشيطان . فقال له يسوع ما أنت تعمله فأعمله بأكثر سرعة . وأما هذا فلم يفهم أحد من المتكئين لماذا كلمه به لأن قوما اذ كان الصندوق مع يهوذا ظنوا أن يسوع قال له اشتر ما نحتاج اليه للعيد » (يو ١٣ : ٢٧ ـ ٢٩) فالخميس مساء بدء الجمعة حينما صنع الرب يسوع العشاء السرى متكئا مع تلاميذه ، غمس لقمة وناولها ليهوذا ، وجرى ما جرى ، ومن هنا يتبين أن العيد لم يكن قد دخل لأن الاستعداد والشراء يكونان قبل حلوله لا بعده .

تاسعا : جاء فى انجيل متى ومرقس « حينئذ اجتمع رؤساء الكهنة والكتبة وشيوخ الشعب الى دار رئيس الكهنة الذى يدعى قيافا . وتشاوروا لكى يمسكوا يسوع بمكر ويقتلوه ولكنهم قالوا ليس فى العيد لئلا يكون شغب فى الشعب » (مت ٢٦ : ٣ ـ ٥ ، مر ١٤ : ١ و ٢) فمن قول البشيرين يتبين أن المسيح حوكم وصلب فى غير يوم العيد . لأن رؤساء الكهنة صمموا على ذلك لئلا يقع شغب فى الشعب الذى كان يجتمع من كل ناحية .

عاشرا : ان يوم الخمسين المدعو عند اليهود عيد الأسابيع وقع فى تلك السنة التى صلب فيها المخلص يوم الأحد وفيه حل الروح القدس على الرسل وهذا اليوم هو أحد الخمسين من قيامته كما جاء فى سفر الأعمال (٢ : ١ ـ ١٣) ومن المعلوم عند دارسى الكتاب أن عيد الخمسين يقع بعد الفصح بسبعة أسابيع ، ولهذا يسمى عيد الأسابيع كما جاء فى سفر الخروج « وتصنع لنفسك عيد الأسابيع أبكار حصاد الحنطة وعيد الجمع فى آخر السنة (خر٣٤ : ٢٢) وفى سفر اللاويين « ثم تحسبون لكم من غد السبت من يوم اتيانكم بحزمة الترديد سبعة أسابيع تكون كاملة . الى غد السبت السابع تحسبون خمسين يوما . ثم تقربون تقدمة جديدة للرب » (لا ٢٤ : ٢٥ و ٢٦) ومتى تقرر أن عيد الخميسين وقع فى تلك السنة فى يوم الأحد كما جاء فى سفر الأعمال وأن هذا العيد يقع بعد الفصح بسبعة أسابيع . فهل يكون الفصح يوم الجمعة كما يقول الباباويون أم السبت كما تقول الكنيسة الأرثوذكسية ؟

حادى عشر : جاء فى (مت ٢٦ : ٢٦ ، مر ١٤ : ٢٢ ، لو ٢٢ : ١٩) أن الرب يسوع أخذ خبزا وبارك وكسر ، وقال الرسول بولس « ان الرب يسوع فى الليلة التى أسلم فيها أخذ خبزا وشكر فكسر وقال خذوا كلوا هذا هو جسدى » (١ كو ١١ : ٢٣) وكلمة خبز فى اليونانية « آرطوس » أى مرتفع تطلق على الخمير لا الفطير . ولسائل يسأل أين وجد الخبز المختمر وقتئذ ؟ فنجيب أنه وجد فى البيت الذى صنع فيه الرب العشاء . لأن اليهود

الى ذلك الحين كانوا يأكلون الخبز المختمر . واذا سألنا نحن المعترض من أين وجد الفطير قبل حلول العيد ؟ فانه يصعب عليه الجواب . ولكن مرقس الانجيلي يرفع كل شبهه بقوله « وفيما هم يأكلون أخذ يسوع خبزا » (مر ١٤ : ٢٢) كذلك الرسل لم يستعملوا سوى الخبز الخمير الاعتيادى كما ورد فى سفر الأعمال (راجع أع ٢ : ٤٢ و ٤٦ ، ٢٠ : ٧ ، ١كو ١٠ : ١٦ و ١٧ ، ١١ : ٢٣) .

ثانى عشر : ان سر الافخارستيا لم يتمم منذ الأزمنة الرسولية الا بخبز خمير للأسباب الآتية :

١ - لأن الخبز الذى كان يستعمل فى السر كان يجمع من تقدمات الشعب أى من بيوت المؤمنين وكانوا يقدمونه خبزا اعتياديا يصلح لموائد المحبة التى كانوا يعملونها ولاعانة الفقراء .

٢ - لم يسمه أحد من الآباء الأقدمين فطيرا بل يسمونه خبزا اعتياديا وأحيانا خبزا مختمرا .

٣ - ان القديس أبيفانيوس رئيس أساقفة قبرص عند تكلمه عن الهراطقة قال عن هرطقة الأبيونيين « انهم كانوا يتمسكون بالشريعة الموسوية وانهم كانوا يتممون سر الافخارستيا بفطير وماء فقط » (هرطقة ٣٠ : ١٦) ، موضحا أن ذلك مخالف لعادة الكنيسة .

٤ - ان كثيرين من المؤلفين الغربيين من الكاثوليك والبروتستانت يعترفون فى مؤلفاتهم ويبرهنون على أن الفطير لم يكن مستعملا فى الكنيسة الغربية الى القرن الحادى عشر : منهم (سيرموند فى تأليفه فى الفطير سنة ١٦٥١ وكوتيلاريوس فى مؤلفه فى الكنيسة اليونانية (صفحة١٠٨) وباكيوس فى حواشيه على تاريخ بارون (١٥:٣١٣) وبينكام فى الكنيسة القديمة (١٥ : ٢) وتاريخ الكنيسة لكلاين (جزء ٤ صفحة ٤٣٠) . قال البابا أينوشنسيوس « ان القسوس يأخذون خبزا مختمرا لكى يشهروا ذواتهم (١) منفصلين عن ذلك الاله العلى » (رسالة ٢٥ : ٤ : ٨) وقال ملتيادس فى ترجمته « هكذا قد صنع أن تقدم قرابين للكنيسة ... القرابين التى نسميها « مختمرا » . وقال بيرون فى كتابه مقدمة اللاهوت فى شرح سر الافخارستيا (قسم ٢ فصل ٣ قضية ١) « ان الخمير والفطير يصلحان على السواء لاتمام سر الشكر الالهى » ولكنهم فى التقديس لا يستعملون غير الفطير وحده .

---

(١) لكى يشهروا ذواتهم منفصلين ... الخ يقصد أن بعض قسوسهم كانوا يقدمون الخبز بدل الفطير فى سر الشكر ، وبهذا يعلنون انفصالهم حسب رأيه عن الله لأنه كان يقدم الفطير .

الفصل الثانى عشر

ادحاض الاعتراضات فى هذا الشأن

أما دعاوى الكنيسة البابوية التى تقدمها وتزعم بناء عليها أن يوم ذلك الجمعة الذى صلب فيه المسيح كان ١٥ نيسان أول العيد • وأن المسيح له المجد قدس سر جسده ودمه الأقدسين على الفطير ، فنوردها هنا مع الرد عليها :

أولا : جاء فى انجيل متى « وفى أول أيام الفطير تقدم التلاميذ الى يسوع قائلين : له أين تريد أن نعد لك لتأكل الفصح • فقال اذهبوا الى المدينة الى فلان • وقولوا له المعلم يقول ان وقتى قريب • عندك أصنع الفصح مع تلاميذى • ففعل التلاميذ كما أمرهم يسوع وأعدوا الفصح » (مت ٢٦ : ١٧ ــ ١٩) وفى انجيل مرقس « وفى اليوم الأول من الفطير حين كانوا يذبحون الفصح قال له تلاميذه • أين تريد أن نمضى ونعد لتأكل الفصح الخ » (مر ١٤ : ١٢) وفى انجيل لوقا « وجاء يوم الفطير الذى كان ينبغى أن يذبح فيه الفصح • فأرسل بطرس ويوحنا قائلا اذهبا وأعدا لنا الفصح لنأكل » (لو ٢٢ : ٧ و ٨) ويستندون على قول متى ومرقس « وفى أول أيام الفطير » وقول لوقا « وجاء يوم الفطير » •

فنرد على ذلك بأنه لا توجد مناقضة بين انجيل وآخر • ولا بين آية وغيرها ، ولا يمكن أن يخالف انجيلى نفسه أو غيره • وهذا أمر مسلم به عند جميع المسيحيين • وقد أثبتنا فيما سبق أن الانجيليين الثلاثة متى ومرقس ولوقا يصرحون أن يوم الجمعة كان استعداد الفصح لا يوم الفصح • وأن اليهود فى ذلك اليوم كانوا يشترون ويعملون يوم الجمعة أعمالا لا تجوز مطلقا فى اليوم الأول من العيد ، مثل شراء حقل الفخارى ، وشراء يوسف كتانا ، وذهاب سمعان القيروانى الى الحقل ، وتسخيره حمل الصليب • وأن ظهر الجمعة أطلق باراباس اللص قبل أن يدخل العيد وغير ذلك • فمن المستحيل أن يناقض الانجيليون أنفسهم ، ومن المستحيل أيضا أن يناقضوا أخاهم يوحنا الانجيلى الذى يصرح أن قبل الفصح صنع يسوع العشاء السرى • وأن اليهود صباح الجمعة لم يكونوا أكلوا الفصح ، بل كانوا مستعدين لأكله ، وأن يوم ذلك السبت كان عظيمـا لوقوع اليوم الأول من الفطير فيه ••• الخ • فاذن لا بد أن نبسط الغرض والمعنى فى قول الانجيليين ونوضحه بأجلى بيان •

أما قول لوقا « وجاء يوم الفطير » فهو بمعنى « قرب » لأن الأمور المقرر وقوعها فى وقت معين يقال عنها جاءت أو بلغت اذا كان هذا الوقت قريبا جدا . ففى يوم الجمعة العظيمة أو يوم السبت عندنا نحن المسيحيين يصح أن يقال « جاء عيد الفصح » أى صار قريبا جدا لا أنه جاء حقيقة ، وهكذا قصد لوقا كما يتضح من نفس قوله « وأعدا لنا الفصح لنأكل » لأن الاستعداد يكون قبل دخول العيد لا بعده ، وهذا ما قاله القديس يوحنا ذهبى الفم فى شرحه كلام لوقا « وجاء يوم الفطير الذى كان ينبغى أن يذبح فيه الفصح يعنى أنه كان قريبا على الأبواب لا أنه أتى » (تفسير متى ٢٦ : ١٧) .

أما كلام الانجيلى متى فى اليونانى فهو (تى بروتى تون أزيمون) وتعريبه « وفى أول الفطير » وقول مرقس (كى تى أيميراتون أزيمون) وتعريبه « وفى أول يوم الفطير » فلفظة « بروتى » التى تعريبها « أول » تأتى أحيانا فى اللغة اليونانية بمعنى « قبل » ، وقد وردت مرارا فى شعر هوميروس أعظم شعراء اليونان بمعنى « قبل » . واليانوس أحد كتبة اليونان المشاهير استعملها بمعنى « قبل » فى قوله « اى بروتى موتافتا انيخنيفسانداس نى » وتعريبه « الذين قبلى بحثوا هذه الأبحاث » فضلا عن أن القديس يوحنا الانجيلى نفسه أوردها فى الأصحاح الأول من بشارته بمعنى « قبل » حيث يقول « أوتى بروتوس موايـن » أى « الذى يأتى بعدى انه كان قبلى » (يو ١ : ١٥) وفى لغتنا العربية تأتى « أول » أحيانا بمعنى قبل نحو « أول من أمس » أى قبل أمس . فقول متى ومرقس « وفى أول أيام الفطير » يقصد به « قبل الفطير » كما يتبين من قولهما أين تريد أن نعد لك لتأكل الفصح .

وقد شرح كثيرون من اللاهوتيين بأن الفصح الذى صنعه مخلصنا ليس هو الفصح اليهودى القديم ، بل هو الفصح الجديد الذى أشار اليه المخلص بقوله « هذا هو دمى الذى للعهد الجديد » (مت ٢٦ : ٢٨) وبقوله « شهوة اشتهيت أن آكل هذا الفصح معكم قبل أن أتألم » (لو ٢٢ : ١٥) فالفصح الناموسى اليهودى ما كان يشتهيه ، لأنه كان قد أكله معهم مرات ، بل الفصح الجديد ، أى أنه اشتهى أن يسلمهم فصحا جديدا بعهد جديد . ومن المعلوم أن مخلصنا وتلاميذه كانوا متكئين فى هذا الفصح ، وكانوا يشربون خمرا ويغمسون أيديهم فى الصفحة وما أشبه . فلو كان الفصح اليهودى لما جاز لهم ذلك ، لأنه يجب أن يأكله اليهود وقوفا بحمل مجرد مع أعشاب مرة فلا يتكئون ولا يشربون معه خمرا أو غيره . فضلا عن أن الفصح الاسرائيلى ابتدأ فى ذلك الوقت مساء الجمعة بدء السبت ، والمسيح صنع فصحه مساء الخميس بدء الجمعة . والقديس يوحنا ذهبى الفم فى شرحه الأصحاح ٢٦ من بشارة متى ظن أن فى مساء الخميس بدء الجمعة حينما صنع المسيح العشاء كان قد دخل

الفصح اليهودى • ولكنه عندما شرح انجيل يوحنا غير رأيه بعد أن تحقق وقال فى شرح الأصحاح الثامن عشر منه ما نصه « ان المسيح صنع الفصح قبل بيوم حافظا ذبيحة الى الجمعة عندما صار الفصح قديما أيضا » (١) •

ثانيا : يزعم البابايون ان حمــل الفصـــح الاسرائيـــلى الذى خلص الاسرائيليين قديما كان رمزا الى المسيح حمل الله الرافع خطايا العالم • فمن الضرورى أن يذبح المسيح يوم ذبح الحمل الفصحى الاسرائيلى ، وبما أن المسيح صلب يوم الجمعة فيكون عيد الفطير يوم الجمعة لا يوم السبت •

ونرد على ذلك بأن هذه الدعوى عليهم لا لهم ، لأن حمل الفصح يجب أن يذبح مساء اليوم الرابع عشر بدء اليوم الخامس عشر ، ويؤكل تلك الليلة ولا يبقى منه شىء الى الصباح • فلو كان عيد الفطير يوم الجمعة حين صلب المســيح لكان ذبح الحمل الفصحى مساء الخميس • والمســيح ذبح الساعة التاسعة من يوم الجمعة ، وبين مساء الخميس وعصر يوم الجمعة احدى وعشرون ساعة ، وعلى ذلك يكون العيد يوم السبت ليذبح الحمل الفصحى الاسرائيلى مساء الجمعة ، أى وقت ذبح المسيح أو بعده بساعتين ، وحينئذ يقال ان المسيح والحمل تقدما فى وقت واحد ، فاذن تلك الدعوى ساقطة •

ثالثا : يزعمون أن المسيح له المجد لما رافق التلميذين فى طريقهما الى عمواس يوم قيامته فى عيد الفطير واتكأ معهما « أخذ خبزا وبارك وكسر وناولهما » (لو ٢٤ : ١٣ ــ ٤٥) وعلى ذلك يكون الرب يسوع صنع سر الشكر بفطير • فندحض هذا الزعم بأن ما عمله مخلصنا فى عمواس لم يكن سر الافخارستيا :

١ ــ لأن الرب عمل هذا السر مرة واحدة وسلمه لتلاميذه قائلا « اصنعوا هذا لذكرى » وهو غير محتـــاج أن يذكر نفســـه للتلميذين فى طريق عمواس • وجميع الآباء القديسين متفقون على أن المسيح له المجد صنع عشاءه السرى مرة واحدة يوم الخميس مساء •

٢ ــ ان المسيح أعطى هذين التلميذين خبزا فقط ولم يعطهما خمرا ، ومن المعلوم أن هذا السر لا يتم الا تحت الشكلين الخبز والخمر •

٣ ــ ان المسيح لما ناولهما الخبز لم يقل لهما هذا هو جسدى كما سماه يوم الخميس ، ليعلم التلاميذ أن القصـــد من تلك البركة تقديســـه وصيرورته جسدا • أما هنا فاكتفى بأن بارك وكسر وناولهما ، وقصد بهذه البركة أعجوبة تفتيح أعين التلميذين ليعرفاه ، أما كونه كسر وبارك فهكذا أعتاد المخلص ، لأنه أيضا بارك وكسر وأعطى الخمسة

---

(١) قوله صنع الفصح أى الفصح الجديد بسر الشكر • وقوله (قبل بيوم) أى قبل فصح اليهود بيوم ثم قدم نفسه ذبيحة يوم الجمعة الذى فى مسائه أكل اليهود فصحهم •

الأرغفة والسمكتين (مت ١٤ ، مر ٦ ، لو ٩) فهل قصد بهذه البركة وهذا الكسر سر الافخارستيا ؟ وهل يصح التقديس على السمك بدعوى أن المسيح باركه وكسره وأشبع منه ألوفا ؟ ثم ان ذلك الخبز كان من الشعير كما يشير اليه يوحنا (٦ : ٩) فهل يصح التقديس على خبز الشعير بدعوى أن المسيح باركه ؟ لقد اعتاد الآباء رؤساء الكهنة والكتبة أن يباركوا ويكسروا الخبز فى البيوت عند الأرثوذكسيين وعند الباباويين ، فهل هم بذلك يصنعون سر الافخارستيا ؟ لا شك أن هذا الزعم ساقط من أساسه •

رابعا : يدعون أن بولس الرسول أشار الى تقديس هذا السر بالفطير بقوله « اذن نقوا منكم الخميرة العتيقة ، لكى تكونوا عجينا جديدا كما أنتم فطير • لأن فصحنا أيضا المسيح قد ذبح لأجلنا » (١ كو ٥ : ٧) •

فندحض هذه الدعوى بأن الرسول بولس لم يتكلم هنا عن الخميرة الحسية ، أى الخبز المختمر ، بل عن الخميرة المعنوية ، أى الخبث والشر ، وفى الآية التى بعدها يقول « اذن لنعيد ليس بخميرة عتيقة ولا بخميرة الشر والخبث بل بفطير الاخلاص والحق » مشيرا بذلك الى ما كتبه لهم قبل ذلك فى أول الاصحاح عن الزانى لكى ينزعوه من بينهم ، وقال لهم فى العدد السادس « ان خميرة صغيرة تخمر العجين كله » ، واليك تفسير الكنيسة الكاثوليكية نفسها فى ذلك • قال الخورى يوسف العلم الكاهن اللبنانى فى كتابه (تيسير الوسائل فى تفسير الرسائل صفحة ١٦٢) عند تفسيره قول الرسول هذا « أى أبعدوا عنكم خميرة الانسان العتيق الفاسد ، أى كل خطية ورذيلة • وأطردوا من بينكم الزانى المشار اليه ، لئلا يفسد غيره كما قال الذهبى ، لتكونوا أطهارا قديسين كما أنتم كذلك • لأنكم بالمعمودية تطهرتم من كل خطية • فيجب عليكم أن تكونوا هكذا دائما • وكما أن العجين الفطير يخلو من كل خمير ، كذلك أنتم يجب أن تتنظفوا من كل خطية » وقال القديس يوحنا ذهبى الفم فى عظته التى قصد أن يوضح بها شرف العهد الجديد على العهد القديم ما نصه « ان فى العهد القديم كان الكتاب ، ولكن هنا الروح • هناك التابوت ، وهنا البتول • هناك عصا هرون ، وهنا الصليب • هناك الحمل ، وهنا المسيح • هناك الفطير ، وهنا الخمير » وقال القديس أبيفانيوس رئيس أساقفة قبرص ، فى دحضه بدعة الأبيونيين ، الذين كانوا يتمسكون بالشريعة الموسوية ويقدمون الفطير فى سر الشكر « انهم يتممون الأسرار اقتداء بالقديسين فى الكنيسة من الحول الى الحول بالفطير والجزء الآخر بالماء فقط » أى أن هؤلاء الهراطقة كانوا يريدون الاقتداء بآباء الكنيسة القديسين فى تقديم سر الشكر الالهى ، ولكنهم يريدون أن يتبعوا الأنظمة اليهودية فيقدمون بدل الخبز الخمير فطيرا وبدل الخمر ماء فقط • فاستعمال الفطير فى سر الشكر أحياء لبدعة أبوليناريوس وأمثاله •

٤ - سر التوبة

الفصل الأول

تعريف سر التوبة وتأسيسه

سر التوبة هو سر مقدس به يرجع الخاطئ الى الله ويتصالح معه تعالى ، باعترافه بخطاياه أمام كاهن الله ليحصل على حل منه بالسلطان المعطى له من الرب يسوع • وبه ينال تجديده وغفران خطاياه • وقد دعا العلامة ترتوليانوس هذا السر « حلا للخطايا » و « ميناء ثانية بعد الغرق » ودعاه القديس ايريناوس « اعترافا » ودعاه أغسطينوس « مصالحة » ودعاه مجمع قرطاجنة « معمودية ثانية » ، وقبل أن يؤسس الرب يسوع هذا السر وعد به مرتين : **الأول** : عندما اعترف به بطرس قائلا أنت هو المسيح ابن الله الحى • فقال له السيد « وأعطيك مفاتيح ملكوت السموات • فكل ما تربطه على الأرض يكون مربوطا فى السموات • وكل ما تحله على الأرض يكون محلولا فى السموات » (مت ١٦ : ١٩) ، **والثانية** : عندما أعطى الكنيسة سلطان الحل والربط بقوله لتلاميذه « وان لم يسمع منهم فقل للكنيسة . وان لم يسمع من الكنيسة فليكن عندك كالوثنى والعشار • الحق أقول لكم كل ما تربطونه على الأرض يكون مربوطا فى السماء • وكل ما تحلونه على الأرض يكون محلولا فى السماء » (مت ١٨ : ١٧ و ١٨) وبناء على هذه المواعيد أسس الرب هذا السر بعد قيامته عندما ظهر لتلاميذه وقال لهم « سلام لكم • كما أرسلنى الآب أرسلكم أنا • ولما قال هذا نفخ وقال لهم اقبلوا الروح القدس من غفرتم خطاياه تغفر له • ومن أمسكتم خطاياه أمسكت » (يو ٢٠ : ٢١ - ٢٣) فيتضح من هذه النصوص الالهية أن الرب يسوع منح تلاميذه وخلفاءهم سلطانا أن يحلوا الخطايا ويربطوها ، وان يتركوها ويمسكوها بقوة روح الله القدس • وأن يعلنوا غفران الخطايا للبشر •

الفصل الثانى

استعمال هذا السر فى الكنيسة

قد نشأت الكنيسة منذ العصر الرسولى وهى تستعمل وتمارس هذا السر ، وقد حفظه وعلم به جميع آباء الكنيسة بكل تدقيق • فقد ورد فى قوانين الرسل هكذا أن كل أسقف أو قسيس لا يقبل من يرجع عن خطيئته بل يطرده يقطع لأنه يحزن المسيح القائل يصير فى السماء فرح بخاطىء يتوب » (قانون ٥٢) وورد أيضا فى أوامر الرسل تذكير المتقدمى الكنيسة بأنهم أؤتمنوا على سلطان الحل والربط ، واشارة الى الوجوه التى بها يفحصون الخطاة ويرشدون التائبين ، وفى الوقت نفسه أوصت المؤمنين بأن « وقروهم (الآباء الروحيين) وأكرموهم وقدموا لهم جميع أنواع الكرامة ، لأنهم أخذوا من الله سلطان الحياة والموت بأن يحاكموا الخطاة ويحكموا بموت نار أبدى ، وأن يحلوا الراجعين عن خطاياهم » (راجع كتاب ٢ : ١١ و ١٢ و ١٥ و ١٦ وفصل ٣٦ ـ ١٠ : ٤٨) وقد مارس الرسل أنفسهم هذا السلطان كما يتضح مما جاء فى سفر أعمال الرسل (١٩ : ١٨) « وكان كثيرون من الذين آمنوا يأتون مقرين ومخبرين بأفعالهم » •

وقد أستعمل بولس الرسول هذا السلطان مع المختلط بالدم فى كورنثوس حيث حرمه وفرزه من الكنيسة ، ولما أثمر فيه العلاج عاد وحله من قصاصه وأعاده الى الكنيسة (راجع ٢ كو ٢ : ٥ ـ ١١) •

وقد اعترف جميع آباء الكنيسة صراحة بهذا التعليم فقد قال القديس كبريانوس « ان هؤلاء قبل أن يتوبوا عن خطاياهم بانسحاق قلب وبساطة وقبل أن يعترفوا أمام كهنة الله العلى ويطهروا ضمائرهم ، ويطلبوا من الكهنة علاجات خلاصية لجراحهم الروحية ، ويستعطفوا الرب على الاهانة التى أهانوا بها ايمانه العديم العيب كانوا يتجاسرون بلا حياء أن يشتركوا بجسد الرب ودمه ••• فأطلب اليكم أيها الأحباء أن تعترفوا بخطاياكم ما دمتم فى الحياة الحاضرة ، حيث الصفح عن الخطايا الممنوح من الكهنة مقبول ومرضى عند الله أيضا » (فى الساقطين ٢٨ و ٢٩) وقال القديس أثناسيوس « كما أن المعمد يستنير بنعمة الروح القدس ، هكذا بواسطة الكاهن ينال التائب الغفران بنعمة المسيح » (ضد النافاتيين) وقال القديس باسيليوس الكبير « ان الاعتراف بالخطايا للمؤتمنين على تدبير أسرار الله ضرورى ، لأن الذين كانوا

يندمون قديما نرى أنهم هكذا صنعوا نحو القديسين وقد كتب فى الانجيل أنهم كانوا يعترفون بخطاياهم ليوحنا المعمدان • وفى أعمال الرسل انهم كانوا يعترفون للرسل الذين كانوا يعمدون منهم » (قوانينه المختصرة جواب على سؤال ٢٨٨) وقال القديس يوحنا ذهبى الفم « لأن ساكنى الأرض والقاطنين فيها قد سمح لهم أن يسوسوا ما فى السموات ، وأخذوا سلطانا لم يعطه الله لا للملائكة ولا لرؤساء الملائكة ، لأنه لم يقل لأولئك كل ما تربطونه على الأرض يكون مربوطا فى السماء ، وكل ما تحلونه على الأرض يكون محلولا فى السماء ••• ثم ان للمتسلطين سلطانا فى الأرض أن يربطوا ولكنهم يربطون أجسادا فقط ، وأما هذا الرباط فانه يمس النفس عينها ، ويجتاز السموات ، وما يعمله الكهنة تحت يثبته الله فوق ، ويؤيد السيد رأى العبيد (١) » (فى الكهنوت خطاب ٣ : ٤ و ٥) وقال أيضا « أى سلطان يمكن أن يكون أعظم من هذا السلطان ؟ ان الآب أعطى الحكم كله للابن وأرى أن هؤلاء تسلموه كله من الابن ••• وقد كان لكهنة اليهود سلطان أن يطهروا برص الجسد ، وبالأحرى لم يكونوا يطهرونه بل يفحصون المعتوقين منه ، وأنت تعلم كم كان سلطانهم وقتئذ مشتهى • ولكن هؤلاء قد نالوا سلطانا لا على برص جسدانى بل على الدنس النفسانى ، ولا أن يفحصوه بعد التطهير بل أن يطهروه تماما » (الكهنوت خطاب ٣ : ٥ و ٦) وقال القديس امبروسيوس « من يستطيع أن يترك خطايا الا الله وحده والذين أعطاهم هو هذا السلطان » (جزء ٥ : ١٣) وقال « ان هذا الحق أعطى للكهنة وحدهم » (التوبة ١ : ٢) وقال « ان البشر يتممون سر التوبة لغفران الخطايا من دون أن يكون لهم سلطان فى ذلك بأسمهم ، وانما يتممونه بالاسم الممجد اسم الآب والابن والروح القدس ، فهم يطلبون والله يعطى وعلى البشر الطاعة هنا ومن الله الهبة العظيمة » (فى الروح القدس ٣ : ٨) وقال القديس كيرلس الاسكندرى « ان المتوشحين بالروح القدس يتركون الخطايا أو يمسكونها على نوعين كما أرى : اما بأنهم يدعون الى المعمودية الذين أقتضى نوالهم اياها حسن سلوكهم وخبرتهم فى الايمان ، واما بأنهم يمنعون البعض ويحجبونهم عن النعمة الالهية ، لأنهم لم يصيروا بعد مستحقين لها • أو على وجه آخر أيضا يتركون الخطايا ويمسكونها ، وذلك اما بقصاصهم أبناء الكنيسة عندما يخطئون واما بمسامحتهم اياهم عندما يندمون » (تفسير يوحنا ٢٠ : ٢٣) وقال القديس أغسطينوس « ان الخطية اذا فعلها موعوظ تغسل بالمعمودية ، واذا فعلها معتمد تترك بالتوبة » •

ويقول أخيرا ان هذا التعليم قد أجمعت عليه جميع الكنائس الرسولية شرقا وغربا ، وهذا الاتفاق العام دليل على أنه تعليم رسولى مارسته الكنيسة

---

(١) يقصد بالعبيد : الكهنة الذين يؤيد الله سلطانهم فى الحل والربط •

الرسولية منذ انشائها ، والتاريخ يشهد أيضا بهذه الحقيقة . أضف الى ذلك أن الكنيسة البروتستانتية التى أنكرت هذا التعليم تسلم به فى كتبها ، فقد جاء فى كتاب نظام التعليم فى علم اللاهوت القويم ما نصه : « الكنائس اللوثرية والأسقفية تستحسن الاعتراف السرى للراعى فى بعض الأحوال . وجميع الانجيليين يرفضون الحلة الكهنوتية الا نظير تصريح قانونى للتائبين برحمة الله الغافرة » (جزء ١ صحيفة ١١٧) وجاء فى كتاب الصلاة العامة للكنيسة الأسقفية ما نصه « وهنا يحث القس (الانسان) المريض على الاقرار بخطاياه وبعد الاقرار يحله القس على هذا الوجه : ربنا يسوع المسيح الذى ترك لكنيسته سلطانا على أن يحلوا جميع التائبين المؤمنين به حقا ، ليغفر لك خطاياك برحمته العظيمة ، وأنا بسلطانه الذى فوض الى أحلك من جميع خطاياك باسم الآب والابن والروح القدس آمين » (صحيفة ٢٧٩) .

الفصل الثالث

شروط التوبة

للتوبة أربعة شروط :

١ – انسحاق القلب وندامته على الخطايا السالفة ·

٢ – عزم ثابت على اصلاح السيرة ·

٣ – ايمان وطيد بالمسيح يسوع ورجاء فى تحننه ·

٤ – اعتراف شفوى بالخطايا أمام الآب الروحى ·

فالشرط الأول : وهو انسحاق القلب ضرورى جدا ، وهو شرط جوهرى لازم للتوبة الحقيقية · فان على التائب حقيقة أن يشعر بثقل خطاياه ويعترف بنتائجها المهلكة ، ويعترف أنه أقترف أمام الله جريمة استحق بها ابتعاد الله عنه · وعليه أن يحزن ويتوجع لأنه أغضب الله وتعدى على شريعته واذا فقد هذا الانسحاق وهذه الندامة فليست هناك توبة حقيقية بل رياء ظاهرى · ولهذا لما طلب الله من الاسرائيليين أن يرجعوا اليه بالتوبة قال لهم « ارجعوا الى بكل قلوبكم وبالصوم والبكاء والنوح . ومزقوا قلوبكم لا ثيابكم وأرجعوا الى الرب الهكم لأنه رؤوف رحيم بطىء الغضب وكثير الرأفة ويندم على الشر » (يوئيل ٢ : ١٢ و ١٣) وقال المرنم « ذبائح الله هى روح منكسرة القلب المنكسر والمنسحق يا الله لا تحتقره » (مز ٥١ : ١٧) · ولما أراد المخلص أن يبين فى العهد الجديد علامات التوبة الحقيقية فى الراجعين ، أوضح ذلك فى مثل الابن الشاطر الذى حكم على نفسه بأنه غير مستحق أن يكون ابنا ورجع الى أبيه متخشعا منسحقا قائلا « أخطأت الى السماء وقدامك · ولست مستحقا بعد أن أدعى لك ابنا . اجعلنى كأحد أجراك » (لو ١٥ : ١٨ و ١٩) ومثل العشار الذى تواضع بحزن شديد وتنهدات عميقة طالبا رحمة الله قائلا « اللهم ارحمنى أنا الخاطىء » (لو ١٨ : ١٣) وكما قال بولس الرسول « لأن الحزن الذى بحسب مشيئة الله ينشىء توبة لخلاص بلا ندامة » (٢ كو ٧ : ١٠) · وبناء على هذا التعليم اعترف جميع آباء الكنيسة بأن الانسحاق والندامة على الخطية خاصة جوهرية للتوبة · وكتب القديس كبريانوس هكذا : « اخوتى الأحباء : هلموا الى الندامة والتخشع بنفس منسحقة وافحصوا خطاياكم واعرفوا ثقل الأوزار بضمير حسن وافتحوا عين قلوبكم لتدركوا نقائصكم · وبقدر ما نكثر من الخطايا نحن مديونون أن ننوح على الخطايا »،

(فى الساقطين ٢٥) وقال القديس يوحنا ذهبى الفم « ان كان بكاء بطرس محا خطية عظيمة جداً ، فأنت اذا بكيت، كيف لا يمحو الله خطيتك ؟ لأن انكار ذاك لسيده لم يكن جريمة صغيرة بل عظيمة وقوية . ومع ذلك فقد محت الدموع الخطية . فأبك اذن أنت أيضا على خطيتك ، ولكن لا يكونن بكاؤك على حسب العادة وفى الظاهر فقط بل أبك بمرارة مثل بطرس وقدم ينابيع دموعك من داخل العمق حتى يتحنن عليك السـيد ويصفح عن ذنبك » (فى التوبة ٣ : ٣) وقال القديس باسيليوس « يجب على التائبين أن يبكوا بمرارة وأن يظهروا من قلوبهم سائر علامات التوبة » (فى أدبياته ١ : ٣) وقال أيضا « ان التوبة تدعو الانسان أولا أن يصرخ فى نفسه ويسحق قلبه ثم أن يصير قدوة صالحة للآخرين ويجعل طريقة توبته مسموعة ويشهرها » (شرح اشعياء ١٥) .

ولا يجب أن يكون هذا الانسحاق ناتجا عن الخوف من العقاب ، بل ينبغى أن يكون انسحاق القلب ناشئا عن شعور بأنه أغضب الله المحسن اليه ، لأن الحزن الأول هو حزن العبيد ، أما النوع الثانى فهو شعور الأبناء . قال القديس يوحنا ذهبى الفم « تنهد عندما تخطىء لا لأنك مزمع أن تعذب لأن هذا ليس شيئا ، بل لأنك خالفت سيدك الوديع الذى يود ويصبو الى خلاصك حتى أنه أعطى ابنه عنك ، فلهذا تنهد واصنع هكذا دائما لأن هذا هو اعتراف» (مقالة ٧ : ٥ على ٢ كو) .

والشرط الثانى : الذى هو العزم الثابت على اصلاح السيرة هو نتيجة ضرورية للانسحاق على الخطية . ولا فائدة للتوبة ولا معنى لها بدون هذا الشرط . ولذلك لما نادى يوحنا المعمدان بالتوبة ورأى كثيرين من الفريسيين والصدوقيين يأتون الى معموديته قال لهم « يا أولاد الأفاعى من أراكم أن تهربوا من الغضب الآتى . فاصنعوا أثمارا تليق بالتوبة » (مت ٣ : ٧ و ٨) وقال السيد للمخلع الذى شفاه « ها أنت قد برئت . فلا تخطىء أيضا لئلا يكون لك أشر » (يو ٥ : ١٤) وقال للخاطئة « ولا أنا أدينك . اذهبى ولا تخطئى أيضا » (يو ٨ : ١١) وقال بطرس الرسول « توبوا وارجعوا لتمحى خطاياكم لكى تأتى أوقات الفرج من وجه الرب » (أع ٣ : ١٩) وفى سفر الرؤيا وجه السيد الخطاب الى ملاك كنيسة أفسس قائلا « فاذكر من أين سقطت وتب واعمل الأعمال الأولى والا فانى آتيك عن قريب وأزحزح منارتك من مكانها ان لم تتب » (رؤ ٢ : ٥) وقال القديس باسيليوس « لأن ليس الذى يقول أخطأت ويلبث مصرا على الخطية يعترف . لا . بل الذى يجد (١) خطيئته ويبغضها كما قال الزبور . فما الفائدة للضعيف من اجتهاد

(١) كلمة « يجد » تأتى فى اللغة بمعنى يقطع ويوقف .

الطبيب اذا كان هو يجلب ما يفسد حياته ؟ هكذا لا فائدة من الصفح عن الظالم ان لم يكف عن ظلمه ، ولا فائدة لمن يقول انه ترك الرجاسة ويبقى فى نجاسته • فبدون المسامحة من الله لا يمكن للانسان أن يبتدىء بالحياة الفاضلة • ولهذا قد أراد مدبر حياتنا الحكيم من الذى امتحن ببعض الخطايا وعزم على السلوك بالسيرة المعافاة أن يضع حدا للأمور الماضية يحددها به ، ويجعل لنفسه بدءا جديدا بعد الخطايا كأن حياته قد تجددت بالتوبة • وأما الذى يعترف بخطاياه مرارا ثم يسقط فيها بتواتر فانه يغلق عنه باب تعطفه ويتركه فى اليأس » (على اشعياء ١ : ٥ : ١٤) وقال أيضا « انه لا يكفى للتائبين غفران الخطايا وحده للحصول على الخلاص بل من الضرورى أن تكون لهم أثمار لائقة بالتوبة » (أدبيات ١ : ٤) •

والشرط الثالث : هو الايمان الثابت بالمسيح والرجاء الوطيد فى تحننه لأن « ليس بأحد غيره الخلاص • لأن ليس اسم آخر تحت السماء قد أعطى بين الناس به ينبغى أن نخلص » (أع ٤ : ١٢) و « له يشهد جميع الأنبياء أن كل من يؤمن به ينال باسمه غفران الخطايا » (أع ١٠ : ٤٣) وقال بولس الرسول « فاذ قد تبررنا بالايمان لنا سلام مع الله بربنا يسوع المسيح الذى به أيضا قد صار لنا الدخول بالايمان الى هذه النعمة التى نحن فيها مقيمون ونفتخر على رجاء مجد الله » (رو ٥ : ١ و ٢) « فمن ثم يقدر أن يخلص أيضا الى التمام الذين يتقدمون به الى الله اذ هو حى فى كل حين ليشفع فيهم » (عب ٧ : ٢٥) •

والشرط الرابع : هو الاعتراف الشفوى بالخطايا أمام الآب الروحى وهو نتيجة طبيعية تقتضيها وظيفة الكاهن المعطى له من السيد المسيح سلطان حل الخطايا وربطها فى هذا السر • لأن السيد قال صريحا « اقبلوا الروح القدس • من غفرتم خطاياه تغفر له ومن أمسكتم خطاياه أمسكت » فكيف يمكن للكهنة أن يغفروا الخطايا أو يمسكوها دون أن يعلموها ويفحصوها ؟ وكيف يعرفونها بدون الاعتراف بها ؟ وكيف يتأتى للقاضى أن يحكم فى قضية لم تعرض عليه ولم يعرفها ؟ فالسلطان المعطى من السيد المسيح لتلاميذه ولخلفائهم يقتضى ضرورة اعتراف التائب واظهار خطيته لينال الصفح عنها • وبناء على ذلك يعتبر الاعتراف بالخطايا لرعاة الكنيسة مؤسسا من السيد المسيح ، كما أن سلطان الحل والربط ممنوح منه له المجد • حتى ان من ينكر الاعتراف يضطر أن ينكر سلطان الحل والربط ، وهذا مخالف لتعليم الانجيل الواضح •

الفصل الرابع

الاعتراف

الاعتراف فى اللغة هو الاقرار بالشيء والتصريح به علنا • وفى اصطلاح الكنيسة هو اقرار الخاطيء بخطاياه أمام كاهن الله اقرارا مصحوبا بالندامة والتأسف والعزم الثابت على ترك الخطية وعدم الرجوع اليها ، لينال الحل منه بالسلطان المعطى له من الله القائل « من غفرتم خطاياه تغفر له ومن أمسكتم خطاياه أمسكت » •

فالاعتراف اذن جزء من سر التوبة • ومن المعلوم أن الأسرار هى بركات ومنح بها ننال نعما غير منظورة تحت مادة منظورة • فالعمل المنظور فى سر التوبة هو توبة الخاطيء وندامته واعترافه وسماعه الحل من الكاهن . أما النعمة غير المنظورة فهى غفران خطاياه وسلامه مع الله وانعتاقه من عقاب الخطية ونيله الرجاء بالحياة الأبدية •

أما وجوب الاعتراف واثباته فيظهر من الأدلة الآتية :

أولا : من الطبيعة • فان الانســان فى كل أدوار حياته يحتاج الى من يواسيه فى أموره ، فتراه يشكو همومه وأتعابه وما يضايق نفسه الى صديق أو حبيب له ، طلبا لمشورة أو تنفسيا لكرب ، أو تخفيفا لألم ، أو مشاطرة له فيما يشعر به • وما أحسن أن يكون للانسان أب روحى ومعلم مرشــد يرجع اليه فى أموره الروحية لارشاده وهدايته • أضف الى ذلك أن الانسان اذا أخطأ ضد انسان آخر وأعترف له بخطأه وطلب سماحه استراح ضميره وتصالح مع خصمه ، وكانت النتيجة سلاما وهدوءا فى الخارج وفى الداخل • واذا تأملنا فى التوراة نجد أن آدم لما أخطأ مهد الله له طريق الاعتراف بخطأه وسأله « هل أكلت من الشجرة التى أوصيتك أن لا تأكل منها » (تك٣:١١) قال القديس غريغوريوس والقديس أغسطينوس « ان الله تعالى سأل الانسان الأول والمرأة الأولى قبل أن يحكم عليهما لما خالفا ناموسه ، وذلك ليقدم لهما سببا للاقرار بذنبهما فينالا الغفران باعترافهما الذليل الوضيع » وهكذا قل عن سؤال الله لقايين « أين هابيل أخوك » فلو أنه اعترف بذنبه وتاب واستغفر لنال الصفح من الله •

ثانيا : من ناموس موسى . ففى شريعة موسى كان الاعتراف جزءا ضروريا من توبة الخاطيء حسب قول الرب « اذا أخطأ أحد أو اذا مس أحد شيئا نجسا أو اذا حلف • فان كان يذنب فى شيء من هذه يقر بما قد أخطأ به-

ويأتى الى الرب بذبيحة لاثمه ٠٠ فيكفر عنه الكاهن من خطيته الخ » (لا ٥ : ١ ــ ٦) وقوله « يفنون بذنوبهم ٠٠٠ وبذنوب آبائهم معهم يفنون ٠ لكن ان أقروا بذنوبهم ٠٠ أذكر ميثاقى مع يعقوب ٠ الخ » (لا٢٦:٣٩ـ٤٥) وقل لبنى اسرائيل اذا عمل رجل أو امرأة شيئا من جميع خطايا الانسان وخان خيانة بالرب فقد أذنبت تلك النفس ٠ فلتقر بخطيتها التى عملت » (عد ٥ : ٦ و ٧) « وتأتى الى الكاهن الذى يكون فى تلك الأيام وتقول له اعترف اليوم للرب الهك » (تث ٢٦ : ٣) و « من يكتم خطاياه لا ينجح ومن يقر بها ويتركها يرحم » (أم ٢٨ : ٢٣) وقد قال أيوب مبينا اعترافه « ان كنت قد كتمت كالناس ذنبى لاخفاء اثمى فى حضنى » (٣١:٢٣)راجع أيضا (لا ١٦ : ٢١ ، ١ مل ٨ : ٣٨ ، عز ٩ ، نح ١ : ٦ ، ٩ : ٢ ، مز ٣٢ : ٥ ، اش ٣٨ : ١٧ ، ٥٩ : ١٢ ، ٦٤ : ٦ ، ار ١٤ : ١٠ ، دا ٩ : ٤ و ٢٠) حيث تجد أدلة واضحة على الاعتراف ٠ ألا ترى أن يشوع بن نون قال لعخان « أعترف للرب وأخبرنى » (يش ٧ : ١٩) وهذا دليل على أن الاعتراف لله يجب أن يكون على يد رجاله ، كما أعترف داود الملك أمام ناثان النبى وقال « قد أخطأت الى الرب ٠ فقال ناثان لداود ٠ الرب أيضا قد نقل عنك خطيتك ٠ لا تموت » (٢ صم ١٢ : ١٣) فهنا أعتراف للرب على يد نبيه يعقبه تصريح واعلان بنقل خطيته ٠

وقد كان الاعتراف عند بنى اسرائيل يقرن مع الذبيحة وصلاة الكاهن عن الخطية ٠ قال الربى ابن عزرا « ان الاعتراف لازم وانهم عندما يقدمون الذبيحة اذا لم يتوجعوا ويعترفوا اعترافا مرتبا مبينا الخطايا لا تكون للذبائح قوة وفائدة لهم ، وجاء فى التلمود « انه يظهر من التقليد أن الخاطىء يلزمه أن يوضح فى الاعتراف جميع أعماله » ٠

ولهذا السبب لما جاء يوحنا المعمدان مناديا ببشارة التوبة لاقتراب ملكوت الله والاستعداد له ، جاء اليه كثيرون وأعتمدوا منه فى الأردن معترفين بخطاياهم (مت ٣ : ٥) ٠

ثالثا : من العهد الجديد : فان الرب يسوع قبل أن يؤسس سر التوبة وعد به عندما قال للقديس بطرس « وأعطيك مفاتيح ملكوت السموات ٠ فكل ما تربطه على الأرض يكون مربوطا فى السموات ٠ وكل ما تحله على الأرض يكون محلولا فى السموات » (مت ١٦ : ١٩) وكذلك لما أعطى كنيسته هذا السلطان بقوله « وان لم يسمع منهم فقل للكنيسة ٠ وان لم يسمع من الكنيسة فليكن عندك كالوثنى والعشار ٠ الحق أقول لكم كل ما تربطونه على الأرض يكون مربوطا فى السماء ٠ وكل ما تحلونه على الأرض يكون محلولا فى السماء » (مت ١٨ : ١٧ و ١٨) وبعد قيامته ثبت هذا السر بقوله لتلاميذه بعد ما نفخ فى وجوههم « اقبلوا الروح القدس من غفرتم خطاياه تغفر له ٠ ومن أمسكتم خطاياه أمسكت » (يو ٢٠ : ٢٢ و ٢٣) ومن هذا

القول يتضح أن السيد له المجد أعطى تلاميذه وخلفاءهم سلطان الحل والربط لاعلان غفران الخطايا أو مسكها • وكيف يمكنهم أن يربطوا الخطايا أو يحلوها ويعلنوا غفرانها الا بعد الاقرار والاعتراف بها علنا ؟ فان الخطايا فى الغالب خفية سرية فكيف يغفرونها وهى مكتومة ؟ هل أرسل السيد تلاميذه ليكونوا جواسيس يتجسسون على خطايا الناس ويغفرونها دون علمهم ؟ حاشا • بل جعلهم قضـاة وأطبـاء للنفوس ، والقاضى لا يقدر أن يحكم فى دعوى لم يسمعها وينظر فيها ويفحصها ، كما أن الطبيب لا يستطيع أن يعالج مريضا لم يعرض عليه ويفحصه فحصا دقيقا • ولذلك نرى أن الذين كانوا يتوبون ويؤمنون كانوا يأتون للرسل مقرين ومخبرين بأفعالهم (أع ١٩ : ١٨) وقد فسر القديسان باسيليوس ويوحنا ذهبى الفم هذا النص بأنه الاقرار بالخطايا أمام الكاهن وجاء فى رسالة يعقوب الرسول عند كلامه عن سر مسحة المرضى قوله « أمريض أحد بينكم فليدع قسوس الكنيسة فيصلوا عليه ويدهنوه بزيت باسم الرب وصلاة الايمان تشفى المريض والرب يقيمه وان كان قد فعل خطية تغفر له • اعترفوا بعضكم لبعض بالزلات وصلوا بعضكم لأجل بعض لكى تشفوا » (يع ٥ : ١٤ ـ ١٦) • قال القديس أغسطينوس فى تفسير هذه الآية « ليس المقصـود أن يعترف الـكهنة على العلمـانيين كما يعترف هؤلاء لهم فان هذه الجملة لا توجب دائما حصـول المشاركة بين كل من الطرفين ـ أى لا يلزم منها اعتراف الكهنة للشعب ، بل هى على حد قولك علموا بعضكم بعضا وعالجوا أحدكم الآخر وليسعف الواحد منكم صاحبه • بمعنى أن العالم يعلم الجاهل والطبيب يعالج المريض والقوى يشدد الضعيف وقس على ذلك » ومن هذا يتضح أن البعض الذى نعترف له هو كهنة الله الأمناء ، الذين يدعوهم المريض لدهنه بالزيت والدعاء له من الله • قال يوحنا الرسول « ان قلنا انه ليس لنا خطية نضل أنفسنا وليس الحق فينا • ان اعترفنا بخطايانا فهو أمين وعادل حتى يغفر لنا خطايانا ويطهرنا من كل اثم • ان قلنا اننا لم نخطىء نجعله كاذبا وكلمته ليست فينا » (يو ١ : ٨ ـ ١٠) •

رابعا : من نظام الكنيسة وقوانينها ، فانك اذا راجعت قوانين الكنيسة وجدتها ملآنة بالادلة الصريحة على وجوب الاعتراف مع التوبة وقبل تناول الأسرار المقدسة • وجاء فى القوانين المنسوبة للرسـل القواعد التى تذكر متقدمى الكنائس بأنهم أؤتمنوا على سلطان الحل والربط ، وتبين لهم الوجه الذى به يفحصون الخطايا وكيف يرشدون التائبين ، وتوصى المؤمنين أن يكرموا آباءهم الروحيين حيث تقول « وقروهم وأكرموهم وقدموا لهم جميع أنواع الكرامة لأنهم أخذوا من الله سلطان الحياة والموت بأن يحاكموا الخطاة ويحلوا الراجعين من الخطايا وغير ذلك » • ولا يسعنا المقام أن نأتى بما جاء فى قوانين المجامع فان الشواهد على ذلك أكثر من أن تحصى •

خامسا : شهادة الكتب الطقسية : فان لدينا كتبا قديمة يرجع تاريخها الى أكثر من ألف سنة فضلا عن الكتب الأكثر قدمية من هذه ولا تزال محفوظة بالمتاحف ناطقة بنظام الكنيسة فى شرح سر التوبة والاعتراف ، وهى دليل صادق على ما كان جاريا فى الكنيسة منذ العصور الأولى ٠

سادسا : شهادة التاريخ : فان التاريخ الكنسى يشهد بأن الاعتراف كان جاريا على وجهين : أحدهما علنى والآخر سرى ، وعلى كلا الوجهين كان غفران الخطايا يعطى من الكهنة وحدهم الذين لهم الحق فى التصريح به ٠ ومع الزمان تنازلت الكنيسة عن الاعتراف العلنى رفقا بأبنائها وحصرته فى الاعتراف السرى ٠

وقد شهد أوسابيوس المؤرخ الكنسى أن الاعتراف كان دارجا فى الكنيسة فى عصر الرسل بقوله « كان تلاميذ مخلصنا أشداء يتركون فى نفوس سامعيهم مناخس تدخل تعاليمهم فى صميم أفئدتهم حتى يبرزوا الخفايا من مطاميرها ويعترفوا جهارا بقبائح سيرتهم الماضية » ٠ وروى أن الثلاثة الذين اتهموا القديس نرسيس ، مات اثنان منهم بتعاسة ، والثالث اعترف بكل ما جرى فى التهمة وصنع توبة صارمة ٠ وروى أن القديس فانيانوس منع فيلبس القيصرى عن التقدم الى الأسرار قبل أن يعترف بآثامه وينضم الى من سقطوا ودخلوا مصاف التائبين ٠ وروى أيضا أن سرابيون لما غلبه الاضطهاد ودنا من الموت دعا قسا ليمنحه احسان المصالحة ٠ وذكر سقراط المؤرخ أن امرأة شريفة تقدمت الى الكاهن المعرف واعترفت بما ارتكبت من الخطايا بعد المعمودية بالتفصيل ٠ وقد مدح الشماس بولنيوس القديس أمبروسيوس وغيرته فى سماع الاعترافات ٠ وغير ذلك مما لا يحصى من الأخبار التاريخية الدالة على وجوب الاعتراف فى سر التوبة ، وبالأخص قبل تناول الأسرار المقدسة ٠ وقد أثبت ذلك موسهيم المؤرخ البروتستانتى فى تاريخه (كتاب ١ قرن ١ قسم ٢ فصل ٤) ٠

سابعا : شهادة آباء الكنيسة : فان جميع الآباء منذ الجيل الأول يشهدون شهادة حقة للاعتراف ، ومن أقوالهم وتعاليمهم يتضح لنا أن الاعتراف كان جاريا فى أيامهم ، وكان قاعدة من قواعد ايمان الكنيسة واليك بعض أقوال أشهرهم فى العصور الأولى :

ففى **الجيل الأول** : قال القديس ديوناسيوس الاريوباغى تلميذ بولس الرسول فى ميمره على الراقدين « ان صلوات القديسين تنفع جدا ، وكذا من تقدم الى رجل بار واعترف له بآثامه فانه ينال صفحا كأنه من الله ، وتتمحص خطاياه وينال المواهب الالهية التى يحتاجها ، لأن ذلك شرع فى الأحكام الالهية أن يمنح الله المواهب ويعطيها بتوسط الآباء » وقال القديس برنابا فى مؤلف آخر فى الرسالة المشهورة التى كانت فى الأجيال الأولى كثيرة الاعتبار ما نصه

« اعترف بخطاياك ولا تقدم على الصلاة وأنت فى سوء الضمير فهذا طريق الخلاص » وقال القديس اكليمنضس الرومانى تلميذ بطرس الرسول فى رسالته الأولى الى أهل كورنثوس « الأولى بالناس أن يعترفوا بآثامهم وخطاياهم من أن تتصلب قلوبهم » وقال فى رسالته الثانية « ما دمنا فى هذا العالم فلنرعو بكل قلبنا عن الشرور التى وصفناها فى الجسد ليخلصنا الرب ما دام لنا زمان للتوبة . فاذا خرجنا من العالم لم يبق لنا أن نعترف هناك أو نتوب » .

وفى **الجيل الثانى** : روى القديس ايريناوس أن بعض أتباع فالنتينوس أفسدوا النساء اللواتى كن يتعلمن منهم هذا التعليم ... وبعد ارتداد النساء الى بيعة الله أعترفن بهذا الاثم مع باقى ضلالهن . وروى أيضا أن مرقس الساحر مكر بأمرأة شماس فارتدت فبقيت مدة حياتها لا تكف عن الأعتراف بالاثم الذى اقترفته ماحية بدموعها الوصمة التى أنزلها بها الساحر .

وفى **الجيل الثالث** : قال العلامة ترتوليانوس « آن كثيرين ينتبهون الى الخجل أكثر من الخلاص فيهربون من هذا العمل (أى الاعتراف) سترة لهم أو يؤخرونه من يوم الى يوم كمن أصابه مرض فى الأعضاء المستحى منها فأخفى على الأطباء مرضه فيباد بخجله ... فاذا أخفينا نفوسنا عن معرفة الناس فهل تخفى على الله . وهل الأولى لنا أن نهلك وذنوبنا مخفية من أن نحل وهى مكشوفة فى التوبة » وقال « واذا لم يخجل الخاطىء من أن يبين خطيته لكاهن الرب ويستمد العلاج بحسب قوله . قلت اعترف للرب باثمى وأنت تغفر شر قلبى » وقال « كما أن من بقى فيهم الطعام غير مهضوم أو تثقلت معدتهم بخلط أو بلغم ، فاذا تقيأوا استراحوا . كذلك من أخطأوا وأخفوا الاثم فيهم تضايقوا داخلا وخنقهم بلغم الخطية وخلطها . ولكن ان شكا أحد نفسه فبشكايته واعترافه يتقيأ الاثم وتزول علة المرض كلها فلا خطر يتحرز من يلزمك أن تعترف بخطيتك (١) وامتحن أولا الطبيب الذى تعرض عليه مرضك » . وقال القديس كبريانوس « كم يكون أعظم ايمانا وأحسن خوفا من يعترفون بتوجع وبساطة أمام كهنة الله بما افتكروا به من الاثم منقين ضميرهم ... الى أن قال ... فليعترف كل منكم أيها الأحباء باثمه ما دام الذى أثم (أى الأثيم) فى هذا العالم ، وما دام ممكنا قبول اعترافه وما دامت المغفرة بواسطة الكهنة مقبولة عند الله » .

وقال العلامة أوريجانوس المصرى « يوجد ترك آخر للخطايا مكرب جدا وصعب وممكن الحصول عليه بالتوبة وذلك عندما يبل الخاطىء فراشه بدموعه وعندما تصير دموعه له خبزا نهارا وليلا وعندما لا يخجل بأن يكشف خطيته أمام كاهن الله طالبا منه الشفاء . أو عندما يقول بعد الخطية قد عرفت خطيتى

---

(١) (يتحرز من يلزمك أن تعترف له) يقصد من تعترف له بالخطايا لا تخافه لأنه لا خطر منه ولا شر داخله بل هو حرز للرحمة .

ولم أخف اثمي . قلت أعترف للرب بذنبي . فاذا عملنا هكذا أو كشفنا خطايانا ليس لله فقط بل للذين يستطيعون أيضا أن يشفوا جراحنا ومآثمنا تمحى جهالاتنا من الله الذى قال : قد محوت كغيم ذنوبك وكسحابة خطاياك » .

وفى الجيلين الرابع والخامس : قال القديس أثناسيوس الرسولى بابا الاسكندرية « كما أن المعتمد من الكاهن يستنير بنعمة الروح القدس هكذا من يعترف بخطاياه بواسطة الكاهن يحظى بالغفران بنعمة المسيح » وقال القديس كيرلس الأورشليمى « ان الزمان الحاضر زمان الاعتراف فاعترف بما ارتكبت قولا وفعلا ليلا ونهارا » وقال القديس باسيليوس « من اللازم الاعتراف بالخطايا لمن سلم اليهم توزيع أسرار الله » وقال القديس يوحنا ذهبى الفم « لأن ساكنى الأرض والقاطنين فيها قد سمح لهم أن يسوسوا ما فى السموات وأخذوا سلطانا لم يعطه الله لا للملائكة ولا لرؤساء الملائكة . لأنه لم يقل لأولئك كل ما تربطونه على الأرض يكون مربوطا فى السماء ، وكل ما تحلونه على الأرض يكون محلولا فى السماء ، ثم ان للمتسلطين فى الأرض سلطانا أن يربطوا ولكنهم يربطون أجسادا فقط وأما هذا الرباط فانه يمس النفس عينها ويجتاز السموات . وما يعمله الكهنة تحت يثبته الله فوق ويؤيد السيد رأى العبيد » (يقصد الكهنة) .

ثامنا : شهادة الاتفاق العام . فان جميع الكنائس الشرقية والغربية فضلا عن افتراقها واختلافها بعضها عن بعض فى أمور كثيرة فانها متفقة تمام الاتفاق على جوهر الأسرار السبعة ومن جملتها سر التوبة والاعتراف ، وهذا الاتفاق دليل صادق على صحة هذا التعليم وقدميته منذ العصر الرسولى .

تاسعا : شهادة الخارجين عن الكنيسة . ونختم بحثنا هذا بشهادة الذين أنكروا الاعتراف وكيف أنهم يستحسنونه . قال لوثيروس فى كتابه سبى بابل « ان الاعتراف السرى يعجبنى كثيرا وهو نافع بل لازم » وقال كلفن فى (كتابه الرسومات ك ٣ رأس ٣) « من كان ضميره معرقلا فى شىء جنى من الاعتراف أحسن ثمرة » وفى قانون الايمان الذى سنه البروتستانت فى أغوسطا قالوا « ان الاعتراف فى الكنائس لم يبطل عندنا » وجاء فى كتاب الصلوات العامة للكنيسة الأسقفية ما نصه « ان كان أحد غير قادر على أن يطمئن باله بهذه الوسيلة فليأت الى أحد خدام كلمة الله ... ثم يفحصه القس هل تاب حقا من خطاياه ... وهنا يحث المريض على الاقرار بخطاياه اقرارا خصوصيا ان لم يكن شعر بأن ضميره قلق لأمر باهظ وبعد الاقرار يحله القس على هذا الوجه . الخ » (صحيفة ٢٧٩) وجاء فى (كتاب نظام التعليم فى علم اللاهوت القويم الجزء الأول صحيفة ١١٧) « ان الكنائس اللوثرية والأسقفية تستحسن الاعتراف السرى للراعى فى بعض الأحوال .

الفصل الخامس

نتائج سر التوبة

نتائج سر التوبة هى :

١ ـ مسامحة الخاطىء ونيله غفران خطاياه (مز ٣٢ : ٥ ، اش ٥٥ : ٧ ، يو ٢٠ : ٢٣ ، ١ يو ١ : ٩) •

٢ ـ محوها وعدم ذكر الله لها (اش ٤٤ : ٢٢ ، حز ١٨ : ٢١ و ٢٢) •

٣ ـ التبرر من الخطية (مز ٥١ : ٢ ، لو ١٨ : ١٤) •

٤ ـ نيل الخلاص والحصول على رجاء الحياة الأبدية (لو ١٩ : ٩ ، ١ كو ٥ : ٥) •

٥ ـ الانعتاق من عقاب الخطية (مت ٣ : ٧ و ١٠ ، لو ١٣ : ٣ ، ٢٣ : ٤٢ و ٤٣) •

٦ ـ المصالحة مع الله ونوال سلامه (رو ٥ : ١ ، أف ٢ : ١٤ ، ٢ كو ٥ : ١٥ ـ ٢١) •

٧ ـ الحصول على رتبة البنوة التى فقدها الخاطىء بخطيته (لو ١٥ : ١٧ ـ ٢٤) •

قال القديس يوحنا ذهبى الفم « ان الآباء الطبيعيين اذا خالف أولادهم أحدا من الرؤساء أو ذوى القدرة فى هذه الحياة لا يستطيعون أن ينفعوهم شيئا • وأما الكهنة فانهم كثيرا ما استعطفوا وصالحوا لا رؤساء وملوكا فقط بل الله نفسه » (فى الكهنوت ٣ : ٦) وقال أيضا « أخطئت ؟ فأدخل الكنيسة وأمح خطيتك • وكما أنك بقدر ما تقع فى الشارع تنهض ، هكذا كلما خطئت تب عن الخطية ولا تيأسن من ذاتك • وان خطئت ثانية فتب توبة ثانية أيضا ولا تسقطن من الرجاء بالخيرات الموعود بها سقوطا كاملا بسبب اهمال. وان كنت فى غاية الشيب وخطئت فأدخل وأندم • لأن هذا المكان هو مستشفى وليس محكمة وهو لا يطلب مجازاة على الخطايا بل يهب صفح الخطايا » (فى التوبة ٣ : ٤) •

الفصل السادس

التأديبات الكنسية

اعتادت الكنيسة منذ ابتدائها أن تفرض على التائب بعض قصاصات تأديبية ، القصد منها تأديب الخاطىء واصلاح حاله وتقويم سيرته ، وفقا لقول الرسول « لأن الذى يحبه الرب يؤدبه ويجلد كل ابن يقبله · ان كنتم تحتملون التأديب يعاملكم الله كالبنين فأى ابن لا يؤدبه أبوه » (عب ١٢ : ٦ و ٧) وقوله « ولكن اذ قد حكم علينا أن نؤدب من الرب لكى لا ندان مع العالم » (١ كو ١١ : ٣٢) وأشهر هذه القوانين هى الصوم الخصوصى علاوة على الأصوام المفروضة على جميع المؤمنين ، وصلوات يقدمها الخاطىء فى مخدعه مع عدد من الركعات ، وتوزيع جزء من ماله صدقة على الفقراء ، وتأخير التناول من الأسرار المقدسة وقتا مناسبا لثقل خطيته ·

وهذه القوانين ما هى الا بمثابة عقاقير روحية تعالج بها أمراض النفس للتهذيب والتقويم ، وذلك طبقا لما فعله الرسول بولس مع المختلط بالدم فى كورنثوس فانه حكم عليه أولا بالفرز من الكنيسة ، فلما أنتجت هذه التأديبات الغرض المقصود منها أرجعه بقوله « مثل هذا يكفيه هذا القصاص الذى من الأكثرين · حتى تكونوا بالعكس تسامحونه بالحرى وتعزونه لئلا يبتلع مثل هذا من الحزن المفرط · لذلك أطلب أن تمكنوا له المحبة » · (٢ كو ٢ : ٦ ــ ٨)

وقد ورد ذكر هذه القوانين فى الأوامر الرسولية وأقوال المجامع وشهد عنها الآبــاء بالأخص القديس ايرينــاوس والقديس كبريــانوس والعــلامة ترتوليانوس · وهذا ظاهر أيضا من الترتيب الذى كانت الكنيسة القديمة جارية عليه من حيث تقسيم التائبين الى :

١ ــ رتبة الباكين الذين لم يكن لهم حق فى حضور الخدم الشريفة بل كانوا يقفون خارج الكنيسة ويتضرعون بدموع الى الداخلين فى الهيكل ليصلوا من أجلهم ·

٢ ــ رتبة السامعين الذين كان مسموحا لهم أن يدخلوا الكنيسة ويقفوا فى موضع خاص بهم ويسمعوا التعليم وكلام الله والصلوات ·

٣ ــ رتبة الراكعين الذين كانوا يقفون مدة أكثر من الأولين ركوعا أمام باب الهيكل ·

٤ ــ رتبة المشتركين الذين كانوا مع المؤمنين فى الصلاة دون أن يتناولوا من الأسرار المقدسة ٠

فهذه التأديبات كان الغرض منها اصلاح حال الخاطىء ليس الا ٠ ولكن كنيسة رومية خالفت هذه الحقيقة اذ تعتبر هذه التأديبات قصاصات حقيقية ، الغاية منها وفاء العدل الالهى الذى أهانه الخاطىء بخطاياه ٠ واليك البراهين التى تثبت صدق تعاليم الكنيســة الأرثوذكســية وبطلان تعليم كنيســة رومية :

أولا : ان بولس الرســول لمـا وضع التأديب على المختلط بالــدم فى كورنثوس قال « يسلم مثل هذا للشيطان لهلاك الجسد لكى تخلص الروح » لكن لما رجع وتاب أرجعه الى الكنيسة ، وظاهر من ذلك أن الغاية من القصاص كانت تأديبه واصلاح نفسه ٠ لا وفاء عدل الله ٠

ثانيا : يظهر من جميع أقوال الآباء أن الغرض من هــذا التأديب هو الاصلاح ولذلك سموه علاما وقصاصا للتقويم وشفاء للخطاة وحفظهم من خطايا جديدة ٠

ثالثا : لو كانت الغــاية من هذه القوانين وفاء العــدل الالهى لكان من الواجب على التائب اتمام قانونه كله بلا نقص . ولكن الآباء لم يكونوا ينتظرون الخاطىء حتى يتمم كل ما فرض عليه من القانون ، بل كثيرا ما كانوا يختصرون وقت التوبة ويعفونه من القانون متى رأوا أن التأديب أنتج نتيجته المطلوبة ٠

رابعا : لو كان الغرض من القانون وفاء العدل الالهى لوجب أن تفرض هذه القوانين على جميع الخطايا بلا استثناء بحسب جرم الخطية ، اذ كل خطية هى مخالفة ومضادة لعدل الله ، والحال أن هذه القوانين لم تفرض الا على الخطايا الثقيلة وهذا مما يدل على أن الآباء لم يقصدوا بها الا تهذيب واصلاح نفس الخاطىء وكسر عجرفته لخلاص نفسه ٠(راجع قانون ١٢ من المجمع المسكونى الأول وقانون ٥ من مجمع أنقره ٠ وقانون ٢٢ من مجمع قرطاجنة) ومؤداها « ان الذى يتعاطى الطب الروحى عليه ملاحظة أخلاق الخاطىء وتصرفه وسلوكه ومدة معالجته حتى اذا كان لا يقاوم الطبيب ولا يزيد قروح النفس بالعقاقير التى تعطى له يعامله بالرحمة التى يستحقها » ٠ « وان تمام الكلام عند الله وعند من أؤتمن على الرئاسة الرعوية هو أن يرد الخروف الضال ويشفيه من الجرح الذى جرحه اياه الثعبان ولا يدفعه فى مهواة اليأس لئلا يهلك ولا يرخى له العنان لئلا يزدرى وتسترخى عيشته . وعلى كل حال يجب على الراعى أن يحارب المرضى كيفما كان ، اما بالأدوية الحارة والقابضة واما باللينة والملطفة ، وأن يجاهد فى ختم القرح باختبــاره أثمار المتوبة ومداراته بحكمة ذلك الانســان المدعو الى الاســتنارة العلوية » وقد قال القديس غريغوريوس النيسى « كما أن غاية صناعة الطب فى معالجة الجسد

واحدة وهي صحة المريض وأوجه المعالجة كثيرة ومتنوعة · هكذا بما أن الآلام في المرض النفساني متنوعة فمن الضروري أن تتنوع أوجه المعالجة الطبية أيضا في أشكالها ، فتأتي بالشفاء متى جرت على مقتضى الألم ··· ولذا يجب على المزمع أن يعطى العلاج المناسب لقسم النفس السقيم أن يفحص قبل كل شيء أين الألم ثم يقدم للضعيف علاجا ملائما ، حتى لا يكون الطبيب بجهله، سببا لأن يصل العلاج الى قسم آخر غير القسم الذى فيه المرض » (قانون١) ·

ويظهر مما تقدم أن هذه التأديبات نافعة ومفيدة :

١ ـ انها تلين قساوة قلب الخاطيء وتحركه الى الشعور بذنبه والاعتراف به وتولد فيه البغض للخطية والشوق لاصلاح النفس ·

٢ ـ انها رياضات روحية وفروض تقوية ضد أهواء وأميال النفس فانها تفرض مثلا على الانسان الشره الصوم ، وعلى محب المال والسارق فعل الرحمة والصدقة ، وعلى البعيد عن محبة الكنيسة المواظبة على الحضور فيها وقراءة الكتب المقدسة ، وقس على ذلك ·

٣ ـ ان هذه القوانين مفيدة لحفظ الآخرين من السقوط ومساعدة في تهذيب أعضاء الكنيسة ·

أما بطلان تعليم كنيسة رومية في هذه التأديبات فيظهر مما يأتي :

أولا : ان هذا المبدأ يخالف تعاليم الكتاب في الكفارة التى قدمها الفادى ربنا يسوع المسيح عنا حيث سفك دمه كفارة عن خطايانا ووفى العدل الالهى حقه وصالحنا مع الله أبيه · ويجعل تلك الذبيحة التى قدمها مخلصنا على الصليب لا قوة لها · والكتاب يعلمنا أن مخلصنا قدم نفسه ذبيحة عن خطايانا ، وأن هذه الذبيحة كفارة عن خطايا العالم كله ، وأننا بغير هذه الكفارة لا يمكننا أن نتقدم الى الله · وهذا جوهر الديانة المسيحية وأساس الخلاص · قال اشعياء النبى « لكن أحزاننا حملها وأوجاعنا تحملها ، ونحن حسبناه مصابا مضروبا من الله ومذلولا · وهو مجروح لأجل معاصينا مسحوق لأجل آثامنا ، تأديب سلامنا عليه وبحبره شفينا · كلنا كغنم ضللنا ملنا كل واحد الى طريقه والرب وضع عليه اثم جميعنا الخ » (اش ٥٣ : ٤ ـ ١٠) وقال بولس الرسول الذى « قدمه الله كفارة بالايمان بدمه لاظهار بره من أجل الصفح عن الخطايا السالفة بامهال الله » (رو ٣ : ٢٥) « فمن ثم يقدر أن يخلص أيضا الى التمام الذين يتقدمون به الى الله اذ هو حي في كل حين ليشفع فيهم » (عب ٧ : ٢٥) « ودم يسوع المسيح ابنه يطهرنا من كل خطية » (١ يو ١ : ٧) « وان أخطأ أحد فلنا شفيع عند الآب يسوع المسيح البار وهو كفارة لخطايانا · ليس لخطايانا فقط بل لخطايا كل العالم أيضا » · (١ يو ٢ : ١ و ٢)

ويعلمنا الكتاب أن الانسان الخاطىء لا يتبرر وينال الخلاص بالمسيح يسوع الا بشرطين أحدهما التوبة والايمان والثانى الأعمال الصالحة • فعن الأول قال « توبوا وآمنوا بالانجيل » (مر ١ : ١٥) وعن الثانى فلأن الأعمال الصالحة هى ثمرة التوبة والايمان • قال يعقوب « ترون اذا أنه بالأعمال يتبرر الانسان لا بالايمان وحده • (يع ٢ : ٢٤) فعندما يتمم الخاطىء هذين الشرطين أى الايمان والأعمال الصالحة ينال استحقاق الخلاص بالمسيح ، لا لأن الايمان والتوبة والأعمال الصالحة لها فى حد ذاتها قوة ذبيحة وتكفير عن الخطية وتفى عدل الله وتبرر الخاطىء • بل لأن الخاطىء ينال بها استحقاق الفادى الذى وفى بذاته العدل الالهى وفاء كاملا ، وقدم نفسه كفارة خلاصية أبدية ، فالعدل الالهى قد وفى ولم يبق على الانسان الا أن يناله بالتوبة والايمان • أما قول كنيسة رومية بأن الخطاة فضلا عن الايمان والتوبة يجب أن يتكبدوا قصاصات يوفون بها عدل الله عن خطاياهم • فهذا تعليم غريب ولا ينتج الا احدى نتيجتين • الأولى أن دم المسيح لا يخلص الخطاة ، والفداء الذى قدمه للآب ليس كاملا ، فيجب أن يتمم بالقصاصات التى تفرض على الخاطىء • والثانية أن التوبة والايمان والأعمـــال الصالحة ليست كافية لأن ينال الانسان بها استحقاقات المخلص • وليس من يقول بهذا التعليم لأنه يهدم أساس الدين والايمان المسيحى •

ثانيا ـ ان هذا التعليم يضاد عدل الله فالباباويون يسلمون معنا بأن الرب يسوع قدم لله ضحية كاملة ووفاء تاما عن خطايا العالم ليشترى من لعنة الناموس والخطية جميع الخطاة ، فمن يقول ان الله لا يرتضى من الخطاة بالايمان بالمخلص الذى به تمحى خطايانا (رو ٣ : ٢٥ و ٢٦) وبالاثمار اللائقة بالتوبة والايمان بل يطلب منهم احتمال قصاصات أخرى وفاء لعدل الله ، يضطر أن يقول بأن الله تعالى يطلب منهم وفاء ، عدله مرتين ، الوفاء الذى قدمه المسيح ، ووفاء آخر يقدمه الانسان ، وهذا باطل وتجديف •

ثالثا : من المعلوم ان الله تعالى غير محدود فى صـــفاته وكل خطية تفعل ضد الله غير المحدود تستحق عقابا غير محدود ، فمن ذا الذى يقدر أن يخلصنا ويفى العدل الالهى • هل دم يسوع المسيح الذى صار كفارة لخطايا العالم ويطهر من كل خطية ؟ أم تلك القصاصات ؟ لا لعمرى فانه لو سفك جميع العالم دماءهم لما أمكنهم وفاء جزء من عدل الله ، والا كانت الكفارة التى قدمها المسيح عنا باطلة ، لأن كل انسان يمكنه أن يقوم بتلك القصاصات ويمحى بها عن خطاياه وحينئذ لا تبقى حاجة الى موت المسيح عنا ، وبذلك يكون استحقاق الانسان مساويا لاستحقاق الله ، وهذا كفر محض •

رابعا : ان هذا التعليم يصغر جسامة الخطية ويجعلها كل شيء ما دام الانسان قادرا على وفاء الحقوق التى يستلزمها عدل الله ، ويهون على مرتكبها فعلها فيتمـادى فى فعلها نظير بعض قصاصـات تفرض عليه فيصبح مبررا باتمامها ، وهذا مخالف لروح الكتاب القائل « من خالف ناموس موسى فعلى شاهدين أو ثلاثة شهود يموت بدون رأفة • فكم عقابا أشر تظنون أنه يحسب مستحقا من داس ابن الله وحسب دم العهد الذى قدس به دنسا وازدرى بروح النعمة » (عب ١٠ : ٢٨ و ٢٩) •

وباطلا يستشهد البابويون بقول يوحنا : اصنعوا أثمارا تليق بالتوبة (مت ٣ : ٨) فلا يقصد بأثمار التوبة قصاصات تفرض على التائب لوفاء عدل الله ، بل يقصد بها الأعمال الصالحة التى هى علامة قوية وشاهد على رجوع الخاطىء الى الله ، رجوعا حقيقيا ، وهذا ظاهر من قول يوحنا نفسه فانه لم يكن يفرض على الخطاة الذين أقبلوا اليه الا الاعتراف بخطاياهم وتوبتهم وعمل أثمار للتوبة ، وهى الأعمال الصالحة الدالة على حياة جديدة لله • كذلك باطلا يستشهدون بما ورد فى الكتاب عن أهل نينوى بانهم نالوا المسامحة بصومهم وصدق توبتهم (يون ٣ : ١٠) ولا يقصد من التوبة والدموع والبكاء والصوم والرحمة وكل أفعال التوبة ، أنها أوجه مختلفة تفى عدل الله ، بل انها علامات وبراهين دالة على انسحاق الخاطىء أمام الله ورجوعه عن خطاياه ، وما هى آلا نتائج الايمان بالله لأنها دلائل الندامة ، وهذا ظاهر من قول الله « ولكن الآن يقول الرب ارجعوا الى بكل قلوبكم بالصوم والبكاء والنوح ، ومزقوا قلوبكم لا ثيابكم وأرجعوا الى الرب الهكم لأنه رؤوف رحيم بطىء الغضب وكثير الرأفة ويندم على الشر » (يوئيل ٢ : ١٢ و ١٣) فالتوبة والندامة والصوم وأعمال الرحمة ليست لوفاء عدل الله غير المحدود، ولا هى ثمن صفحه وغفرانه ، بل هى دلائل توبتنا التى تجعله أن يصفح عنا • ولا يمكن أن ننال الغفران بثمن زهيد كهذا • قال القديس يوحنا ذهبى الفم « ما الذى نفع أولئك القوم (أى أهل نينوى) فانهم ضمدوا جراحهم بالصوم ، وكان ذلك الصوم شديدا • وضمدوها بالجلوس على الأرض ولبس المسوح والرماد والانتحاب ، ضمدوها أيضا بتغيير سيرتهم الرديئة • فلننظر الآن أى علاج من هذه العلاجات جعلهم أصحاء • فقد قال الكتاب ان الله رأى أن كل واحد منهم رجع عن طريقه الشريرة وندم على الشر الذى نوى أن يصنعه بهم • فلم يقل اذن انه رأى الصوم والمسح والرماد • وأنا لا أعنى أنه يقصد بذلك أن يلغى الصوم • حاشا • بل يحث أن نجعل صومنا أفضل بالابتعاد عن الشر » (مقالة ٤ : ٥ و ٦ على ٢ كو) •

الفصل السابع

الخطايا التي يشملها سر التوبة وماهية الخطية التي لا تغفر

نتعلم من الكتاب المقدس أنه لا توجد خطية مهما كانت ثقيلة الا وهى قابلة للغفران والمسامحة ، متى تقدمتها توبة صحيحة واعتراف بندامة وايمان تام بالمسيح ورجاء باستحقاقه • وقد صرح سيدنا له المجد قائلا « لأنى لم آت لأدعو أبرارا بل خطاة الى التوبة » (مت ٩ : ١٣) « لأن ابن الانسان قد جاء لكي يخلص ما قد هلك » (مت ١٨ : ١١) « هكذا ليست مشيئة أمام أبيكم الذى فى السموات أن يهلك أحد هؤلاء الصغار » (مت ١٨ : ١٤) وقد غفر له المجد لبطرس الذى أنكره وقبل الزانية والعشار واللص • قال بطرس الرسول « وهو لا يشاء أن يهلك أناس بل أن يقبل الجميع الى التوبة » (٢ بط ٣ : ٩) وقال يوحنا الرسول « ان خطأ أحد فلنا شفيع عند الآب يسوع المسيح البار وهو كفارة لخطايانا ليس لخطايانا فقط بل لخطايا كل العالم أيضا » (١ يو ٢ : ١ و ٢) وقال أيضا « ودم يسوع ابنه يطهرنا من كل خطية • ان قلنا انه ليس لنا خطية نضل أنفسنا وليس الحق فينا • ان اعترفنا بخطايانا فهو أمين وعادل حتى يغفر لنا خطايانا ويطهرنا من كل اثم » (١ يو ١ : ٧ — ٩) وبطرس الرسول دعا اليهود الذين صلبوا المسيح قائلا « توبوا كل واحد منكم على اسم يسوع المسيح لغفران الخطايا » (أع ٢ : ٣٨) ودعا سيمون الساحر المضل الى التوبة قائلا « تب من شرك هذا وأطلب الى الله عسى أن يغفر لك فكر قلبك » (أع ٨ : ٢٢) وبولس الرسول صفح للمختلط بالدم فى كورنثوس بعد ما وضع عليه القصاص الخ (٢ كو ٢ : ٦ — ٨) •

أما قول السيد « كل خطية وتجديف يغفر للناس • وأما التجديف على الروح فلن يغفر للناس • ومن قال كلمة على ابن الانسان يغفر له • وأما من قال على الروح القدس فلن يغفر له لا فى هذا العالم ولا فى الآتى » (مت ١٢ : ٣١ و ٣٢) وقول يوحنا الرسول « ان رأى أحد أخاه يخطىء خطية ليست للموت يطلب فيعطيه حياة للذين يخطئون ليس للموت • توجد خطية للموت • ليس لأجل هذه أقول أن يطلب • كل أثم هو خطية وتوجد خطية ليست للموت » (١ يو ٥ : ١٦ و ١٧) فالمراد بالتجديف على الروح القدس المقاومة لحقيقة الله الظاهرة والسقوط فى الكفر التام ، ونسبة معجزات المسيح الى الشيطان • والخطية

التى للموت التى أشار إليها يوحنا الرسول هى رفض الحياة الأبدية التى أتى بها المسيح وعناد القلب القاسى الذى لم يبق قادرا على قبول الحق وهى مثل خطية التجديف على الروح القدس ، لأن الذى يرتكبها يكون قد رفض الروح القدس الذى به وحده يمكن الخاطىء أن يرجع الى الله لينال المغفرة منه ، وتشبه خطية المرتدين التى أشار اليها بولس الرسول فى (عب ٦ : ٤ - ٦) لأنهم رفضوا كفارة المسيح وعلى ذلك يكون فى كلتا الحالتين عدم امكان ترك الخطايا أدبيا ليس من قبل الله ونعمته ، بل من قبل الخاطىء غير التائب • أما الله تعالى فهو مستعد لأن يغفر كل خطية عندما يرجع الخاطىء عن خطيته ويتوب • وقد قال القديس يوحنا ذهبى الفم فى هذا الصدد « ما معنى هذا القول ؟ معناه أن هذه الخطية خصت بعدم المغفرة خلافا لسائر الخطايا •• ولماذا ذلك ؟ لأنهم كانوا يجهلون المســـيح من هو • ولكن الروح القدس كانوا يعرفونه معرفة كافية • لأن الأنبياء انما به نطقوا ما نطقوا • وكل أصـــحاب العهد القديم كانوا يعرفونه معرفة عظيمة جدا • فما يقوله هذا معناه : أنتم تقاومونني وتشكون فى نظرا للجســـد الذى أنا لابسه • ولكن لعلكم تقدرون أن تقولوا فى الروح انكم تجهلونه ولهذا فتجديفكم غير مغفور وسوف تقاصون عنه هنا وهناك ••• ومثال لخطية التجديف على الروح القدس هو يهوذا الأسخريوطى الذى انقطع منه كل رجاء توبة ، وما كانت ندامته سوى زيادة خطية على خطية فانه ذهب وشنق نفسه وارتكب اثما فوق اثمه • فعلى ذلك طالما يرجى من الخاطىء ندامة فلا تكون خطيته تجديفا على الروح القدس ، ولكن متى صمت صوت ضميره وتأصل فى قلبه بغض شيطانى ضد نعمة الله التى كان ذاقها ، وصارت حالته شبيهة بحالة الشيطان وبحالة يهوذا الأسخريوطى ولم يبق له رجاء توبة • حينئذ تكون خطيته تجديفا على الروح القدس ، ولا يمكن أن يحصـــل على غفران نظرا للحالة الشنيعة التى وصل اليها •

وقانا الله من مثل هذا التخلى الفظيع » (تفسير متى مقالة ٤١ : ٣) •

الفصل الثامن

فساد تعليم كنيسة رومية فى أوراق الغفرانات

أثبتنا فى الفصل السادس صفحة ٢٢٤ أن القصد من التأديبات الكنسية هو تهذيب الخاطىء واصلاح حاله وتقويم سيرته • وأوضحنا بطلان تعليم كنيسة رومية التى تزعم أن الغرض من هذه التأديبات وفاء العدل الالهى • ونذكر بالأسف أن كنيسة رومية بناء على ذلك التعليم الباطل أخترعت تعليما آخر منافيا للمبادىء المسيحية ، وهو الغفرانات • وأساسه عندهم أن تلك القصاصات التى تفرض على التائب القصد منها كما قلنا وفاء عدل الله الذى أهانه الخاطىء بخطاياه ، وحيث أن الانسان لاتساعده قواه على القيام بالأعمال التى يوفى بها عدل الله ، وكثيرا ما يهمل تلك القصاصات فينبغى أن يعوض عن العدل الالهى من كنز الكنيسة المؤلف من استحقاق ربنا يسوع المسيح ، ومن فضائل القديسين • وبناء على هذه النظرية الفاسدة يصدرون أوراق غفرانات يوزعها البابا وتباع وتشترى كالسلع متضمنة الصفح والغفران ليس عن الخطايا الماضية فقط بل والمستقبلة أيضا • وترى فى تلك الأوراق أن من تلا صلاة صغيرة لمار يوسف يصير له غفران ٣٠٠ يوم !! ، وغفران ١٠٠ سنة سلفا لمن تلا الوردية البابابوية !! وقس على ذلك •

ويظهر فساد وبطلان هذا التعليم من الأدلة الآتية :

أولا : ان هذا التعليم لا أساس له مطلقا فى الكتاب المقدس الذى يعلمنا أن الغفران هو لله وحده • وهو استحقاق آلام ربنا يسوع المسيح الذى ليس بأحد غيره الخلاص • ولا يوجد فى الكتاب ما يشير الى استحقاقات للقديسين والملائكة ، يمكن توزيعها على البشر ، كما أن لا أساس له فى التقليد الكنسى ، ولا فى تعاليم آباء الكنيسة • وكل تعليم لا أساس له فى الكتب المقدسة والتقليد الرسولى هو باطل واختراع ترفضه الكنيسة •

ثانيا : فساد المبدأ الذى بنى عليه هذا التعليم فقد علمنا مما سبق فساد رأيهم بشأن التأديبات الكنسية ، وأنه مضاد كل المضادة للبمدأ المسيحى •

ثالثا : ان استحقاقات ربنا يسوع المسيح حقا هى كنز غير محدود لا يفرغ لنعمة التبرير • ولكن هذه الاستحقاقات لم توهب للبابا ليوزع منها كيف يشاء بغير حساب ، وانما ينالها الناس وتمنح لهم بشروط أخصها

الايمان والتوبة والعزم الثابت على اصلاح السيرة وأثمار التوبة التى هى الأعمال الصالحة . وأما منح الخطاة استحقاقات يسوع المسيح قبل أن يتمموا شروط التوبة وعتقهم من القصاصات التى تستلزمها خطاياهم لنعدل الالهى ومنحهم أوراق غفرانات فهو تعد ظالم خارج عن حدود كلمة الله .

رابعا : ان فضائل القديسين مهما كانت عظيمة لا يمكن أن تكون زائدة عما يجب ويفضل عنها حتى يوزع منها على الغير . فان هذا التعليم غريب عن تعاليم المسيح :

١ - لأن أعمال القديسين مهما كانت فاضلة فانها لا تصير كاملة ومقبولة بذاتها بل بقوة النعمة الالهية ، ولها مكافأتها أمام الله بناء على استحقاق مخلصنا يسوع .

٢ - ان الشريعة الانجيلية التى نسلك بموجبها طريق الحياة الأبدية ليست محدودة كما قال المرنم « لكل كمال رأيت حدا . أما وصيتك فواسعة جدا » (مز ١١٩ : ٩٦) فمهما عمل الانسان من الفضائل لا يمكنه أن يصل الى المطلوب بالوصية القائلة « فكونوا أنتم كاملين كما أباكم الذى فى السموات هو كامل » (مت ٥ : ٤٨) وهذا الكمال هو المطلوب من القديسين ، ومهما تقدم المؤمنون فى هذا الكمال فانهم لا يصلون الى نهايته حتى قال بولس الرسول « ليس انى قد نلت أو صرت كاملا ولكنى أسعى لعلى أدرك الذى لأجله أدركنى أيضا المسيح يسوع . أيها الأخوة أنا لست أحسب أنى قد أدركت . ولكنى أفعل شيئا واحدا اذ أنا أنسى ما هو وراء وأمتد الى ما هو قدام . أسعى نحو الغرض لأجل جعالة دعوة الله العليا فى المسيح يسوع . فليفتكر هذا جميع الكاملين منا وان افتكرتم ثم شيئا بخلافه فالله سيعلن لكم هذا أيضا . وأما ما قد أدركناه فلنسلك بحسب ذلك القانون عينه ونفتكر ذلك تأكل وتشرب أنت . فهل لذلك العبد فضل لأنه فعل ما أمر به . منكم له عبد يحرث أو يرعى يقول له اذا دخل من الحقل تقدم سريعا واتكىء . بل ألا يقول له أعدد ما أتعشى به وتمنطق واخدمنى حتى آكل وأشرب وبعد ذلك تأكل وتشرب أنت . فهل لذلك العبد فضل لأنه فعل ما أمر به . لا أظن . كذلك أنتم أيضا متى فعلتم كل ما أمرتم به فقولوا اننا عبيد بطالون. لأننا انما عملنا ما كان يجب علينا » (لو ١٧ : ٧ - ٩) .

٣ - يتضح من قول الرب يسوع « فى بيت أبى منازل كثيرة » (يو ١٤ : ٢) أن لكل قديس منزلة خاصة من الغبطة وجائزة خاصة . ومهما كانت أعمال الانسان فانه ينال عنها الجائزة المناسبة لها . ولا يمكن أن تزيد أعماله عما هو واجب عليه ومطلوب منه أو نفضل عنه لينتفع بها غيره كأنها غير نافعة لصانعها . فأين اذن تلك الفضائل الزائدة التى يمكن التوزيع منها على الخطاة ؟

خامسا : ان هذا التعليم مضر بالناس لأنه يحرم الخطاة من الوسائط الضرورية لعلاج أمراضهم الروحية • ويغش الشعب ويضله ضلالا فظيعا اذ يصور لهم سهولة المصالحة مع الله ومع الكنيسة • ويفتح بابا للأغنياء للتمادى فى الخطايا ما داموا يستطيعون أن يشتروا أوراق غفرانات تصفح عن خطاياهم وتبررهم أمام الله ، وتبيح لهم الخطايا المستأنفة • كما أنه يملأ الفقراء يأسا اذ لا قدرة لهم على شراء تلك الأوراق • والخلاصة أن هذا التعليم سبب فسادا عظيما فى الآداب العمومية كما يشهد بذلك التاريخ • .

سادسا : هذا التعليم ينكره كثيرون من آباء وعلماء الكنيسة الرومانية أنفسهم . ويعترفون بأنه تعليم حديث • قال القديس أنطونين رئيس الأساقفة فى فيرنزا « بخصوص الغفرانات ليس لها قول مخصوص فى الكنيسة المقدسة . ولا يوجد ذكر للغفرانات أصلا فى كتب المعلمين القدماء » (فصل ١ قضية و ٣ عن الغفرانات) وقال الكاردينال كايتانوس « انه لو كان لنا خبر محقق عن كيف دخلت عادة الغفرانات فى الكنيسة لكان ذلك يعيننا فى الفحص عن المطهر ولكن لا يوجد ذكر هذه الأشياء أصلا فى الكتب المقدسة ولا فى كتب المعلمين ان كانوا روما أو لاتينيين » (عن الغفرانات رأس ٢) وقال الكردينال نيش « انه ما دام الناس لم يكن لهم فكر عن المطهر لم يفتشوا عن الغفرانات لأن كل اعتبار الغفرانات هو المطهر • وحيث أن المطهر لم يكن معروفا عند الكنيسة الجامعة الا فى أجيالنا الأخيرة فليس بعجب اذا كان فى أول الكنيسة لم تكن الغفرانات موجودة فالمطهر ربما لم يوجد ذكره قط فى كتب الآباء الأقدمين ، والروم حتى يومنا هذا لا يؤمنون به ، واللاتينيون قبلوه ليس فى وقت واحد بل رويدا رويدا » (نقض لوثيروس قضية ١٨) والعالم وأسالوس النمساوى الذى يسمى نور العالم لسمو علمه ، وكان صديقا حميما للبابا سكستوس الرابع ، قال فى احدى رسائله « ان البابا ليس له سلطان ان يعطى غفرانا ولا ساعة واحدة وانه أمر مزح وهزوء انه بعض الأقاوت يعطى غفرانا على سبع سنين لأجل خطية • وبعض أوقات على سبعمائة سنة أو الى الأبد بالغفران الكامل ، وقال أيضا « انه لا يوجد اصلا ذلك التمييز بين غفران الخطية وقصاصها المبنى عليه تعليم الغفرانات وان هذا التعليم هو من قبيل الطمع بالمال • وان كان الله ذاته لا يعطى غفرانا كاملا للقلب المنسحق التائب فكم يكون البابا أقل منه • وأما اذا كان الله يغفر فكيف للبابا سلطان أن يربط !! وان كان لا يوجد للخاطىء قصاص بعد ما يغفر الله له فالبابا ماذا يحله !! » • وقال فى جوابه لخصمه انكولاريس « ان الغفرانات قبل زمان البرتوس وتوماس اكويناس كانت محسوبة كأنها كذبة تقوية وانه الى يومنا هذا يبقى كثير من المعلمين مضادين عادة دولة رومية فى هذا الشأن • وقال المؤرخ ثوانوس أحد كبار العلماء الشرفاء بين الرومانيين • ان فى سنة ١٥١٥ كان البابا لاون العاشر رجلا مسلما ذاته لكل نوع من

العيشة المتراخية النجسة ، لكي يجمع مالا من كل جانب لأجل مصاريفه الجزيلة ، وكان يرسل أوراق الغفرانات التى فيها الوعد بمحو كل خطية وبهدية الحياة الأبدية فى جميع ممالك المسيحيين وكان معينا فيها الثمن الذى يجب على كل واحد أن يعطيه بمقدار خطيته · واختار البابا له جباة وخزنة يحفظون الأموال فى جميع الأماكن ومبشرين يطوفون حيثما يكون لهم منفعة كثيرة من هذه الغفرانات · وهؤلاء المبشرين قد عظموها جدا وعظموا قوتها فى خلاص الأنفس الشقية فى المطهر » (تاريخ كتاب ١ وجه ٣) وقالت القديسة بريجيتا التى كانت فى الجيل الرابع عشر « ان البابا قد جمع الوصايا العشر كلها فى واحدة وهى « قدم لى مالا » ·

والخلاصة ان هذا التعليم ليس غريبا فقط عن المبادىء المسيحية ولكنه يجلب على المسيحية عارا كبيرا !!

٥ - سر مسحة المرضى

الفصل الأول

تعريف السر وتأسيسه

سر مسحة المرضى هو سر مقدس به ينال المريض المؤمن شفاء أمراضه الروحية والجسدية اذ يمسحه الكاهن بزيت مقدس ويستمد له النعمة الالهية، ويسمى سر الزيت المقدس ٠

والفرق بين هذا السر وسر التوبة هو ان سر التوبة منح من الله ليكون واسطة لشفائنا من الأمراض الروحية فقط وهو سر عام للجميع أما سر الزيت فقد منح ليكون علاجا خاصا للمرضى لشفاء أمراضهم الجسدية والروحية ٠

وهذا السر مؤسس من السيد المسيح له المجد ، فان يعقوب الرسول يشير الى ذلك صريحا بقوله « أمريض أحد بينكم فليدع قسوس الكنيسة فيصلوا عليه ويدهنوه بزيت باسم الرب ٠ وصلاة الايمان تشفى المريض والرب يقيمه ٠ وان كان قد فعل خطية تغفر له » (يع ٥ : ١٤ و ١٥) فمن هذا القول يتضح أن هذا السر مؤسس من الله وأن فعله سرى ٠ فان يعقوب الرسول يكتب الى مؤمنى عصره مشيرا الى شىء معروف وواسطة شفائية معلومة لديهم ، ويحثهم على استعمالها عند المرض ٠ ومن المعلوم أن الرسل الأطهار لم يعلموا شيئا من تلقاء أنفسهم ، بل كل ما علموه ونادوا به انما تعلموه من السيد المسيح واستلموه منه ونادوا به ملهمين من الروح القدس ، لأنهم وكلاء أسرار الله لا مؤسسيها ٠

وقد مارس الرسل هذا السر عندما أرسلهم المسيح للكرازة كما قال مرقس الانجيلى « ودهنوا بزيت مرضى كثيرين فشفوهم » (مر ٦ : ١٣) وان كنا لا نعلم الوقت الذى فيه أسس الرب يسوع هذا السر وأمر به ، فلا عجب فى ذلك لأن أشياء أخر كثيرة صنعها يسوع لم تكتب واحدة واحدة (يو ٢١ : ٢٥) لا سيما واننا نعلم أنه كان يظهر لهم بعد قيامته مدة أربعين يوما ويتكلم عن الأمور المختصة بملكوت الله (أع ١ : ٣) ٠

الفصل الثانى

تفنيد الآراء الفاسدة عن هذا السر

ارتأى البعض ممن ينكرون الأسرار المقدسة أن يعقوب الرسول يذكر مسحة الزيت كواسطة بسيطة وعادية لشفاء الأمراض · كما ارتأى آخرون أنها موهبة شفائية أعطيت للرسل ليشفوا بها المرضى كما فعلوا العجائب ·

ونفند الرأى الأول بما يأتى :

أولا : ان يعقوب الرسول لم يتكلم عن هذا السر كعادة كانت مستعملة بل كسر حائز لكل الشروط اللازمة لاتمام السر وهى :

١ ــ الشخص القابل السر وهو المريض بقوله « أمريض أحد بينكم » ·

٢ ــ خادم السر بقوله « فليدع قسوس الكنيسة » ·

٣ ــ صورة السر وهى « الصلاة » بقوله « فيصلوا عليه » ·

٤ ــ مادة السر بقوله « ويدهنوه بزيت » ·

٥ ــ مفعول السر وهو الشفاء بقوله « صلاة الايمان تشفى المريض والرب يقيمه وان كان قد فعل خطية تغفر له » ·

ثانيا : ان قوة الزيت مهما كانت لا يمكن أن تكون دواء عموميا لكل مرض · ونحن نرى يعقوب الرسول يتكلم هنا كلاما عموميا يعم كل مرض بقوله « أمريض أحد بينكم » ·

ثالثا : لو كان الزيت دواء عاديا لأمكن الأصـــدقاء أو أقارب المريض أو أحد الأطباء أن يتمموه ويستعملوا له هذه الواسطة لشفائه · غير أننا نرى الرسول يحصر ذلك فى قسوس الكنيسة بقوله «فليدع قسوس الكنيسة» والرسول لا ينسب قوة الشفاء الى الزيت وحده بل الى صلاة الكهنة بقوله « فيصلوا عليه ويدهنوه بزيت باسم الرب وصلاة الايمان تشفى المريض والرب يقيمه » ويضيف الى شفاء المريض غفران الخطايا بقوله « وان كان قد فعل خطية تغفر له » وهذا الغفران لا يمكن بوجه من الوجوه أن ينجم عن الشفاء الجسدى الذى يمكن نيله بالأدوية والأطباء ·

ونفند الرأى الثانى القائل بأن فعل مسحة الزيت الذى ذكره يعقوب الرسول هو احدى المعجزات ما يأتى :

أولا : ان مواهب الشفاء بالمعجزات لم ترتبط مطلقا بعلامة معينة كما هو واضح من تاريخ المخلص والرسل • على أن يعقوب الرسول يذكر هنا مادة معينة لعمل المسحة وهى الزيت •

ثانيا : ان الذين وهبت لهم مواهب الشفاء وفعل الآيات أعطيت لهم قوة على شفاء الأمراض فقط ، ولم تعط لهم مقدرة على غفران الخطايا لأن هذه القوة قد منحها الرب يسوع لرسله ولخلفائهم من بعدهم دون غيرهم ، ويعقوب الرسول يشير بأن من مفاعيل سر المسحة علاوة على شفاء المرض غفران الخطية أيضا •

ثالثا : ان موهبة العجائب وموهبة شفاء الأمراض كانت فى أزمنة الرسل عمومية لكل المؤمنين من كل صنف ورتبة (راجع ١ كو ١٢ : ٧ _ ١٢) فلو كان كلام يعقوب الرســول يشير الى موهبــة الأمراض بالمعجزات لكان الواجب عند الحاجة الى الشفاء ، الالتجاء الى من وهب هذه الموهبة بصرف النظر عن مركزه ورتبته • ولكن الرسول يأمر صريحا بأن ندعو قسوس الكنيسة لتتميم سر الزيت المقدس ، أى أنه خصصه بأشخاص معلومين •

فمما تقدم يتضح أن الرسول لم يقصد شفاء الأمراض بواسطة معجزية ، بل يتكلم عن طقس كنسى معروف ، وسر معين يتممه الكهنة دون غيرهم •

الفصل الثالث

أقوال الآباء عن هذا السر

ان هذا السر المقدس كان مستعملا منذ الأزمنة الرسولية لأن الكنيسة لم تترك استعمال شيء مما تسلمته ، ولم تخالف مطلقا وصية صريحة يوصى بها يعقوب الرسول ، ويؤيد هذه الحقيقة أقوال آباء الكنيسة الأقدمين . فمنهم من اكتفى باسناد سر المسحة الى كلام يعقوب الرسول . ومنهم من سماه عملا سريا . ومنهم من سماه سرا . فالعلامة أوريجانوس عند تعداده الوسائط للحصول على غفران الخطايا ، كالمعمودية والاستشهاد قال « توجد واسطة سابعة أيضا لغفران الخطايا لكنها قاسية وصعبة وهي الغفران بالتوبة حين يبل الخاطىء فراشه بدموعه وتصير له الدموع خبزا نهارا وليلا . وحين يعترف بخطيته أمام كاهن الله يطلب الغفران قائلا مثل داود « اعترف لك بخطيتي ولا أكتم اثمي . قلت أعترف للرب بذنبي وأنت رفعت آثام خطيتي » (مز ٣٢ : ٥) ثم يقول هذا العلامة « وهنا يتم ما قيل من يعقوب الرسول : أمريض أحد بينكم فليدع قسوس الكنيسة فيضعوا عليه الأيدي ويمسحوه بزيت باسم الرب وصلاة الايمان تخلص المريض وان كان مرتكبا خطايا تغفر له » .

ولنلاحظ هنا في قول أوريجانوس أنه أبدل عبارة الرسول « يصلوا عليه » بقوله « يضعوا عليه الأيدى » وبذلك يشير الى العادة الجارية منذ الأزمنة الأولى حتى الآن في تتميم سر الزيت ، وهي وضع الكاهن يده على رأس المريض حين يصلي عليه . ومن كلام أوريجانوس نستنتج أيضا أنه لا يضع فاصلا بين سرى التوبة والمسحة بالزيت لأنه يتكلم عن الواحد بعد الآخر ، وهذا يدل على أن سر المسحة كان يتمم قديما بعد سر التوبة .

والقديس يوحنا ذهبي الفم يقول عند مقابلته بين الكهنة والآباء الجسديين « أما أولئك (أى الوالدين) فيلدوننا لهذه الحياة واما هؤلاء فلتلك . أولئك لا يستطيعون أن ينقذونا من الموت الجسدي ولا أن يزيلوا مرضا يتسلط علينا . وأما هؤلاء فكثيرا ما خلصوا نفسا مريضة وقريبة من الهلاك ، وجعلوا عذاب البعض خفيفا جدا ، ولم يدعوا كثيرين أن يسقطوا في عذاب أو أن يدنوا منه ، ليس بالتعليم والارشاد فقط بل بمساعدتهم بالصلوات أيضا . لأن سلطانهم

فى غفران الخطايا لا ينحصر فى البرهة التى يلدوننا فيها بالمعمودية بل يمتد الى ما بعدها أيضا • لأنه يقول « أمريض أحد بينكم فليدع قسوس الكنيسة فيصلوا عليه ويدهنوه بزيت باسم الرب وصلاة الايمان تشفى المريض والرب يقيمه وان كان قد فعل خطية تغفر له » ثم ان الوالدين الطبيعيين لا يستطيعان أن ينفعا أولادهما بشىء اذا سقطوا تحت غضب أحد من ذوى التقدم والاقتدار (١) فى هذه الدار ، لكن الكهنة يسترضون لهم لا رئيسا ولا ملكا أرضيا ، بل الله ذاته الذى يغضبونه مرارا كثيرة » (خطاب ٣ : ٦ فى الكهنوت) •

والقديس كيرلس الأورشليمى يقول وهو يحارب السحر « أما أنت فاذا كنت موجعا فى أجزاء جسدك وآمنت بالحقيقة أن دعاءك باسم رب الصباؤوت وسائر أنواع الدعاء التى ينسبها الكتاب الالهى لله بحسب طبيعته تحل مصيبتك ، فصل هذه الكلمات وادع بها عن نفسك لأنك تعمل عملا أفضل من أولئك المؤمنين بالسحر ، اذا كنت تقدم المجد لله لا للأرواح النجسة • واننى لمتذكر الكتاب الالهى حيث يقول « أمريض أحد بينكم فليدع قسوس الكنيسة فيصلوا عليه ويدهنوه بزيت باسم الرب وصلاة الايمان تشفى المريض والرب يقيمه وان كان قد فعل خطية تغفر له » (فى العبادة بالروح والحق كتاب ٤) •

ويبين القديس غريغوريوس فى كتابه فى الأسرار كيفية تتميم سر الزيت مع صلواته ، وفيه يذكر أن الكاهن يمسح المريض بزيت على اسم الآب والابن والروح القدس ويقول له : « لا يبق فيك الروح النجس مختفيا بل فلتسكن فيك قوة المسيح الاله والروح القدس لكى تشفى بتتميم هذا السر وبمسحة الزيت المقدس ، وبصلواتنا بقوة الثالوث القدوس وتعود الى الصحة التامة » (جزء ٣ : ٢٣٥) •

---

(١) أى أصحاب المراكز العالمية والسلطة •

الفصل الرابع

اتفاق جميع الكنائس وشهادة التاريخ
وشهادة ناكرى الأسرار

نضيف الى ما تقدم أن جميع الكنائس شرقا وغربا متفقة على حقيقة هذا السر • وهذا الاتفاق العام برهان قاطع على أن مسحة المرضى سر من أسرار الكنيسة ، مسلم لها منذ الأزمنة الرسولية • فان الكنائس مع اختلافها فى أمور كثيرة لم تختلف فى هذا السر •

وقد شهد موسهيم المؤرخ البروتستانتى لهذا السر بقوله « ان المسيحيين الأولين لما مرضوا مرضا مخطرا كانوا يدعون شيوخ الكنيسة « أى القسوس والأساقفة » وبعد أن يعترف المريض بخطاياه يستودعه الشيوخ لله بالتضرعات الخشوعية ويدهنونه بالزيت » (ف ١ : ف ٢ قسم ٤) والكنيسة الأسقفية تعترف بصحة هذا السر وتمارسه بصلوات مخصوصة وفصول انجيلية كما هو عندنا (راجع كتاب الصلاة العامة صفحة ٢٧٤ ــ ٢٨٥) •

ويحسن بنا أن نلخص هنا ما قاله القس الانجليزى ف • ج • سمث صاحب كتاب (انارة الألبـاب فى شرح وتعليم عقـائد الكتاب) عند كلامه عن الشفاء الالهى « أن الله لم يهمل أمر أجسادنا فى هذه الحياة بل قسـم لها نصيبا من عنايته ، ويهمه أمر تقدمنا الجسدى بدليل ما جاء فى رسالة يوحنا الثالثة والعدد الثانى « أيها الحبيب فى كل شىء أروم أن تكون ناجحا وصحيحا كما أن نفسك ناجحة » وقل من يهتم بهذا الأمر أمر أعتناء الله بالجسد وشفائه • وقل أيضا ايمان الناس به ولكن عدم أمانتهم لا يبطل أمانة الله • وكل ما علينا هو أن نصدق كلمة الله ومواعيده ونسير بموجبها، لا بموجب ما يرتئيه العقل البشرى ويصدقه ، ومن ثم يعمل الله فينا طبقا لمواعيده • فان الله كان لا يزال الشافى العظيم والطبيب الأكبر • وبعد أن أورد نصوصا كثيرة من النبوات تنبىء بأن المسيح سيكون شفاء للأمم ، كما أورد من الانجيل ما يدل على اتمام تلك النبوة فى المسيح له المجد وشفائه للمرضى (راجع اش ٤٢ : ٦ و ٧ مع لو ٤ : ١٨ ــ ٢١ ، اش ٢٥ : ٤ ــ ٦ مع مت ٨ : ١٦ و ١٧ ، ١١ : ٤ و ٥ وملا ٤ : ٢ مع مت ٤ : ٢٣ و ٢٤ ، ٩ : ٢ ــ ٦ و ٣٥ و ٣٦ ، ١٤ : ١٤ ، ١٥ : ٣٠ و ٣١ مر ١ : ٤٠ ــ ٤٤) قـال وأعطى هـذه القـوة (أى الشفاء) لتـلاميذه الاثنى عشر

وأعطاهم سلطانا على أرواح نجسة حتى يخرجوها ويشفوا كل مرض وكل ضعف (مت ١٠ : ١) وأرسلهم وأوصاهم قائلا وفيما أنتم ذاهبون اكرزوا قائلين انه قد أقترب ملكوت السموات • اشفوا مرضى • طهروا برصا • أقيموا موتى • أخرجوا شياطين • مجانا أخذتم مجانا أعطوا (مت ١٠ : ٧ و ٨) فخرجوا وصاروا يكرزون أن يتوبوا • وأخرجوا شياطين كثيرة ودهنوا بزيت مرضى كثيرين فشفوهم (مر ٦ : ١٢ و ١٣) وجرت على أيدى الرسل آيات وعجائب كثيرة فى الشعب ••• حتى انهم كانوا يحملون المرضى خارجا فى الشوارع ويضعونهم على فرش وأسرة حتى اذا جاء بطرس يخيم ولو ظله على أحد منهم • واجتمع جمهور المدن المحيطة الى أورشليم حاملين مرضى ومعذبين من أرواح نجسة وكانوا يبرأون جميعهم (أع ٥ : ١٢ ــ ١٦) « وهذه الآيات تتبع المؤمنين • يخرجون الشياطين باسمى ويتكلمون بألسنة جديدة • يحملون حيات وان شربوا شيئا مميتا لا يضرهم ويضعون أيديهم على المرضى فيبرأون » (مر ١٦ : ١٧ و ١٨) راجع أيضا (مر ١٦ : ٢٠ ، أع ٨ : ٥ ــ ٨ ، ١٤ : ٨ ــ ١٠ ، ١٩ : ١٠ ــ ١٢)

وبعد أن أثبت أن هذه الموهبة « موهبة الشفاء » تدوم فى الكنيسة (راجع مت ٢٨ : ١٩ و ٢٠ مر ١٦ : ١٥ ــ ١٨ ، ١ كو ١٢ : ٢٨ ، أع ١٠ : ٤٦ و ١٩ : ٦) قال « وهذا العمل منوط بكل خدمة الله ، وهو قسم من العمل المعطى لهم من الله ، ولهذا يقول يعقوب الرسول : أمريض أحد بينكم فليدع قسوس الكنيسة الخ • هذه هى كلمة الله فما المنفعة من نكرانها وحذفها والهزء بها الخ •

الفصل الخامس

حق تتميم السر للكهنة ونتائجه

ان سر المسحة يتم فى الكنيسة منذ العصور الأولى للمرضى بواسطة القسوس حسب قول الرسول « أمريض أحد بينكم فليدع قسوس الكنيسة » وليس الغرض من هذا القول أن لا حق للأساقفة فى اتمامه فان الأساقفة هم خلفاء الرسل ووكلاء سرائر الله (١ كو ٤ : ١) ولا يعقل أن سرا يتممه القسوس ، لا يتممه الأساقفة الذين هم أسمى رتبة منهم ، وانما عين الرسول القسوس هنا لسببين **أولهما** لأنه يمكن لأتمام السر دعوة أكثر من قسيس واحد حيث أنه يمكن وجودهم بكثرة فى مدينة واحدة ، بخلاف الأساقفة الذين لا يوجدون بكثرة ، فضلا عن أن الكتاب يذكر اسم القسوس أحيانا ويريد بهم الأساقفة كما جاء فى (اع ٢٠ : ١٧ و ٢٨) **وثانيهما** لأن الأساقفة مشغولون بمهام كثيرة يتعذر معها عيادة المرضى بأنفسهم ، وكانت العادة قديما تتميم هذا السر بواسطة سبعة قسوس ولكن بما أن الرسول لم يحدد عدد الذين يتممونه وبما أن العدد ليس من الأمور المحتمة فى الكنيسة ، فيمكن أن يتمم بأى عدد أقل من السبعة الى الثلاثة أو الواحد بحسب الظروف ٠

أما نتائج سر المسحة فهى : ـ

أولا ـ شفاء الأمراض الجسدية فانه أعطى لهذه الغاية حسب قول الرسول « أمريض أحد بينكم ٠٠٠ وصلاة الايمان تشفى المريض والرب يقيمه » وقد يكون هذا السر سبب تعزية وقوة لكثيرين فى احتمال أوجاعهم ٠ وأما الذين لا يحصلون على نفع هذا السر فعدم انتفاعهم ناشىء اما من عدم استحقاقهم ، واما لعدم ايمانهم ٠ فعلينا أن نتتمه بكل ايمان واخلاص مسلمين أنفسنا لمشيئة الله الذى وعد بأنه ان طلبنا شيئا حسب مشيئته يسمع لنا (١ يو ٥ : ١٤)

ثانيا ـ شفاء الأمراض الروحية فان **يعقوب الرسول** يقول « وان كان قد فعل خطية تغفر له » وهذا يدل على أن الرسول يفترض بأن المتقدم الى هذا السر بالايمان التام يلقى اتكاله على الله ويندم على خطاياه ويتقدم الى سر التوبة أولا للانتفاع من هذا السر المقدس

أما ما تفعله كنيسة رومية فى هذا السر من عدم منحه الا للمشرفين على الموت بزعم أنه مسحة أخيرة للمريض حتى أنهم لا يمسحونه به الا عند اقتراب وفاته فهو تعليم غريب مخالف لقول **يعقوب الرسول** وأقوال الآباء وعادة الكنيسة القديمة ، ولم تبدأ هذه البدعة الا فى القرن الثانى عشر ٠

٦ — سرّ الزيجة

الفصل الأول

الزيجة من حيث هى ناموس طبيعى ومن حيث هى سر

الزيجة ناموس طبيعى سنه الله تعالى منذ ابتداء الخليقة بدليل قول موسى النبى فى سفر التكوين « فخلق الله الانسان على صورته • صورة الله خلقه • ذكرا وأنثى خلقهم • وباركهم الله وقال لهم أثمروا وأكثروا واملأوا الأرض » (تك ١ : ٢٧و٢٨) وقول الرب بعد خلق آدم « ليس جيدا أن يكون آدم وحده • فأصنع له معينا نظيره » (تك ٢ : ١٨) وعند خلق المرأة قال « فأوقع الرب الاله سباتا على آدم فنام • فأخذ واحدة من أضلاعه وملأ مكانها لحما • وبنى الرب الاله الضلع التى أخذها من آدم أمرأة لأنها من أمرء أخذت • لذلك يترك الرجل أباه وأمه ويلتصق بأمرأته ويكونان جسدا واحدا » (تك ٢ : ٢١ — ٢٤)

ولما فسد البشر وهلك العالم بالطوفان لم يبطل الله هذا الناموس ، بل عاد وثبته كما يقول الكتاب « وبارك الله نوحا وبنيه وقال لهم أثمروا وأكثروا وأملاوا الأرض » (تك ٩ : ١) وقد ثبت الرب يسوع رباط الزيجة وباركه بحضور العرس فى قانا الجليل (يو ٢ : ١ — ١١) ورفع الزيجة الى درجة السر لما أجاب على سؤال الفريسيين ، عما اذا كان مسموحا للانسان أن يطلق امرأته لكل سبب • فقال له المجد « أما قرأتم أن الذى خلق من البدء خلقهما ذكرا وأنثى • وقال • من أجل هذا يترك الرجل أباه وأمه ويلتصق بامرأته ويكون الأثنان جسدا واحدا • اذا ليسا بعد اثنين بل جسد واحد • فالذى جمعه الله لا يفرقه انسان » (مت ١٩ : ٤ — ٦) وقد أكد هذه الحقيقة بولس الرسول بقوله « لأن الرجل ليس من المرأة بل المرأة من الرجل • ولأن الرجل لم يخلق من أجل المرأة بل المرأة من أجل الرجل • غير أن الرجل ليس من دون المرأة ولا المرأة من دون الرجل فى الرب • لأنه كما أن المرأة هى من الرجل هكذا الرجل أيضا هو بالمرأة • ولكن جميع الأشياء هى من الله » (١ كو ١١ : ٨ — ١٢) وقال « اذا من زوج عذراءه فحسنا يفعل » (١ كو ٧ : ٣٧) وحكم بالشجب على الذين يحتقرون رباط الزيجة المقدس (١ تى ٤ : ١ و ٢) وقد حذا حذو الرسل جميع الآباء القديسين فى اعتبارهم أن الزيجة رباط مقدس مؤسس من الله تعالى •

الفصل الثاني

الغاية من الزيجة وتأسيس هذا السر

للزيجة غايتان الغـــاية الأولى هي نمو النوع البشري وحفظه بالتناسل حسب الأمر الالهى « أثمروا وأكثروا واملأوا الأرض » وترتبط بهذه الغاية غاية أخرى وهي نمو وأزدياد أعضاء كنيسة الله ٠

والغاية الثانية هي التعاون والتعاضد ومساعدة كل من الزوجين للآخر وفقا لقـــول الرب : « **ليس جيدا أن يكون آدم وحده ٠ فاصـــنع له معينا نظيره** » ولذلك خلق الله المرأة من ضلع آدم ليكون بينهما اتحاد طبيعي ويكون رباطهما قويا ويعيشا كل حياتهما بدون انفصال ٠ وبعد أن سقط الانسان فى الخطية أضيفت الى الغايتين المذكورتين غاية أخرى هي تحصين الانسان من الخطية وكبح جماح الشهوات بالاقتران الشرعى ، ولذلك قال الرسول « حسن للرجل أن لا يمس امرأة ٠ ولكن لسبب الزنا ليكن لكل واحد امرأته وليكن لكل واحدة رجلها ٠٠٠ ليس للمرأة تسلط على جسدها بل للرجل ٠ وكذلك الرجل أيضا ليس له تسلط على جسده بل للمرأة ٠ لا يسلب أحدكم الآخر » الى أن قال « ولكن أقول لغير المتزوجين وللأرامل انه حسن لهم اذا لبثوا كما أنا ٠ ولكن ان لم يضبطوا أنفسهم فليتزوجوا ٠ لأن التزوج أصلح من التحرق » (١ كو ٧ : ١ ــ ٩) ٠

وبناء على ما تقدم نرى أن الزواج ناموس مقدس أسسه الله تعالى منذ البدء وثبته الرب يسوع ورفع شأنه وسر أن يجعله سرا مقدسا فى كنيسته ، وعلى ذلك نعرفه : بأنه سر مقدس به يرتبط ويتحد الرجل والمرأة اتحادا مقدسا بنعمة الروح القدس للحصـــول على ولادة البنين وتربيتهم التربية المسيحية ٠ وسمى هـــذا السر اكليلا بسبب الأكاليل التى توضـــع فوق رؤوس العروسين وقت اتمام هذا السر المقدس وهى رمز الى اكاليل النعمة والمجد والثبات كما هو مذكور فى صلاة الاكليل ٠

ولم يرد فى انجيل متى كيف أسس الرب يسوع سر الزواج ٠ كما أنه لم يرد ذكر أشـــياء كثيرة غيرها مما صنعه أمام تلاميذه ، كما روى يوحنا الانجيلي بقوله « وآيات أخر كثيرة صنع يسوع قدام تلاميذه لم تكتب فى هذا الكتاب » (يو ٢٠ : ٣٠) ٠

ولقد ارتأى بعض الآباء أن الرب يسوع أسس سر الزيجة لما حضر عرس قانا الجليل وباركه بحضوره (يو ٢ : ١ ــ ١١) وقال بعضهم انه أسسه بخطابه للفريسيين فى الزواج الحقيقى بقوله « فالذى جمعه الله لا يفرقه انسان » (مت ١٩ : ٣ ــ ١٢) ورأى آخرون بأنه له المجد أسسه بعد قيامته من الأموات مدة ظهوره لتلاميذه أربعين يوما وهو يتكلم معهم عن الأمور المختصة بملكوت الله « أى الكنيسة » (أع ١ : ٣) وعلى كل حال فانه من الثابت من أقوال الرسل ومؤلفات الآباء والتقليد الشريف أن سر الزيجة قائم فى الكنيسة منذ تأسيسها • وقال معلمنا بولس بصريح العبارة فى اف (ص ٥) هذا السر عظيم •

وقد بين نفس الرسول واجبات كل من الزوجين بقوله للنساء « أيها النساء اخضعن لرجالكن كما للرب • لأن الرجل هو رأس المرأة كما أن المسيح أيضا رأس الكنيسة وهو مخلص الجسد ولكن كما تخضع الكنيسة للمسيح كذلك النساء لرجالهن فى كل شيء » ، وبقوله للرجال « أيها الرجال أحبوا نساءكم كما أحب المسيح أيضا الكنيسة وأسلم نفسه لأجلها • لكى يقدسها •• كذلك يجب على الرجال أن يحبوا نساءهم • من يحب امرأته يحب نفسه • فانه لم يبغض أحد جسده قط بل يقوته ويربيه كما الرب أيضا للكنيسة • لاننا أعضاء جسمه من لحمه ومن عظامه • من أجل هذا يترك الرجل أباه وأمه ويلتصق بامرأته ويكون الاثنان جسدا واحدا • هذا السر عظيم ولكننى أنا أقول نحو المسيح والكنيسة » (اف ٥ : ٢٢ ــ ٣٢) •

فمن قول الرسول هذا يتضح جليا أن رباط الزيجة يصور اتحاد المسيح بالكنيسة • وعلى هذا المعنى يكون الزواج سرا عظيما لأنه ما دام رباط الزيجة هو صورة حقيقية فى جوهره يصوره سريا اتحاد المسيح بالكنيسة ، وهذا الاتحاد هو بلا ريب مقدس وبرىء من الدنس ، فمن الضرورة أن نسلم بأن الزيجة أيضا قد تقدست فى الشريعة المسيحية وامتلأت نعمة بوجه سرى وأستوفت السر ، وأنها سر من الأسرار المقدسة • خصوصا وأن الرسول يقول : تخضع المرأة لرجلها كما تخضع الكنيسة للمسيح ، وأن يحب الرجل امرأته كما أحب المسيح الكنيسة • فهذه المقابلة لا محل لها على الاطلاق لو لم ينل الزوجان نعمة خاصة بسر الزواج •

وقال هذا الرسول فى رسالته الأولى الى أهل كورنثوس « المرأة مرتبطة بالناموس ما دام رجلها حيا • ولكن ان مات رجلها فهى حرة لكى تتزوج بمن تريد فى الرب فقط » (١ كو ٧ : ٢٩) • وهذا يدل على أن الزيجة منذ أزمنة الرسل كانت تعقد باسم الرب • بمعنى انها كانت عملا مقدسا دينيا بخدمة كنسية منظورة ، مما يدل على انها كانت معتبرة سرا مقدسا من أسرار الكنيسة •

الفصل الثالث

أقوال آباء الكنيسة عن سر الزيجة

يظهر من أقوال آباء الكنيسة اعتبارهم أن الزيجة سر مقدس . قال **القديس اغناطيوس الشهيد** « يجب على المتزوجين والمتزوجات أن يجروا اتحادهم برأى الأسقف ، لكى يكون الزواج مطابقا لارادة الله لا بحسب الشهوة » (رسالة الى بوليكربوس فصل ٦)

وقال العلامة **ترتليانوس** « كيف يمكننا أن نعبر عن سعادة الزيجة التى تعقدها الكنيسة ويثبتها القربان وتختمها البركة » (لامرأته ٢ : ٩) وأشار الى أن الزواج سر مثل باقى الأسرار كالمعمودية والميرون والشركة بقوله « ان الشيطان بما أنه يطلب أن يهدم الحقيقة فيقلد الاسرار الالهية نفسها عند الأمم ، فيعمد بعضا من أتباعه ويعدهم أن تغفر خطاياهم بالمعمودية ، ويختم جبهة أضداده ، ويقيم احتفاليا تقديم الخبز ... ويدعو الكاهن ليبارك الزيجة » (فى الهرطقات فصل ٤)

وقال **القديس غريغوريوس الكبير** « ألم تقترن بالجسد بعد ؟ لا تخف من تتميم ذلك . فأنت طاهر والمسئولية على لأنى أنا عقدته وأنا أعطيتك العروس » (خطاب فى المعمودية فصل ١٨)

وقال **القديس امبروسيوس** « اذا كان من الواجب أن يعقد الزواج بحلة كهنوتية وبركة فكيف يمكن أن تكون زيجة حيث الايمان مختلف ؟ » (رسالة الى ويجيليوس فصل ١٩ و ٢٣ : ٧) وقال « اننا نعترف بأن الله هو سيد الزواج وحارسه ولا يطيق أن يدنس المضجع . فمن يخطىء خطية كهذه يخطىء ضد الله اذ يخالف شريعته ويسىء استعمال نعمته ، ومتى أخطأ ضد الله لا يقدر أن يشترك فى السر الالهى » (فى ابراهيم ١ : ٧)

وقال **القديس اغسطينوس** « ان قداسة السر لها فى زيجتنا (المسيحية) قوة أكثر من قوة ثمرة الأولاد فى الأم » (فى الزيجة ١٨ : ٢١ ، ٢٤ : ٣٢)

وقال **القديس يوحنا ذهبى الفم** عند كلامه ضد الأغانى والاحتفالات غير اللائقة فى الأعراس « قل لى لماذا تسمح من بادىء الأمر بأن تمتلىء آذان ابنتك من الشوائب بالأناشيد القبيحة وبذلك الاحتفال الذى لا محل له ؟ ألست تعلم أن الصبوة (١) سهلة الزلق ؟ لماذا تهتك أسرار الزيجة الموقرة ؟ فانه ينبغى أن ترفض كل هذه وتعلم ابنتك الحيآء (٢) منذ البدء ، وتدعو الكهنة وتعقد اتحاد الأزواج بالصلوات والبركات لكى ينمو شوق العريس وتزداد عفة العروس ، يدخل عمل الفضيلة فى بيتهما بكل وجه » (على التكوين مقالة ٤٨ . ٦)

---

(١) الصبوة أى الشهوة (٢) الحيآء والحياء بمعنى واحد

الفصل الرابع

العمل المنظور في اتمام السر وفعله غير المنظور

ان العمل المنظور فى اتمام سر الزيجة يقوم بأمرين جوهريين : أولها اقرار كلا العروسين علنا قدام الكنيسة بأنهما قابلان الزواج بحريتهما التامة ورضاهما المتبادل ، وتعاهدهما بحفظ الأمانة الزوجية الى آخر نسمة من حياتهما • وثانيهما البركة التى تتم فى العقـــد (١) وصلاة الأكليل اللذين يتممهما الكاهن •

أما فعل النعمة غير المنظور فيقوم بأن النعمة الألهية حسب تعليم الرسول تحول الزيجة الطبيعية الى سر مقدس عظيم يصور اتحاد المسيح بالكنيسة اتحادا سريا • كما قال « هذا السر عظيم ولكننى أنا أقول من نحو المسيح والكنيسة » (اف ٥ : ٣٢)

ولزيادة الايضاح نذكر : ـــ

(١) ان النعمة الألهية تقدس رباط الزيجة وتجعله رباطا روحيـــا لأن اتحاد المسيح بالكنيسة هو اتحاد روحى مقدس ولذلك يقول الرسول ليكن الزواج مكرما عند كل واحد والمضجع غير نجس ••• (عب ١٣ : ٤) « لأن هذه هى أرادة الله قداستكم • أن تمتنعوا عن الزنا • أن يعرف كل واحد منكم أن يقتنى اناءه بقداسة وكرامة • لا فى هوى شهوة كالأمم الذين لا يعرفون الله » (١ تس ٤ : ٣ ـــ ٥) وقال **يوحنا ذهبى الفم** فى هذا المعنى « لأن كل واحد أخذ ما له • فهذا الزواج اذن هو زواج بحسب المسيح • هو زواج روحى وولادة روحية • لا من دم ولا من امخاض كما أن ولادة اسحق هكذا كانت • واسمع ماذا يقول الكتاب المقدس : وقد انقطع أن يكون لسارة عادة كالنساء • فلم يكن الزواج عن هوى ولا كان زواجا جسديا بل كان كله روحيا • زواج نفس اتحدت بالله اتحادا يفوق الوصف كما يعلم هو وحده • ولهذا يقول ان من يلتصق بالرب يكون روحا واحدا • وأنظر كيف يجتهد فى أن يقرن الجسد بالجسد ويجمع بين الروح والروح » (على أفسس مقالة ٢٠ : ٥) •

(٢) ان النعمة الالهية تساعد على أن يدوم رباط الزيجة غير منفصل كما أن اتحاد المسيح بالكنيسة هو اتحاد أبدى كما قال الرب نفسه « فالذى جمعه

---

(١) بركة العقد المشهور بالعقد والاملاك •

الله لا يفرقه انسان » فقد جمع الله بين الزوجين أولا بناموس الزيجة طبيعيا ثم بنعمته التى منحها للمتحدين بالشركة الزوجية ٠

(٣) ان النعمة الالهية تساعد الزوجين مدة حياتهما على اتمام الواجبات المفروضة على كل منهما نحو الآخر حسب النموذج السامى فى اتحاد المسيح بالكنيسة حسب وصية الرسول القائل « أيها النساء اخضعن لرجالكن ٠٠٠ كما تخضع الكنيسة للمسيح » ٠٠٠ وقوله « أيها الرجال أحبوا نساءكم كما أحب المسيح أيضا الكنيسة وأسلم نفسه لأجلها » (اف ٥ : ٢٢ ــ ٢٥) فلو لم تكن فى هــذا السر نعمة لكان اقتداء الزوجين بهذا النموذج يفــوق حدودهما ٠ فبقوة النعمة اذن وبمعاضدتها يؤدى كل من الزوجين واجباته نحو الآخر ويتممان كلاهما مقاصد اتحادهما بالزواج أى الولادة ببركة الله لنمو أعضاء الكنيسة ، ويعين بعضهما بعضا ، ويحفظان نفسهما من كل دنس ٠

الفصل الخامس

الشروط المطلوبة لعقد رباط الزيجة

ان الذين يتقدمون للاقتران بعقد الزواج ينبغى حسب القوانين الكنسية الأرثوذكسية : ـ

أولا ـ أن يكون العروسان مسيحيين لأنه بدون الايمان بالمسيح لا يمكن نيل النعمة الالهية المعطاة بهذا السر أو بغيره • وعلى ذلك تكون الزيجة مع غير المؤمنين ممنوعة بالكلية حسب قول الرسول « لا تكونوا تحت نير مع غير المؤمنين • لأنه أية خلطة للبر والاثم • وأية شركة للنور مع الظلمة • وأى اتفاق للمسيح مع بليعال • وأى نصيب للمؤمن مع غير المؤمن • وأية موافقة لهيكل الله مع الاوثان » (٢ كو ٦ : ١٤ ـ ١٦) •

ثانيا ـ أن يكونا أرثوذكسيين لأنه لا وجه لنوال غير الأرثوذكسيين اكليلا أرثوذكسيا من يد كاهن أرثوذكسى قبل أن يعترف بالايمان الأرثوذكسى• ومتى كان أحد العروسين غير أرثوذكسى فانه يشترط أن ينضم الى الكنيسة الأرثوذكسية **أولا** •

ثالثا ـ أن يكونا بعيدين عن القرابة الجسدية والروحية المعينة درجاتها من قوانين الكنيسة الأرثوذكسية •

رابعا ـ أن يكونا راضيين وقابلين الزواج بتمام الحرية والأرادة المطلقة ، لأن طبيعة رباط الزواج حسب قول الرب هى أن يترك الرجل أباه وأمه ويلتصق بأمرأته ويكون الاثنان جسدا واحدا ، فاتحاد كهذا بين شخصين لا يمكن اتمامه من دون الأرادة الحرة والمحبة المتبادلة •

الفصل السادس

أوصاف الزيجة المسيحية

للزيجة المسيحية صفتان :

الأولى ـ وحدة الزيجة وهى أن يكون للرجل امرأة واحدة ، وللمرأة رجل واحد ، أى منع تعدد الأزواج أو الزوجات · بمعنى أنه لا يجوز زواج رجل مرتبط بامرأة ولا زواج امرأة مرتبطة برجل ·

والثانية ـ عدم انفكاك هذه الزيجة ·

أما الصفة الأولى وهى وحدة الزيجة فتقوم بأن يقترن الرجل الواحد بامرأة واحدة لا أكثر · وهذه الوحدة تنافى (**أولا**) تعدد الأزواج (**ثانيا**) تعدد الزوجات فالأول وهو اقتران المرأة الواحدة برجال كثيرين فى وقت واحد (كما كان عند بعض الأمم) ينافى الشريعة الطبيعية لما فى هذا التعدد من المخالفة للغاية المقصـــودة من الزواج وهى ولادة الأولاد وتربيتهم التربية الصحيحة ، حيث أن قوة النسل تضعف اذ يقل خصب المرأة كثيرا عنـــد اقترانها برجال عديدين ، هذا فضلا عن أن الأولاد فى هـــذه الحالة يبقون مجهولين ، وعليه يضحى الالتزام باتقان التربية غير محقق .

أما الثانى وهو تعدد الزوجات أى اقتران الرجل الواحد بنساء عديدات فيدل على عدم جوازه ما يأتى : ـ

(١) ان الله تعالى لما خلق آدم لم يخلق له سوى امرأة واحدة وقال « لذلك يترك الرجل أباه وأمه ويلتصق بامرأته ويكونان جسدا واحدا » (تك ٢ : ٢٤) فلو أراد الله أن يكون للأنســـان أكثر من امرأة لخلق له نساء عديدات ، خصوصا وأن الحالة وقتئذ كانت داعية لزيادة النوع البشرى · وقصد الله ظاهر فى خلق امرأة واحدة لرجل واحد ، وهذا دليل على أنه سن أن لا يكون للرجل أكثر من زوجة واحدة ·

(٢) ان المخلص له المجد فى جوابه على الفريسيين أعلن وحدة الزيجة ومنع تعدد الزوجات ، اذ أوضح أن الناموس الذى وضعه الله تعالى عند البدء هو أن تكون امرأة واحدة لرجل واحد اذ قال انه خلقهما ذكرا وأنثى

وأنهما ليسا بعد اثنين بل جسد واحد وأن موسى أذن لهم بالطلاق لقساوة قلوبهم ولكن منذ البدء لم يكن هكذا (مت ١٩ : ٤ ـ ٨) .

(٣) ان الرسول بولس صرح بذلك بقوله « ليكن لكل واحد امرأته وليكن لكل واحدة رجلها ٠٠٠ ليس للمرأة تسلط على جسدها بل للرجل • وكذلك الرجل أيضا ليس له تسلط على جسده بل للمرأة ٠٠٠ لاتفارق المرأة رجلها ٠٠٠ ولا يترك الرجل امرأته ٠٠٠ والمرأة مرتبطة بالناموس ما دام رجلها حيا » (١ كو ٧ : ٢ ـ ٥ و ١٠ و ١١ و ٣٩)

(٤) ان الله تعالى أعلن في العهد القديم كراهته للطلاق وتعدد الزوجات ، بقول ملاخي النبي (٢ : ١٤ ـ ١٦) « ان الرب هو الشاهد بينك وبين امرأة شبابك التي أنت غدرت بها وهي قرينتك وامرأة عهدك • فاحذروا لروحكم ولا يغدر احد بأمرأة شبابه لأنه يكره الطلاق قال الرب اله اسرائيل »

(٥) ان تعدد الزوجات مجلبة لأضرار كثيرة عائلية واجتماعية ، ومدعاة للشقاق والانقسام • اذ يضر بغاية الزواج وهي السلام والاتفاق والمحبة في العائلة لان الرجل الواحد لا يستطيع أن يرضي كلا من نسائه وأن يتمم رغبة كل منهن • وكل امرأة منهن تجتهد أن تميله الى غرضها ومحبتها أكثر من سواها ، واذا لم يحب نساءه كلهن محبة متساوية تتولد الخصومات والمشاجرات وينتفي السلام والوفاق من العائلة • واذا أحب الرجل احدى نسائه أكثر من غيرها فانه يميل بالطبع الى أولادها ميلا خاصا ، مفضلا اياهم ، مهملا تربية غيرهم من أولاده ، ولا يخفى ما في ذلك من الاضرار على الهيئة الاجتماعية • أضف الى ذلك أن الرجل الواحد لا يقدر على تأدية الواجب الزوجي الى كل من نسائه فتصبح تلك النساء معرضات لخطر فقدان العفة • فاذن تعدد الزوجات مخالف لسنن الزواج ومضر بالعائلة وبالهيئة الاجتماعية •

والكنيسة مع تحريمها تعدد الزوجات لا تمنع اعادة الزيجة عن الذين يريدون أن يتحدوا بزيجة ثانية رجالا كانوا أو نساء بعد وفاة أحد الزوجين • لأن الموت يحل الرباط بين الزوجين ولا يوجد اذن مانع لعمل رباط جديد بين متعاقدين ، على أن بولس الرسول يفضل عدم زيجة الأرامل لمن استطاع حيث يقول « ولكن أقول لغير المتزوجين وللأرامل أنه حسن لهم اذا لبثوا كما أنا ولكن ان لم يضبطوا أنفسهم فليتزوجوا • لأن التزوج أصلح من التحرق • وقوله « المرأة مرتبطة بالناموس ما دام رجلها حيا ولكن أن مات

رجلها فهى حرة لكى تتزوج بمن تريد فى الرب فقط . ولكنها أكثر غبطة ان لبثت هكذا » (١ كو ٧ : ٨ و ٩ و ٣٩ و ٤٠) .

قال **القديس أغسطينوس** مفسرا آية الرسول فى وصيته للأرامل « من عادة الناس أن يتباحثوا فى مسألة الزواج الثالث أو الرابع وهلم جرا . وعليه فأجيب باختصار ، لا اتجاسر أن اشجب شيئا فى مثل هذا الزواج ولا أقدر أن احدد ما لم يحدده الرسول نفسه ، فانه يقول ان المرأة مقيدة بالناموس ما دام زوجها حيا ، ولم يقل الزوج الأول أو الثانى أو الثالث أو الرابع بل قال ان المرأة مقيدة ما دام رجلها حيا فاذا مات زوجها تعتق فلتتزوج بمن تشاء ، لكن فى الرب فقط ، غير أنه أفضل لها ان استمرت على ما هى عليه . فهل يمكن أن يزاد شىء على هذا الحكم أو يستثنى منه شىء مما يتعلق بهذا الأمر ؟ لا أعلم »

الفصل السابع

عدم انفكاك الزيجة

أما الصفة الثانية للزيجة المسيحية وهى عدم انفكاكها فهى نتيجة طبيعية للناموس الالهى الموضوع منذ البدء الذى شرحه الرب يسوع فى تعليمه فقد قال فى خطبته على الجبل « وقيل من طلق امرأته فليعطها كتاب طلاق واما أنا فأقول لكم ان من طلق امرأته الا لعلة الزنى يجعلها تزنى ومن يتزوج مطلقة فانه يزنى » (مت ٥ : ٣١ و ٣٢) • ونأتى هنا بأقوال الانجيليين فى هذا الموضوع :

قال **القديس متى** « وجاء اليه الفريسيون ليجربوه قائلين له هل يحل للرجل أن يطلق امرأته لكل سبب • فأجاب وقال لهم أما قرأتم أن الذى خلق من البدء خلقهما ذكرا وأنثى • وقال من أجل هذا يترك الرجل أباه وأمه ويلتصق بامرأته ويكون الاثنان جسدا واحدا • اذا ليسا بعد اثنين بل جسد واحد • فالذى جمعه الله لا يفرقه انسان • قالوا له فلماذا أوصى موسى أن يعطى كتاب طلاق فتطلق • قال لهم ان موسى من أجل قساوة قلوبكم أذن لكم أن تطلقوا نساءكم ولكن من البدء لم يكن هذا • وأقول لكم ان من طلق امرأته الا بسبب الزنا وتزوج بأخرى يزنى • والذى يتزوج بمطلقة يزنى • قال له تلاميذه ان كان هذا أمر الرجل مع المرأة فلا يوافق أن يتزوج • فقال لهم ليس الجميع يقبلون هذا الكلام بل الذين أعطى لهم » (مت ١٩ : ٣ — ١١) •

وقال **القديس مرقس** « فتقدم الفريسيون وسألوه • هل يحل للرجل أن يطلق امرأته ليجربوه • فأجاب وقال لهم بماذا أوصاكم موسى • فقال موسى اذن أن يكتب كتاب طلاق فتطلق • فأجاب يسوع وقال لهم من أجل قساوة قلوبكم كتب لكم هذه الوصية ولكن من بدء الخليقة ذكرا وأنثى خلقهما الله من أجل هذا يترك الرجل أباه وأمه ويلتصق بامرأته ويكون الاثنان جسدا واحدا • اذا ليسا بعد اثنين بل جسد واحد • فالذى جمعه الله لا يفرقه انسان • ثم فى البيت سأله تلاميذه أيضا عن ذلك فقال لهم من طلق امرأته وتزوج بأخرى يزنى عليها وان طلقت امرأة زوجها وتزوجت بآخر تزنى » (مر ١٠ : ٢ — ١٢) •

وقال **القديس لوقا** « كل من يطلق امرأته ويتزوج بأخرى يزنى وكل من يتزوج بمطلقة من رجل يزنى » (لو ١٦ : ١٨) •

وقال **بولس الرسول** « أم تجهلون أيها الأخـــوة · لأنى أكلم العارفين بالناموس أن الناموس يسود على الانسان ما دام حيا · فان المرأة التى تحت رجل هى مرتبطة بالناموس بالرجل الحى · ولكن ان مات الرجل فقد تحررت من ناموس الرجل · فاذا ما دام الرجل حيا تدعى زانية ان صارت لرجل آخر ولكن ان مات الرجل فهى حرة من الناموس حتى انها ليست زانية ان صارت لرجل آخر » (رو ٧ : ١ ـ ٣)

وقال جوابا عن أسئلة وجهت اليه من أهل كورنثوس « وأما المتزوجون فأوصيهم ، لا أنا بل الرب ، أن لا تفارق المرأة رجلها · وأن فارقته فلتلبث غير متزوجة أو لتصالح رجلها · ولا يترك الرجل امرأته » (١ كو ٧ : ١٠ و ١١)

فمن هذه النصوص المقدسة يتضح أن الزيجة سر مقدس لا ينفك عقـد رباطها الا لسببين : أولهما المـــوت الذى يجعل الزوج الحى حرا من رباط الزواج ، وثانيهما الزنا الذى ينجس رباط الزيجة · كما يتضح من أن الله تعالى منذ البدء اقضى بأن يكون هذا الرباط مقدسا « لأن الذى جمعه الله لا يفرقه انسان » وعليه فلا يجوز للأنسان أن ينقض ما وضعه الله · ولما اعترض الفريسيون على الرب يسوع بكتاب الطلاق الذى أوصى به موسى قال لهم « ان موسى من أجل قساوة قلوبكم أذن لكم أن تطلقوا نساءكم · ولكن من البدء لم يكن هكذا » وكفى ما قاله آدم معلنا قوة هذه الزيجة « هذه الآن عظم من عظامى ولحم من لحمى »

وقد سمح بالطلاق فى العهد القديم بشروط ، فقد جاء فى سفر التثنية « اذا أخذ رجل امرأة وتزوج بها فان لم تجد نعمة فى عينيه لأنه وجد فيها عيب شىء ، وكتب لها كتـــاب طلاق ودفعه الى يدها وأطلقها من بيته · ومتى خرجت من بيته ذهبت وصـــارت لرجل آخر · فان أبغضها الرجل الأخير وكتب لها كتاب طلاق ودفعه الى يدها وأطلقها من بيته أو اذا مات الرجل الأخير الذى اتخذها له زوجة لا يقدر زوجها الأول الذى طلقها أن يعود يأخذها لتصير له زوجة بعد أن تنجست · لأن ذلك رجس لدى الرب فلا تجلب خطية على الأرض التى يعطيك الرب الهك نصيبا » (تث ٢٤ : ١ ـ ٤) ويحذر سفر اللاويين على الكاهن أن يتزوج من امرأة مطلقة من زوجها لأنه مقدس لالهه · أما الاقتران بامرأة مطلقة فكان مباحا لغير الكاهن ·

وكان الطلاق مكروها من الله كما يستدل من قول الرب على لسان ملاخى النبى « ان الرب هو الشاهد بينك وبين امرأة شبابك التى أنت غدرت بها وهى قرينتك وامرأة عهدك فاحذروا لروحكم ولا يغدر أحد بامرأة شبابه لأنه يكره الطلاق قال الرب اله اسرائيل » ملا ٢ : ١٤ و ١٥

ويظهر مما تقدم : —

(١) أن الطلاق كان مباحا للرجل دون المرأة ·

(٢) أنه لم يكن جائزا للرجل أن يطلق امرأته اذا كان قد دخل بها قبل أن تزوجها ، أو اذا كان قد اشاع عنها سمعة قبيحة ولم تكن الاشاعة صحيحة (راجع تث ٢٢ : ١٩ — ٢٩) ·

(٣) أنه لم يكن جائزا للرجل أن يطلق امرأته من أجل كل علة ، بل من أجل عيب انكره عليها · ويلزم أن يكون هــــذا العيب من نوع التدنس والقباحة كما يستدل على ذلك من القرائن · وعلى الرجل قبل أن يطلقها أن يكتب لها كتاب طلاق ويدفعه الى يدها ، دليلا على أنها أصبحت حرة يمكنها أن تعقد زواجا جديدا مع آخر · واذا ابعضها الزوج الآخر وكتب لها كتاب طلاق أو مات ، فليس لزوجها الأول الذى طلقها أن يعود فيأخذها لتكون زوجة له بعد أن تدنست · قال أحد اللاهوتيين « ان موسى سمح لهم بالطلاق منعا لشر اعظم وهو قتل الأمرأة لأن اليهود كانوا ميالين لارتكاب مثل هذه الجريمة »

أما فى العهد الجديد فقد أعاد الرب يسوع الزواج الى وضعه الأصلى الذى وضعه الله منذ البدء · ولذلك لم يبح زواج المرأة المطلقة بسبب الزنا · وقد سارت الكنيسة المسيحية على هذا السنن منذ نشأتها حتى أصبح معروفا لدى الجميع أن الزواج المسيحى لا يقبل الانفكاك الا بالموت ، أو بتلك العلة التى تدنس رباط الزيجة ·

قال **القديس أكليمنضس الأسكندرى** « ان الكتب المقدسة بنصائحها عن الزواج وبمنعها المفارقة منعا قطعيا قررت هذه الشريعة ان لا تهجر امرأتك الا لعلة الزنا · وتعتبره رواجا زنائيا كل زواج يعقده أحد المفترقين ما دام الآخر فى قيد الحياة ··· لأنه كتب من تزوج مطلقة فقد زنى » (الكتاب المسمى استروماتا ك ٢ ف ٢٣) ·

وقال العلامة أوريجانوس « ان سماح بعض رؤساء الكنائس بأن المرأة تتزوج برجل آخر فى حياة زوجها مضاد الشريعة الكتاب المقدس · لانهم خالفوا ما كتب · ان المرأة مرتبطة ما دام رجلها حيا · فمن ثم ما دام رجلها حيا أن صارت لرجل آخر فانها تدعى زانية · ولكن لا يخلو عملهم هذا من عذر لأنهم ربما تساهلوا بمخالفة الشريعة المسطرة والمقررة من البدء منقادين لارادة الغير تلافيا لشرور أعظم » (فى شرحه انجيل متى كتاب ١٤) ·

وقال **القديس أمبروسيوس** « لا يجوز لك وزوجتك حية أن تقتـــرن بغيرها · لأن اقترانك بزوجة ثانية وأنت مقيد بزوجة لهو زنا حقيقى » (ك ١ على ابراهيم فصل ٧) ·

وقال **القديس أغسطينوس** « انها الشريعة تعلمها الكنيسة أنه لا يجوز أن يترك الرجل امرأته العاقر ليأخذ امرأة أخرى كثيرة النسل فمن يفعل ذلك يجرم بالزنا فى حق الشريعة الانجيلية » (مقالة فى الزواج ك ١ فصل ١٠ عدد ١١) .

وقال **القديس غريغوريوس الثاولوغوس** « ان شريعتنا تحرم الطلاق وان كانت الشرائع المدنية تحكم بخلاف ذلك » (فى رسالته الى أولمبيوس)

سئل **القديس تيموثاوس** البطريرك الثانى والعشرون من بطاركة الأسكندرية ان كانت امرأة مبتلية بروح شرير بهذا المقدار حتى انها تربط بسلاسل وأغلال ويقول زوجها اننى لا أقدر ان أضبط ذاتى ويريد أن يتزوج غيرها . هل يجوز له أن يأخذ غيرها أم لا ؟ فاجاب : ان هذا الأمر قد يتداخله فسق كما يبين لى فما عندى ولا أجد ما اجاوب به عن ذلك » .

ومن الرواية الآتية يتبين شدة تمسك المسيحيين بعقد الزواج وتحريمهم الطلاق . فقد ذكر جمال الدين القفطى فى تاريخ الحكماء (صحيفة ١٥٩ وابن أبى أصيبعة فى طبقات الأطباء (جزء أول صحيفة ١٢٤ ، ١٢٥) وابن العبرى فى تاريخه مختصر الدول (صحيفة ٢١٤) أن أباجعفر المنصور قال لجورجيس ابن بختيشوع الطبيب الشهير (سنة ٧٧٠) من يخدمك ههنا قال تلامذتى . فقال المنصور سمعت انه ليس لك امرأة . فقال : لى زوجة كبيرة ضعيفة لا تقدر على النهوض من موضعها . ثم انصرف من الحضرة ومضى الى البيعة . فأمر المنصور خادمه سالما أن يختار من الجوارى الروميات الحسان ثلاثا ويحملهن الى جورجيس مع ثلثة آلاف دينار . ففعل ذلك . فلما انصرف جورجيس الى منزله عرفه عيسى بن تهلاها تلميذه بما جرى وأراه الجوارى . فانكر أمرهن وقال لعيسى . ياتلميذ الشيطان لم أدخلت هؤلاء الى منزلى ؟ أردت أن تنجسنى . أمض وردهن الى أصحابهن ، ثم ركب جورجيس ومعه عيسى مع الجوارى ومضى الى دار الخليفة وردهن على الخادم . فلما اتصل الخبر بالمنصور احضره وقال لم رددت الجوارى ؟ قال لا يجوز أن يكون مثل هؤلاء فى منزلى لاننا معشر النصارى لا نتزوج أكثر من امرأة واحدة . وما دامت المراة حية لا نأخذ غيرها . فحسن موقع هذا مع المنصور . وأمر فى الوقت أن يعالج جورجيس حظاياه وحرمه وزاد موضعه عنده . وهذا ثمرة العفة »

وللطلاق مضار كثيرة نذكر منها : —

أولا — انه يضاد الناموس الزوجى وينافى الغاية التى من أجلها انعقد فيصبح أحد الزوجين به أسوأ حالا من الآخر . فالرجل لا يفقد من شرفه الا قليلا . أما المرأة فتفقد شرفها وتضحى محتقرة وبالكاد تستطيع أن تعقد زواجا آخر جديدا .

ثانيا ـ انه يضر بسعادة الزوجين لأنه يزيل المحبة المتبادلة بينهما ويهدم ما كان قد بناه الزوجان من الاخلاص مدة سنين طويلة ، وسعادة المحبة وأساسها الدوام والثبات • والحب الذى بين الرجل وامرأته عظيم جدا حتى شبه باتحاد المسيح بالكنيسة • اذ يترك الرجل أباه وأمه ويلتصق بامرأته• فالطلاق ينزع هذا الرباط ، ويلاشى هذا الأساس المتين ، وينمى الخلاف ، ويكثر الشقاق ، ويفتح أبواب الشر بين العائلات •

ثالثا ـ انه يضر بتربية النسل التربية الصحيحة ، فان الأولاد فى حاجة الى مساعدة كل من الوالدين ، ليس فى زمن الطفولة فقط بل مدة الحياة كلها • فان الأولاد بعد أن يتغذوا ويقتاتوا من ألبان أمهاتهم يحتاجون الى عناية الآباء • وهم دائما فى شديد الحاجة الى محبة الأم وعطفها الحلو ، وعنايتها الساهرة ، والى سلطة الأب وحكمته السامية • وهذا يقتضى اتحاد الزوجين • أما الطلاق فيفصل هذا الاتحاد ويضر ضررا بليغا بمصلحة الأولاد • فالى أية جهة يتجه الأولاد ؟ ان لحقوا الأب خسروا محبة أمهم ، واذا تبعوا الأم خسروا سلطان الأب وعنايته ، وفى كلتا الحالتين خسارة الأخلاق وفقد الصيت الحسن •

رابعا ـ انه يضر بخير الجماعة لأنه ينزع السلام من العائلات ويلقى الشقاق بين أفراد الهيئة الاجتماعية • فكما أن بالزواج تتحد العائلات ، وتنضم بعضها الى بعض ، وتشتد روابط الحب ووثائق الألفة • فهكذا بعكس ذلك الطلاق فانه ينشىء الانشقاقات وبه ينتشر البغض وتشتد العداوات • وهذا كله مما ينزع السلام من المجتمع ويعم الخراب • أضف الى ذلك أنه يفسد الآداب السليمة اذ فيه نكث العهود وعدم الوفاء وتصبح غاية الانسان اتباع شهواته الجسدية •

أما اعتراضات الذين يصورون تعاسة الزوجين من خصام وشقاق • ويقولون ان الأفضل لمثل هذين الزوجين الانفصال بعضهما عن بعض • وأن يعقد كل منهما عقدا جديدا ، أفضل من تلك الحياة المملوءة شقاء وتعاسة • فيرد عليهم بأن العقل يقضى بتفضيل خير الجماعة على خير الأفراد ، وخير الجماعة البشرية يقتضى أن لا يفتح السبيل الى مثل تلك النتائج السيئة التى تنجم عن الطلاق • فاذا لحق ضرر ببعض الأفراد من جراء صرامة ناموس الزواج ، فليس ذلك مسوغا لفسخ شريعة من شأنها ايجاد السلام وخير الجماعة وسعادة المتزوجين • أضف الى ذلك أن الناموس وضع للجماعات وليس للأفراد ، وان هذا الناموس ليس ناموسا بشريا يمكن تغييره وانما هو ناموس الهى ينبغى الخضوع له • هذه شريعة قد وضعها الله نفسه ويسوع المسيح شرحها فمن أحق بأن يصدق ويتبع • المسيح أم هوى القلب البشرى ؟

ففى شريعة الكمال هذه وفى هذه القداسة يجب أن يصان سر الزواج حفظا للآداب وضمانا لسعادة الأسرة وتأييدا للعمران

الفصل الثامن

حالة البتولية أشرف من حالة الزواج

ان بولس الرسول الذى شرح سر الزيجة شرحا وافيا وقال عنه « هذا سر عظيم » وقال « ليكن الزواج مكرما عند كل واحد والمضجع غير نجس » (عب ١٣ : ٤) قد فضل حالة البتولية على حالة الزواج حيث قال « لأنى أريد أن يكون جميع الناس كما أنا • لكن كل واحـــد له موهبته الخاصة من الله الواحد هكذا والآخر هكذا • ولكن أقول لغير المتزوجين وللأرامل انه حسن لهم اذا لبثوا كما أنا ولكن ان لم يضبطوا أنفسهم فليتزوجوا • لأن التزوج أصلح من التحرق وأما العـــذارى فليس عندى أمر من الـــرب فيهن ولكننى أعطى رأيا كمن رحمه الرب أن يكون أمينـــا • فأظن أن هذا حسن لسبب الضيق الحاضر ، انه حسن للانسان أن يكون هكذا • أنت مرتبط بامرأة فلا تطلب الانفصال • أنت منفصل عن امرأة فلا تطلب امرأة • لكنك وأن تزوجت لم تخطىء • وأن تزوجت العذراء لم تخطىء • ولكن مثل هؤلاء يكون لهم ضيق فى الجسد • وأما أنا فانى اشفق عليكم • فاقول هذا أيها الأخوة الوقت منذ الآن مقصر لكى يكون الذين لهم نساء كأن ليس لهم • والذين يبكون كأنهم لا يبكون والذين يفرحون كأنهم لا يفرحون والذين يشترون كأنهم لا يملكون • والذين يستعملون هذا العالم كأنهم لا يستعملونه • لأن هيئة هذا العـــالم تزول • فأريد أن تكونوا بلا هم • غير المتزوج يهتم فى ما للرب كيف يرضى الرب • وأما المتزوج فيهتم فى ما للعالم كيف يرضى امرأته • ان بين الزوجة والعذراء فرقا • غير المتزوجة تهتم فى ما للرب لتكون مقدسة جسدا وروحا • وأما المتزوجة فتهتم فى ما للعالم كيف ترضى رجلها ••• اذا من زوج فحسنا يفعل ومن لا يزوج يفعل أحسن • المرأة مرتبطة بالنـــاموس ما دام رجلها حيا • ولكن ان مات رجلها فهى حرة لكى تتزوج بمن تريد فى الرب فقط • ولكنها أكثر غبطة ان لبثت هكذا بحسب رأيى » (١ كو ٧ : ٧ ـ ٤٠)

فمن أقوال بولس الرسول هذه يتضح أن حالة العزوبة أشرف من حالة الزواج • وهذه المقابلة ليست مطلقة بل بالنسبة الى الحـــالة فى ذاتها لا الى الأشخاص • فقد يوجد أشخاص متزوجون أفضل من كثيرين ممن يعيشون فى حالة العزوبة • ولا نقصد المقابلة بين حالة العزوبة والزواج من حيث هو سر • بل نقصد المقابلة بين حالة البتولية وحالة الزواج باعتبار كونها حالة لا باعتبار كونها سرا • وليس المراد بحالة العزوبة الخلو من رباط الزواج ، فقد يتفق أن تكون تلك الحالة مقرونة بسيرة رديئة ، بل المقصود هنا بحالة

البتولية ، تلك الحالة التى يقضى فيها المرء حياة نقية طاهرة منزهة عن شهوات الجسد ، وعلى ذلك نقول ان هذه الحالة أفضل وأشرف من حالة الزواج بالأدلة الآتية : —

أولا — من تعليم الكتاب فقد قال الله تعالى « ولا يقل الخصى ها أنا شجرة يابسة • لأنه هكذا قال الرب للخصـــيان الذين يحفظون سبوتى ويختارون ما يسرنى ويتمسكون بعهدى • انى أعطيهم فى بيتى وفى اسوارى نصبا واسما أفضل من البنين والبنات • اعطيهم اسما ابديا لا ينقطع » (اش ٥٦ : ٣ — ٥) وقال الرب يسوع لتلاميذه عندما قالوا ان كان هكذا أمر الرجل مع المرأة فلا يوافق أن يتزوج « ليس الجميع يقبلون هذا الكلام بل الذين أعطى لهم لأنه يوجد خصـــيان ولدوا هكذا من بطون امهاتهم • ويوجد خصيان خصاهم الناس • ويوجد خصيان خصوا أنفسهم لاجل ملكوت السموات • من استطاع أن يقبل فليقبل » (مت ١٩ : ١٠ — ١٢) ولما قال له بطرس « ها نحن قد تركنا كل شيء وتبعناك • فأجاب يسوع وقال الحق أقول لكم ليس أحد ترك بيتا أو اخوة أو أخوات أو أبا أو أما أو امرأة أو أولادا أو حقولا لأجلى ولأجل الانجيـــل • الا ويأخذ مئة ضعف الآن فى هذا الزمان بيوتا وأخوة واخوات وأمهات وأولادا وحقولا مع اضـــطهادات وفى الدهر الآتى الحيوة الأبدية » (مر ١٠ : ٢٨ — ٣٠) فمن أقوال مخلصنا له المجد يتضح أن الذين يكرسون ذواتهم بالبتولية ويعيشون بطهارة وقداسة لأجل اسمه ولأجل الانجيل ، لهم مرتبة رفيعة ، وحالتهم أفضـــل من حالة الذين يرتبكون بأمور العـــالم ، خصوصا وأنه له المجـــد يبين حالة النفوس فى الســـماء لأنهم لا يزوجون ولا يتزوجون بل يكونون كملائكة الله فى السماء » (مت ٢٢ : ٣٠) •

قال **القديس أيرونيموس** « هكذا ينبغى أن نفهم كلام المســـيح ••• يسرنى أولئك الذين صاروا خصيانا بارادتهم غير مجبرين • انى بملء الرضى أقبل فى أحضانى اولئك الذين قد امتنعوا عن الزواج لأجل ملكوت الله • أولئك الذين لم يريدوا أن يكونوا كما ولدوا (١) مخصصين ذواتهم لعبادة الله ، ايمانهم عظيم وفضيلتهم سامية لأنهم صاروا هيكل الله النقى ، لانهم قدموا ذواتهم بكليتها ضحية للرب لأنهم حسب قول الرسول تقدسوا بالجسد والروح » (ضد يوفينيانوس ك ١ ف ٧) •

ثانيا — ان الحالة التى فيها يفضـــل الخير الروحى على الزمنى ، وخير النفس على خير الجسد ، هى أشرف وأسمى حالة ، وغاية البتولية هى الخير

---

(١) يعنى أن الذين خصوا أنفسهم لأجل خدمة ملكوت الله لشدة حبهم الألهى لم يريدوا أن يبقوا جسديين كما ولدوا ، بل عاملين ببذل وتضحية •

الروحى لأنها ترذل شهوات الجسد حتى المسموح بها ، وذلك لأجل محبة الله ، وغايتها أيضا خير النفس لأنها تعدها للحياة الروحية والتأمل والصلاة وخدمة الله • أما غاية الزواج فهى خير الجسد وتكثير النسل البشرى • فحالة البتولية اذا أفضل من حالة الزواج •

وليست البتولية حالة مستحيلة كما يظن البعض ، فقد استطاعها كثيرون عاشوا فى غاية الطهارة ، وتسلحوا بالفضيلة ، وسلكوا كأنوار فى العالم • نعم انها حالة صعبة ومستحيلة على الذين ليست لهم دعوة البتولية والذين لا يستعملون الوسائط اللازمة لحفظها ، ولكنها سهلة على الذين يهربون من أسباب الخطية ويسلكون بحسب النعمة ويقمعون شهوات الجسد ويصلبون أهواءهم بالأمانة والتعب والصلاة والصوم والأشغال • ثم يواظبون على العبادة وتلاوة الكتب المقدسة •

ثالثا ـ لا صحة لما يزعمه البعض من أن البتولية لا تساعد على الخير العام كالزواج ، لأن البتولية تساعد كثيرا على عمل الخير والمثل الصالح وقهر الشهوات وممارسة أفعال الرحمة والعناية بالفقراء والأيتام والمرضى وكثيرا ما جلبت خيرا على الجنس البشرى بأعمال التضحية ، ومن نظر الى أعمال الرهبنات وتاريخها المجيد وما قامت به قديما وحديثا من انشاء المدارس والملاجىء وأعمال الخير لا ينكر فضلها • فلو كان هؤلاء مقيدين بقيود الزواج وأثقاله وهموم العائلة والأولاد لكانت هذه المشاغل عائقا كبيرا لهم عن أداء تلك الأعمال •

أضف الى ذلك أن النفس التى تكون فى حالة البتولية مجردة من كل شهوة جسدية تتصرف بملء التصرف فى قواها وتسيرها كيف شاءت ، وكذلك الجسد وهو فى حالة البتولية يكون غير خاضع للتحول السريع ويخدم النفس الى أمد بعيد وديعا هادئا مطيعا •

رابعا ـ رب معترض يعترض بأن البتولية مخالفة لقول الله تعالى « اكثروا واثمروا واملأوا الأرض » وقوله « ليس حسنا أن يكون آدم وحده » ـ فنقول ان هذه الأقوال لا تضاد البتولية ولا تنكرها عندما تكون البتولية غير مضرة بنمو الجنس البشرى فلقد أراد البارى تعالى نمو الجنس البشرى وتكاثره بواسطة الزواج ، لكن هل تدعو الضرورة لبلوغ هذه الغاية الى اشتراك كل فرد من أفراد الجنس البشرى بهذا النمو من غير استثناء ؟ لعمرى أن ذلك بعيد عن الصواب • والواقع خلاف ذلك لأن العالم مكتف من النمو وقد كثر عدد العاجزين عن الزواج طبعا • وعندما قال الله هذه الأقوال وجهها الى الانسانين الأولين آدم وحواء ، اذ لم يكن فى العالم سواهما • وعليهما يتوقف

نمو الجنس البشرى ، فتكاثرهما ونموهما كان واجبا ، واليهما اتجه امر الله هذا لا الى عامة الجنس البشرى من غير استثناء • بل بالعكس يستفاد من ذات الآية أنها وصية آمرة ، ومجرد كونها آمرة ينفى عنها الشمول العام الذى هو شأن الوصايا الناهية ، وبالتالى فليست ملزمة فى كل الأحوال ولكل فرد من الآنام •

خامسا ـ وأخيرا نرد على الذين يقولون ان القـــدماء أنكروا العـزوبة وقاوموها ، بأن لا صحة لهذا الكلام فقد كان كهنة ازيس عند المصريين ملزمين بحفظ العفة ، والعذارى اللواتى كن مخصصات لخدمة الشمس عند الفرس كن بتوليات ، وكهنة أثينا وتلامذة ديوجين وأكثر أتباع فيثاغوس وكل الذين كانوا مكرسين لخدمة آلهة كانوا غير مرتبطين بزواج • وقد كان فى تراكيا (من أقاليم مملكة اليونان) شركة اسمها شركة العزاب • نعم أن ليكورغوس اليونانى سنة ٨٨٤ ق٠م٠ طعن فى العزوبة ، وشرائع يوليانوس حتمت بوضع حد للعزاب والسبب فى ذلك أن أولئك الذين كانوا يعيشون فى حالة العزوبة ما كانوا يقصدون منها حفظ نفوسهم بالطهارة والفضيلة ، وانما قصدوا ارخاء العنان لشهواتهم هاربين من روابط الزواج لئلا تلجم شهواتهم ، فتلك العزوبة لا تدل الا على فساد الأخلاق ، وشتان بينها وبين البتولية الطاهرة المقدسة التى نتكلم عنها •

٧ - سرّ الكهنوت

الفصل الأول

ارتباط هذا السر بباقي الأسرار وتعريفه

قد بينا فيما سبق أن الأسرار تنشىء النعمة فى النفوس ، وتفيض بركات المسيح على المؤمنين . ولما كان المسيح مخلصنا هو الذى باستحقاقه وموته عنا نلنا جميع النعم ، لزم أن الأسرار تستمد قوتها من استحقاقه هذا ، لأنه هو الذى كفر عن خطايانا (١ يو ٢ : ٢) وهو الذى استحققنا به النعم اللازمة للتبرير والخلاص « لأنه ان كان بخطية الواحد قد ملك الموت بالواحد فبالأولى كثيرا الذين ينالون فيض النعمة وعطية البرسيملكون فى الحياة بالواحد يسوع المسيح . فاذا كما بخطية واحدة صار الحكم على جميع الناس للدينونة هكذا ببرر واحد صارت الهبة الى جميع الناس لتبرير الحياة » (رو ٥ : ١٧ و ١٨) والمسيح له المجد لم يكن سفيرا ووكيلا كما كان موسى فى العهد القديم ، بل كان باستحقاقاته غير المتناهية منشئا للعهد الجديد وضامنا له ، كما يقول بولس الرسول « لاحظوا رسول اعترافنا ورئيس كهنته المسيح يسوع . حال كونه أمينا للذى أقامه كما كان موسى أيضا فى كل بيته . فان هذا قد حسب أهلا لمجد أكثر من موسى بمقدار ما لبانى البيت من كرامة أكثر من البيت لان كل بيت يبنيه انسان ما ولكن بانى الكل هو الله . وموسى كان أمينا فى كل بيته كخادم شهادة للعتيد أن يتكلم به . وأما المسيح فكأبن على بيته . وبيته نحن » (عب ٣ : ١ - ٦) وفى هذا العهد أقيم المسيح كاهنا الى الابد على رتبة ملكى صادق (راجع عب ص ٧و٨) وهو رأس الكنيسة (اف ٤ : ١٥ وكو ١ : ١٨) فلا نعمة ولا موهبة روحية تستمد الا من استحقاقاته ولا تفاض علينا بركة الا به . وان كل سلطة روحية وكل وسيلة من وسائل النعمة ووسائط الخلاص المودعة فى كنيسته لا تقتبس ولا تصدر الا عن جوده وكرمه . وهذه النعم والبركات التى أودعها مخلصنا فى كنيسته قد أمر خدامه بمباشرتها وأعطاهم سلطانا على توزيعها على المؤمنين . فقد قال له المجد « دفع الى كل سلطان فى السماء وعلى الارض . فاذهبوا وتلمذوا جميع الامم وعمدوهم باسم الآب والابن والروح القدس . وعلموهم أن يحفظوا جميع ما أوصيتكم به . وها أنا معكم كل الأيام الى انقضاء الدهر » (مت ٢٨ : ١٨ - ٢٠) وقال لهم

أيضا « كما أرسلنى الآب ارسلكم أنا • ولما قال هذا نفخ وقال لهم اقبلوا الروح القدس • من غفرتم خطاياه تغفر له • ومن أمسكتم خطاياه أمسكت » (يو ٢٠ : ٢١ — ٢٣) •

ينتج من ذلك أن الرب يسوع أنشأ الأسرار ومنحها ، وشاءت ارادته أن يوزعها فى كنيسته بواسطة خدام أقامهم ووعدهم بأن يكون معهم كل الأيام • وقد قال بولس الرسول « وهو أعطى البعض أن يكونوا رسلا • والبعض انبياء • والبعض مبشرين • والبعض رعاة ومعلمين • لأجل تكميل القديسين لعمل الخدمة لبنيان جسد المسيح » (اف ٤ : ١١ و ١٢) •

وهؤلاء الذين يقامون لخدمة الكنيسة وتوزيع نعم الله وبركاته وأسراره التى أنشأها يمتازون عن باقى الشعب بهذه الرتبة بمقتضى الترتيب الالهى وينالون هذه الموهبة بواسطة طقس احتفالى بوضع اليد عليهم ، وهذا ما يسمى بسر الكهنوت أو سر الدرجة •

ويراد بهذا السر رتبة الاكليريكيين المكرسين للوظائف المعينة بالكنيسة ، ومنزلة هذه الدرجة تسمو فوق كل سمو لأن ما يتولاه الكاهن من السلطان على غفران الخطايا وعلى تقديم سر جسد المسيح ودمه مما يفوق إدراك العقل البشرى •

وقد عرف بعضهم هذا السر بأنه سر يقلد ولاية روحية ، ويخول نعمة مباشرة الخدم الكنسية كما ينبغى ، وعرفه آخرون بأنه عمل مقدس ، به يضع الأسقف يده على رأس الشخص المنتخب ويطلب من أجله فتنسكب عليه النعمة الالهية التى ترفعه الى احدى درجات الكهنوت ، وتساعده على اتمام واجباته الكهنوتية • وعلى ذلك فان هذا السر لا يخول فقط النعمة بل يخول أيضا السلطان لمباشرة الخدم الروحية الكنسية من أسرار وغيرها ، ويدعى هذا السر شرطونية (أى وضع اليد) •

الفصل الثانى

الكهنوت من حيث هو رتبة مختصة بافراد معينين فى الكنيسة

ان الذين انشقوا عن الكنائس الرسولية لا يعترفون بأن المسيح أقام فى كنيسته وظيفة خاصة أعنى وظيفة الكهنوت ويزعمون أن جميع المؤمنين هم كهنة الله العلى · وهذا مخالف لتعليم الكتاب · وسنبرهن فيما يأتى على أن المخلص له المجـــد أقام هو بنفسه فى كنيسته صفا خصوصيا لهذه الرتبة ، وخول الذين انتخبهم القوة ومنحهم السلطان ليكونوا معلمين وخداما ، وسلم لهم ما سلم من الخدم التى يجب أن يتمموها · ولم يسمح بهذه الوظائف لأحد غيرهم من عامة المؤمنين : ــ

أولا ــ ان الرب يسوع اختار بنفسه من بين تلاميذه اثنى عشر تلميذا معروفين باسمائهم وسماهم رسلا · وقال **لوقا الانجيلى** « وفى تلك الأيام خرج الى الجبل ليصلى · وقضى الليل كله فى الصلاة لله · ولما كان النهار دعا تلاميذه واختار منهم اثنى عشر الذين سماهم ايضا رسلا الخ » (لو ٦ : ١٢ و ١٣) وقال **متى الانجيلى** « هؤلاء الاثنا عشر أرسلهم يســوع وأوصاهم قائلا : الى طريق أمم لا تمضوا والى مدينة للسامريين لا تدخلوا · بل اذهبوا بالحرى الى خراف بيت اسرائيــل الضـــالة ··· أكرزوا قائلين انه قد اقترب ملكوت السـمـــوات ··· ومن لا يقبلكم ولا يسمع كلامكم فاخرجوا خارجا من ذلك البيت أو من تلك المدينة وانفضوا غبار أرجلكم ··· من يقبلكم يقبلنى ومن يقبلنى يقبل الذى أرسلنى » (مت ١٠) وفى انجيل يوحنا قال لتلاميذه « ليس أنتم اخترتمونى بل أنا اخترتكم وأقمتكم لتذهبوا وتأتوا بثمر ويدوم ثمركم » (يو ١٥ : ١٦)

ثم انه له المجد عين سبعين آخرين أيضا وأرسلهم اثنين اثنين أمام وجهه الى كل مدينة وموضع حيث كان هو مزمعا أن يأتى وقال لهم أنا أرسلكم مثل حملان بين ذئاب ··· الخ (لو ١٠ : ١ ــ ٤)

ثانيا ــ انه له المجد اعطى هؤلاء الرسل السلطان والحقوق فى تعليم الأمم واتمام الاسرار · فقد قال لهم وحدهم « دفع الى كل سلطان فى السماء وعلى الأرض · فاذهبوا وتلمذوا جميع الأمم وعمدوهم باسم الآب والأبن والروح القــدس · وعلموهم أن يحفظوا جميع ما أوصيتكم به · وها أنا معكم كل

الأيام الى انقضاء الدهر » (مت ٢٨ : ١٨ ـ ٢٠) ولهم وحدهم قال عن سر جسده ودمه الأقدسين « اصنعوا هذا لذكرى » (لو ٢٢ : ١٩) وأيضا « كما ارسلنى الآب ارسلكم أنا • ولما قال هذا نفخ وقال لهم اقبلوا الروح القدس • من غفرتم خطاياه تغفر له • ومن امسكتم خطاياه أمسكت » (يو ٢٠ : ٢١ و ٢٢)

ثالثا ـ لما ارسل تلاميذه الاثنى عشر والسبعين وأمرهم بالكرازة بالانجيل للخليقة كلها (مر ١٦ : ١٥) قال لهم « وها أنا معكم كل الأيام الى انقضاء الدهر » (مت ٢٨ : ٢٠)

فمن قوله لتلاميذه ها أنا معكم الى انقضاء الدهر ، يستدل على حضور المسيح الدائم فى كنيسته ومساعدته لخلفائهم الذين يقومون من بعدهم فى وظيفتهم • أضف الى ذلك أنه أمر بطاعتهم واكرامهم وعدم مخالفتهم • فقد قال « وأية مدينة دخلتموها ولم يقبلوكم فاخرجوا الى شوارعها وقولوا حتى الغبار الذى لصق بنا من مدينتكم ننفضه لكم وأقول لكم انه يكون لسدوم فى ذلك اليوم حالة أكثر احتمالا مما لتلك المدينة • الذى يسمع منكم يسمع منى والذى يرذلكم يرذلنى • والذى يرذلنى يرذل الذى أرسلنى » (لو ١٠ : ١٠ ـ ١٦)

رابعا ـ بعد صعود المخلص الى السماء اجتمع الرسل « وأقاموا اثنين يوسف الذى يدعى بارسابا الملقب يوستس ومتياس • وصلوا قائلين : أيها الرب العارف قلوب الجميع عين أنت من هذين الأثنين أيا اخترته • ليأخذ قرعة هذه الخدمة والرسالة التى تعداها يهوذا ليذهب الى مكانه • ثم ألقوا قرعتهم فوقعت القرعة على متياس فحسب مع الاحد عشر رسولا » (أع ١ : ٢٣ ـ ٢٦) وذكر فى سفر الأعمال عن الرسل « وبينما هم يخدمون الرب ويصومون قال الروح القدس افرزوا لى برنابا وشاول للعمل الذى دعوتهما اليه • فصاموا حينئذ وصلوا ووضعوا عليهما الأيادى ثم أطلقوهما » (أع ١٣ : ٢ و ٣)

خامسا ـ ان الرسل القديسين أقاموا فى الكنائس التى أسسوها أساقفة وشمامسة ، ومنحوهم موهبة الخدمة بوضع أيديهم عليهم • كما أمروهم أن ينوبوا عنهم فى سياسة الكنيسة ، وخولوا لهم سلطان اقامة الأساقفة القسوس فى كل مدينة لرعاية شعب الله واتمام الخدمة الالهية •

ففى سفر أعمال الرسل كرسوا شمامسة ووضعوا عليهم الأيادى (أع ٦ : ٤ ـ ٦) وانتخب بولس وبرنابا قسوسا فى كل كنيسة ثم صليا

بأصوام واستودعاهم للرب الذى كانوا قد آمنوا به (أع ١٤ : ٢٣) وقال بولس الرسول لتلميذه تيموثاوس « وما سمعته منى بشهود كثيرين أودعه أناسا امناء يكونون اكفاء أن يعلموا آخرين أيضا » (٢ تى ٢ : ٢) « لا تهمل الموهبة التى فيك المعطاة لك بالنبوة مع وضع أيدى المشيخة » (١ تى ٤ : ١٤) وقال لتيطس « من أجل هذا تركتك فى كريت لكى تكمل الأمور الناقصة وتقيم فى كل مدينة قسوسا كما أوصيتك » (تى ١ : ٥) وبين لهم المؤهلات الخاصة التى بموجبها ينتخبون الأساقفة والقسوس والشمامسة والأوصاف الخاصة التى تميز المدعوين الى هذه الرتب والقوانين لمكافأة الذين يحسنون الخدمة (راجع ٢ تى ٢ : ٢ ، تى ١ : ٥ ـ ٩ ، اتى ٣ : ١ ـ ١٠ ، ٥ : ٩ و ١٧ و ٢٢ ، تى ١ : ٥ ـ ١٦) وقال « ولا يأخذ أحد هذه الوظيفة بنفسه بل المدعو من الله كما هرون أيضا » (عب ٥ : ٤) « وكيف يسمعون بلا كارز • وكيف يكرزون ان لم يرسلوا » (رو ١٠ : ١٤ و ١٥) « فوضع الله أناسا فى الكنيسة أولا رسلا ثانيا أنبياء ثالثا معلمين ثم قوات وبعد ذلك مواهب شفاء أعوانا تدابير وأنواع ألسنة • ألعل الجميع رسل ألعل الجميع أنبياء • ألعل الجميع معلمون • ألعل الجميع أصحاب قوات الخ » (١ كو ١٢ : ٢٨ و ٣٠) وأمر الشعب قائلا « أذكروا مرشديكم الذين كلموكم بكلمة الله • انظروا الى نهاية سيرتهم فتمثلوا بايمانهم ••• أطيعوا مرشديكم وأخضعوا لانهم يسهرون لأجل نفوسكم كأنهم سوف يعطون حسابا لكى يفعلوا ذلك بفرح لا أنين لأن هذا غير نافع لكم » (عب ١٣ : ٧ و ١٧) « ثم نسألكم أيها الأخوة أن تعرفوا الذين يتعبون بينكم ويدبرونكم فى الرب وينذرونكم • وأن تعتبروهم كثيرا جدا فى المحبة من أجل عملهم » (اتس ٥ : ١٢ و ١٣)

سادسا ـ ان أقوال آباء الكنيسة تدل على هذه الحقيقة ، وتشهد بأن العصور التى تلت عصر الرسل كانت ، فى كل زمان ومكان ، فيها هذه الرتبة الرعوية من أساقفة وقسوس وشمامسة •

قال **القديس اكليمنضس الرومانى** تلميذ بطرس الرسول « اذ قد أخذ الرسل معرفة كاملة بما سيكون بعدهم أقاموا الذين سبق ذكرهم (أى الأساقفة والشمامسة) وبالوقت نفسه حددوا أمر الخلافة حتى كلما رقد واحد منهم يخلفه فى الخدمة رجال آخرون مختبرون » (رسالة ١ : ٤٤) وقال **القديس أغناطيوس** تليمذ يوحنا الرسول « ان الأساقفة قد أقيموا فى جميع أماكن الأرض بحسب مشيئة يسوع المسيح » (رسالته الى أفسس) وقال **القديس ايريناوس** « أنه يمكننا أن نذكر الذين اقامهم الرسل أساقفة فى الكنائس وخلفاءهم أيضا باسمائهم ، الى أيامنا الذين لم يعلموا شيئا البتة ولم يروا شيئا مما يتصوره الهراطقة، لأنه اذ عرف الرسل الأسرار المكتومة كانوا يظهرونها للكاملين وحدهم دون جميع الآخرين ، فبحق أقوى اذن قد باحوا بها وسلموها

للرجال الذين أئتمنوهم على الكنائس نفسها • اذ كانوا يرغبون أن يكون خلفاؤهم المقامون فى رتبهم الخاصة كاملين فى التعليم وبلا لوم من كل الأوجه.» (ضد الهراطقة ٣ : ٣) وقال « يجب الخضوع للكهنة الذين اقيموا فى الكنيسة متسلسلين بحسب الخلافة من الرسل ، وأخذوا المواهب الحقيقية بمسرة الآب مع الخلافة الأسقفية • وأما الباقون الذين لم ينالوا الكهنوت بخلافة رسولية وهم يجتمعون خارج الكنيسة حيث اتفق ، فيجب أن نحسبهم أناسا مشبوهين وهراطقة وأردياء وعصاة ومتعجرفين ومتكبرين ومرائين ، وانهم لا يتعاطعون ذلك الا محبة فى الريح والمجد الفارغ » (ضد الهراطقة ٤ : ٢٦) وقال **القديس كبريانوس** « نحن خلفاء الرسل ومدبرو كنيسة الله عينها » وقال ايضا « ان سلطان حل الخطاة اعطى للرسل وللكنائس التى هم أسسوها اذ أرسلوا من الله وللاساقفة الذين خلفوهم بحسب ترتيب النيابة » (رسالة ٢٥) وقال أيضا « ان الشعب المتحد مع الكاهن والقطيع الخاضع لراعيه يشخص (١) الكنيسة ولهذا يجب أن تعلموا أن الاسقف بالكنيسة والكنيسة بالأسقف ، ومن لم يكن مشتركا مع الأسقف فليس فى الكنيسة البتة » (رسالة ٦٩ : ٨)

وقال **القديس غريغوريوس الثاولوغوس** « ان فى الجسد قسمين قسم يسوس ويرأس ، وقسم يساس وينقاد • وهكذا فى الكنائس أيضا • فان الله قد رتب أن يكون هؤلاء المحتاجون الى أولئك ملازمين واجباتهم التى عرفوها بالقول والمثال ويلبثوا رعية مرؤوسة ، وأما الآخرون فلأنهم أعلى رتبة بفضائلهم ، ومقربون من الله أكثر منهم فقد رتب أن يكونوا رعاة ومعلمين لكمال الكنيسة • وأن يحفظوا نحو أولئك التناسب الذى بين النفس والجسد ، وبين العقل والروح ، حتى يكون كلا الأمرين أعنى نقص الرعية وفضل الرعاة شبيهين بالأعضاء فى الجسد ومتحدين كواحد ومنضمين ومرتبطين برباط الروح ، فيؤلفان جسما واحدا فقط ولائقا حتى اللياقة بالمسيح رئيسنا » (خطاب ٣)

وقد كتب **القديس أوسيوس** أسقف قرطبة الى الملك قسطنت ما نصه : « لا تتداخل فى الأمور الكنسية ولا تأمرنا بها ، بل أحرى بك أن تتعلمها منا ، لأن الله سلمك الملك ، وأما الكنيسة فقد استودعت لنا نحن • وكما أن من يختلس الملك منك يقاوم الله الذى رتب ذلك ، هكذا خف من أن تجرم جرما كبيرا بأن تختلس لنفسك ما يخص الكنيسة ، فانه مكتوب : اعطوا ما لقيصر لقيصر وما لله لله » (ذكره **القديس اثناسيوس** فى تاريخ الايوبسيين عدد ٤٤)

وقال **القديس اغسطينوس** عند كلامه عن الملاك الذى ظهر لكرنيليوس قائد المئة « كل هذه الاشياء (أى التعليم والتعميد) كان ممكنا أن تتم

(١) يشخص الكنيسة أى يمثلها ويكونها

بواسطة الملاك • ولكن لو كان الله لا يريد أن يعلن كلمته للبشر بواسطة البشر أنفسهم لأضحى الطبع البشرى زريا وساقطا ، هذا فضلا عن أن المحبة تربط البشر بعضهم ببعض وتوجب عليهم أن يتعلموا بعضهم عن بعض » (فى مقدمة التعليم المسيحى عدد ٦) •

سابعا ـ شهادة التاريخ • فقد شهد المؤرخ **موسهيم البروتستانتى** قائلا « لا ريب بأنه كان للكنيسة خدام عامة وشمامسة منذ أول تأسيسها لأنه لا يمكن أن يقوم اجتماع بدون خدامه ولا سيما كتلك الاجتماعات التى كانت فى الكنائس المسيحية الأولى ••• واقتدى بمثال كنيسة أورشليم كل الكنائس اطاعة لاوامر الرسل • ومن المعلوم أنهم عينوا كذلك شمامسة (١ تى ٣ : ٨ و ٩) وكان أيضا فى كنائس كثيرة ولا سيما فى كنائس آسيا خادمات عامة وشماسات ••• وحينما اتسعت الكنائس وازداد عدد الشيوخ والشمامسة والواجبات المطلوبة اقتضى أن يكون لمجمع الشيوخ رئيس مشهور برزانته وذكائه يوزع على رفقائه أشغالهم المتنوعة ، ويكون كمركز لكل الجماعة ، وهذا كان يسمى أولا ملاكا (رؤ ٢ و ٣) ثم سمى بعدئذ أسقفا ، وهى كلمة يونانية تدل على شغله الاصلى ••• فمع هذا كله لم تطل المدة الا وازدادت الاسقفية اتساعا وسطوة لأن الاساقفة الذين سكنوا المدن اما باتعابهم واما باتعاب قسوسهم استحدثوا كنائس فى القرى والمزارع المجاورة • وهذه الكنائس استمرت تحت حماية ومناظرة الاساقفة الذين بخدمتهم أو عن يدهم قبلت الديانة المسيحية • ورويدا رويدا نشأت ولايات كنائسية سماها اليونانيون بعدئذ أبروشيات ، والذين سلمهم اساقفة المدن سياسة وتعليم كنائس القرى والمزارع دعوا « تس خورى ابسكوبى » أى أساقفة المسارح والحقول ، وكانوا فى الرتبة الوسطى بين الاساقفة والقسوس فكانوا دون الاساقفة لأنهم يخضعون لهم وفوق القسوس لأنهم تصرفوا بحكمتهم ونباهتهم وعملوا كل واجبات الاساقفة » (موسهيم ك ١ قرن ١ قسم ٢ فصل ٢) وقال أيضا « ان نظام سياسة الكنيسة الذى ابتدأ فى القرن السابق (الأول) تقرر وتثبت فى هذا القرن بأكثر همة ونشاط فى كل أجزائه فكان رئيس واحد أو أسقف يتنصب على كل كنيسة من الكنائس ، وتنصيبه عليها باستدعاء عام من كل الشعب ، وكان عليه أن يسهر على مصالح الكنيسة مع الشيوخ الذين لم تتعين كميتهم ويفرض لكل منهم مركزه • وكان تحت رئاسة الاسقف والشيوخ أيضا الشمامسة أو الخدام الذين انقسموا الى رتب اذ لا يمكن أن يقوم شخص واحد بكل مصالح الكنيسة المطلوبة » (ك ١ قرن ٢ قسم ٢ فصل ٢)

ثامنا ـ شهادة الكنيسة الأسقفية والبروتستانت • فقد جاء فى كتاب الصلاة العامة للكنيسة الانكليزية فى فصل الكلام على الصورة والطريقة لاقامة ورسامة وتكريس الأساقفة والقسيسين والشمامسة ما يأتى : « جميع الذين

يطالعون الكتاب المقدس ومؤلفات الأقدمين باعتناء يتبين لهم أن درجات الخدام هذه كانت في كنيسة المسيح في عهد الرسل وهي الاسقفية والقسوسية والشماسية • وكانت هذه الوظائف تعتبر موقرة دائما • فلم يكن أحد يجترىء على اجراء (١) احداها الا اذا دعى أولا وامتحن وفحص وعلم أنه متصف بالصفات المطلوبة فكانوا يستصوبون (٢) ويقبلون بالصلاة الجمهورية مع وضع الأيدى بسلطان شرعى • ولغاية أن تبقى هذه الرتب (٣) وتستعمل بالتوقير والاعتبار في كنيسة انكلترا لا يصح أن يحسب أحد أو يتخذ أسقفا شرعيا أو قسيسا أو شماسا في كنيسة انكلترا أو يؤذن له في أن يجرى احدى هذه الوظائف المذكورة الا أن يدعى ويمتحن ويفحص ويقبل على الصورة الآتية ، أو يكون قد كرسه قبلا أو رسمه أسقف ما • فلا يقبل أحد شماسا الا اذا بلغ سنة ثلاثا وعشرين سنة ، الا ان كان معه اجازة • وكل من يقبل قسيسا لا بد أن يكون قد بلغ أربعا وعشرين سنة كاملة • وكل من يرسم أو يكرس أسقفا لا بد أن يكون عمره ثلاثين سنة تامة » ويلى هذا الكلام صورة الرسامة لكل من الدرجات الثلاث •

وفى سنة ١٨٩١ نشر أساقفة انكلترا باللغة الانكليزية نبذة عن الخلافة الرسولية ترجمت وطبعت باللغة العربية بانكلترا ووزعت في مصر ، وفى فاتحتها مقدمة بقلم طيب الذكر المتنيح **الايغومانوس فيلوثاوس** رئيس الكاتدرائية القبطية بمصر جاء فيها (٤) « قد تحفظت البيعة المسيحية في جميع أنحاء العالم على الثلاث وظائف المذكورة مدة الف وخمسماية سنة بعد المسيح ، انما اكراما للرسل الأولين قد استصوبت عدم استعمال كلمة رسول لخلفائهم • وكانت تسمى رؤساء الاكليروس أساقفة ، وهذا الاسم يعطى في الانجيل لثانى درجة من الاكليروس أعنى بهم القسوس (في ١ : ١) وكان محصورا في الأساقفة حق تكريس آخرين لوظيفتهم أو لوظائف أدنى منها • وكما أن الكهنة المتناسلين من الكهنة الحقيقيين في الشريعة اليهودية تتألف منهم سلالة هرون ، كذلك تتألف الخلافة الرسولية من الأساقفة والقسوس المسيحيين الذين رسموا لوظائفهم من جيل الى جيل » •

---

(١) أى قبول احدى الدرجات الكهنوتية •
(٢) أى يفحصون ويستصوب الناس رسامتهم •
(٣) أى وما دامت الرتب الكهنوتية بتوقيرها بانجلترا فلا رسامة الا بامتحان •
(٤) راجع هذه النبذة فقد أدرجت بنصها في مجلة الكرمة في المجلد الثالث عشر الجزء الرابع •

وقد ورد فى كتاب مصابيح الدعاة فى واجبات الرعاة تأليف **القس هنرى جسب** الأمريكانى ما يأتى خلاصته .

« الوظيفة الرعوية من مقتضيات الطبيعة الروحية »

ولنا على ذلك أربعة ادلة : ـ

١ ـ أن كل أمر يفتقر اليه البشر يستلزم خدمة أو وظيفة ...

٢ ـ أنه يتعذر انتظام فرقة من الناس دون متوظفين وأعضاء وقوانين ...

٣ ـ أنه لم تخل جماعة على وجه الأرض من وظيفة دينية ، والشاهد على ذلك تواريخ الكلدانيين والمصريين والفرس واليونانيين وما يشاهد فى أيامنا من أمر الهنود والصينيين والبرابرة والوثنيين ...

٤ ـ ان لبعض الناس سجايا وخواص ينظر اليها الناس باعتبار واحترام غير اعتياديين تصيرهم رعاة أى رؤساء أو مرشدين للشعب ، وفى ذلك ترتيب الهى لمقاصد خيرية (فصل ١ قسم ١ صحيفة ٣و٤) .

الفصل الثالث

الكهنوت من حيث هو سر وله طقس خاص

ان المسيح تقدس اسمه أراد أن يقام الاكليريكيون ويمتـــازون عن عامة الشعب بطقس خاص ، يكرسون به لأجل مباشرة الخدم الكنسية ويقلدون به الولاية الروحية على الشـــعب • وهذا أمر يقتضيه الطبع لأن الاكليريكيين لا يولدون اكليريكيين ، ولا يعينهم الله رأسا ، فمن ثم يقتضى اذن وجود علامة حسية وطقس خاص احتفالى لسيامتهم ، به يعينون على مرأى من الشعب ، وبه يستدل على منحهم هذه النعمة وتقليدهم هذه الولاية •

ويتضح تأسيس سر الكهنوت من الله تعالى مما يأتى : —

أولا — من الكتاب المقدس الذى يدلنا على أن الرسل الأطهار فى سفر الأعمال وفى رسائلهم كانوا يتممون هذا السر بوضع أيديهم على المنتخبين لترقيتهم الى الدرجة الكهنوتية ، وقد قال بولس لتلميذه تيموثاوس « لا تهمل الموهبة التى فيك المعطاة لك بالنبوة مع وضع أيدى المشيخة » (أى القسوس) ١ تى ٤ : ١٤ وقال له أيضا « اذكرك أن تضرم ايضا موهبة الله التى فيك بوضع يدى » (٢ تى ١ : ٦)

ومن هذه النصوص يتضح أن فيها كل مقتضيات السر : —

١ — علامة حسية وهى وضع الأيادى كما هو مذكور فيما سبق وفى (١ تى ٥ : ٢٢ ، اع ٦ : ٦ ، ١٣ : ٣)

٢ — له الوعد بالنعمة أو الموهبة من الله •

٣ — الوضع الالهى حسب قول الرب « افرزوا لى برنابا وشاول » (اع ١٣ : ٢) ، « احترزوا اذا لأنفسكم ولجميع الرعية التى أقامكم الروح القدس فيها اساقفة » (أع ٢٠ : ٢٨) ويقرر بولس الرسول فى رسالته الى أهل أفسس أن الله هو الذى أقام هؤلاء الخدام بقوله « وهو أعطى البعض أن يكونوا رسلا والبعض أنبياء والبعض مبشرين والبعض رعاة ومعلمين الخ » (أف ٤ : ١١) ومما تقدم نرى ان المفرزين لهذه الخدمة يكرسون بعمل خاص وينالون نعمة وموهبة خاصة من الروح القدس الذى يقيمهم •

وفى كتاب أعمال الرسل نرى أن بولس وبرنابا بينما كانا يجولان للكرازة فى لسترة وايقونية وانطاكية يشـــددان التلاميذ « انتخبا لهم قسوسا فى كل

كنيسة ثم صليا باصوام واستودعاهم للرب » (أع ١٤ : ٢١ ـ ٢٣) كذلك الشمامسة الذين اختارهم المؤمنون فقد وضع الرسل عليهم الايادى (أع ٦ : ٦) .

ثانيا ـ ان نظام العناية الالهية يقتضي أن يكون فى الكنيسة قواد ورؤساء يقودون الشعب ، ويسوسونه ويؤدون الخدم اللازمة لهم ، كما يقتضى ذلك نظام كل جماعة بشرية تقلد وظائفها باحتفال خاص وعلامات ظاهرة حسية وإذا كانت المعمودية التي هى سر يراد به صيرورة البشر أبناء الله وأعضاء في الكنيسة اقتضى أن تكون سرا حقيقيا بطقس خاص ، فبالأولى كثيرا يليق بهذه الرتبة التى بها يصير بعض المؤمنين قادة لجنود المسيح ومعلمين للايمان وخدمة لباقى الأسرار .

ثالثا ـ من التقليد : فان **القديس أغسطينوس** يقـــول ردا على تعاليم الدوناتيين « فليفهمنا الدوناتيون لماذا وسم المعمودية لا يمحى ، ووسم الدرجة يمحى حسب اعتقادهم . فان كان كلاهما سرين حقيقيين كما هو مقرر عنـــد الجميع ، فلماذا الواحد يبقي والآخر يمحى ؟ » (رد على رسالة برمينيون) وقال **القديس باسيليوس** « أما الذين خرجوا عن الكنيسة فلن ينالوا بعد ذلك نعمة الروح القدس عليهم ، لأن منح النعمه قد زال لانقطاع الخلافة لأن الذين خرجوا أولا كانوا قد نالوا الشرطونيات (وضع اليد) من الآباء وبوضع أيديهم حصلوا على الموهبة الروحانية » (رسالة قانونية أولى قانون ١) (١) .

وقال **القديس يوحنا ذهبى الفم** « أنظر كيف أن المؤلف لا يذكر شـــيئا عبثا . لأنه لم يقل كيف شرطن بل قال قولا بسيطا انه شرطن بالصلاة وهذه هى الشرطونية كلها ، اذ توضع اليد على رأس الرجل والله يفعل كل شيء ، ويده هى التى تمس رأس المشرطن اذا شرطن كما يجب ، وأنظر كيف كان بين السبعة (الشمامسة) واحد (استفانوس) مميزا ونال الأولية . فان الشرطونية وان كانت عامة ولكن هذا نال نعمة أكثر . وقبـــل الآن لم يكن يفعل آيات بل بعد أن نودى به ، لكي ينضح أن النعمة وحدها لا تكفى وان الشرطونية ضرورية معها ، فقد زادت عليهم نعمة الروح القدس وان كانوا قبل الآن مملوئين من الروح غير أن ذلك يشير الى نعمة الحميم فقط » (مقالة ١٤ : ٣ ، ١٥ : ١ على سفر الاعمال)

رابعا ـ من شهادة البروتستانت . ان البروتستانت المشيخيين أقروا بأن الاسرار لا يمكن ان يتممها الا القسوس الذين لهم وحدهم هذا الحق .

(١) يقصد أن الذين نالوا الدرجة الكهنوتية من الآباء ثم انشقوا وخرجوا عن الكنيسة قد أبطل عملهم وأوقفوا بنفس سلطان الكنيسة ، ولم يعد لهم حق وضع اليد .

فقد جاء فى نظام التعليم فى علم اللاهوت القـويم تأليف **القس جميس انس** الامريكانى جوابا على سؤال بمن يختص حق ممارسة المعمودية ٠ أى من له حق أن يعمد ؟ جاء فيه أن « حق ممارسة المعمودية يختص بالقسوس المعينين قانونيا لوظيفتهم فى الكنيسة المسيحية » (جزء ٢ صحيفة ٤٢٠) وقال جوابا على سؤال هل فى الكنيسة وظائف وما هى ؟ « آن فى كنيسة المسيح وظائف معينة من قبل السيد له المجد الذى هو رأس الكنيسة الوحيد ، وتلك الوظائف بعضها وقتى وبعضها دائم ٠ فالوظائف الوقتية هى وظائف الانبياء والرسل وليس لها وجود فى الكنيسة الآن ، والوظائف الدائمة بموجب النظام النيابى المار ذكره تلاث ٠٠٠ وقد سمى التوظف فيها بأسماء مختلفة فى العهد الجديد فمنها قسيس وأسقف وشيخ وناظر وخادم وراع ووكيل سرائر الله (أع ١٤ : ٢٣ ، ٢٠ : ١٧ و ٢٨ ، ١ كو ٤ : ١ ، فى ١ : ١ ، ١ تى ٥ : ١ و ١٩ ، تى ١ : ٥ ، يع ٥ : ١٤ ، ١ بط ٥ : ١ ـ ٥) ٠

وجاء فى النبذة المسماة « الخلافة الرسولية » السابق ذكرها التى طبعها ونشرها أساقفة انكلترا ما يأتى : ـ

كل من يدعى بأن يكون قسيسا وراعيا للشعب المسيحى فلا بد أن يبنى ادعاءه على أحد الأربعة الأوجه الآتية : ـ

أ) أما أن يدعى أن الله نفسه أرسله مباشرة

(ب) أو أنه تحصل على مأموريته حسب الأصول من قبل الذين أرسلهم الله مباشرة وأعطاهم سلطانا بارسال آخرين كذلك

(ج) أو يدعى بكونه مختارا ومنتخبا من الجماعة التى يرعاها أو الشركة التى يكون عضوا منها

(د) أو أنه يكتفى باعتقاده فى نفسه أنه جدير بأن يكون معلما ٠ ففى الوجهين الأولين فقط يكون مرسلا من الله ٠ ويكون له الحق فى التكلم باسمه ، وفى الوجه الثالث يعتبر مرسلا من الناس ، وفى الأخير غير مرسل من أحد بل مرسلا من نفسه ٠٠٠ الى أن قال٠ والوجه الثـانى هو طريقة التوراة فهو مطابق للشريعة والانجيل معا ٠ أما مطابقته للانجيل فهى فى كون الله أرسل الرسل الحقيقيين الشرعيين أولا وفوض لهم تعيين خلفائهم من بعدهم ٠٠٠ وأما مطابقته للشريعة فلأن الله جعل هرون رئيس الكهنة وبنيه كهنة من تحته « وقرب اليك هرون أخاك وبنيه معه من بين بنى اسرائيل ليكهن لى » (خر ٢٨ : ١) وأمر أن الكهنة ينبغى أن ينتخبوا من عائلة هرون فقـط « وقال الرب لهرون أنت وبنوك وبيت أبيك معك تحملون ذنب المقدس وأنت وبنوك معك تحملون ذنب كهنوتكم ٠ » (عدد ١٨ : ١) وحكم بالموت على من يتجـاسر على التقلد بهذه الوظيفة من سواهم « وأما أنت وبنوك معك

فتحفظون كهنوتكم مع ما للمذبح وما هو داخل الحجاب وتخدمون خدمة . عطية أعطيت كهنوتكم والأجنبى الذى يقترب يقتل . » (عدد ١٨ : ٧) وقد نفذ هذا الحكم فعلا بمعجزة فى قورح وداثان وأبيرام « وفتحت الأرض فاها وابتلعتهم وبيوتهم وكل ما كان لقورح مع كل الأموال ... وخرجت نار من عند الرب وأكلت المايتين والخمسين رجلا الذين قربوا البخور » . (عدد ١٦ : ٣١ و ٣٥) وهكذا كل رجال عائلة هرون كان ممكنا انتخابهم للكهنوت ولو أنهم بتناسلهم منه كان لهم الحق فى الكهنوت غير أنه كان لا يمكنهم التقرب لهذه الوظيفة الا بعد أن يمسحهم الكهنة الذين قبلهم « والثياب المقدسة التى لهرون تكون لبنيه بعده ليمسحوا فيها أيديهم » (خر ٢٩ : ٢٩) وبعد هرون بزمن طويل ضرب الرب عزيا ملك يهوذا بالبرص لاقدامه على التبخير فى هيكل أورشليم (٢ أى ٢٦ : ١٦ ـ ٢١) .

وبعد أن أثبت مؤلفو تلك الرسالة الكهنوت من العهد الجديد قالوا « ترى الاكليروس المؤلف من الثلاث الوظائف المذكورة وهى الاسقفية والقسوسية والشماسية قائما باداء وظيفته من بعد موت الرسل » . وذكر ذلك مار اكليمنضس رفيق بولس الرسول وصاحبه (فى ٤ : ٣) وأيضا ذكرهم مار أغناطيوس تلميذ مار يوحنا أو صاحبه ومار ايرانيوس تلميذ مار بوليكار أحد تلاميذ مار يوحنا الذى مات شهيدا فى سنة ١٧٨ للمسيح . وأما مار أكليمنضس فيخبرنا جليا أن الرسل لما تراءى لهم أنه ستحصل منازعات من جهة رعاية الكنيسة قد استصوبوا وقرروا انتخاب آخرين لينوبوا عنهم وأوصوهم بتعيين خلفاء لهم بعد وفاتهم حرصا على بقاء الخلافة الرسولية . وقد صار اتباع هذا الأمر مدة ألف وخمسماية سنة عند جميع المسيحيين ما عدا بعض طوائف قليلة العدد والأهمية يعرفون بالبروتستانت » الى أن قالوا : ـ

« بعض البروتستانت يتفقون مع الكنيسة الاسقفية على أن راعى كنيسة الله الحقيقى يلزم أن يتعين ويرسل بواسطة وضع الايادى من الذين أرسلوا من خلفاء الرسل أنفسهم ويقولون ان الدرجة الثانية من الاكليروس أعنى القسوس أو المشايخ لهم الحق فى وضع الايدى والتكريس مثل الأساقفة . ويبنون على ذلك وجود الخلافة الرسولية عندهم وذلك لأن بعض القسوس أو الشيوخ هم الذين أسسوا الكنيسة البروتستانتية ، فيوجد ثلاثة أجوبة على هذا الادعاء . أولا انه لم يحصل فى الكنيسة فى مدة الف وخمسماية سنة أن أحدا من الاكليروس أقل من درجة الاسقف منح رتبة القسوسية أو الشماسية، وغاية ما هناك كان القسوس يحضرون فى أثناء التكريس علامة على الرضاء العام . ثانيا ولو أنه من الامكان التوضيح بأن الشيوخ فى الكنيسة القديمة كانوا قادرين على التكريس . ولكن المحقق أنه فى مدة ألف وستماية سنة

تقريبا قد فقدوا هذه القوة حيث الكنيسة قاطبة الغتها بنوع ما والحالة هذه لايمكنهم استرجاعها لانفسهم الا بسماح الكنيسة المذكورة ثالثـــا ان أكبر كنيسة بروتستانتية فى اسكوتلاندا وهى تعتبر أصل الكنائس البروتستانتية الانكليزية والايرلندية والامريكانية وتأسست فى سنة ١٥٦٠ مســـيحية بطريقة الاستقلال بمعرفة شخص يدعى حنـــا نوكس كان ذلك بدون تعيين قسوس ولا رعاة بواسطة وضع الأيدى ولم يحصل ذلك (١) الا بعد مدة من السنين ولم توضع الأيدى على أول من انتخبوا لوظيفة القسوسية الذين كان معظمهم من العلمانيين ، وكان يندر وجود قسوس من الكنيسة القديمة بينهم ، وحتى لما فهموا ضرورة وأهمية التكريس بواسطة وضع الايدى كان أغلب لا بل جميع الذين كانوا قســـوسا فى الكنيسة القـــديمة ماتوا • وهكذا فالمكرسو كانوا ممن لم توضع عليهم الأيدى ولم يكرسوا أنفسهم • وبناء على ذلك حتى لو صـــدقنا على ادعاء البروتســـتانت أن القسوس لهم حق فى التكريس ، فلا يمكنهم بواسطة ذلك المدافعة عن قسوسهم لأن الذين كرسوهم كانوا علمانيين وليسوا قسوسا كما سبق القول » •

« أما الكنيسة المصرية تحت الخلافة المرقســـية الرســـولية والكنيسة اليونانية الأرثوذكسية والكنيسة الانكليزية وغيرها من الكنائس الاســـقفية فقد حافظت بغاية التيقظ والاعتناء على استمرار الخلافة الرسولية فيها بدون خلل أو عيب ، وفى امكانهـــا أن تثبت أن أســـاقفتها متسلسلون من وقت المسيح »

وقد ألف القس ناصر عودة التابع للكنيسة الأنكليزية موعظة فى الكهنوت المســـيحى فى سنة ١٨٨٩ طبعت باللغة العربية وفى مقـــدمتها حكم المطران الانكليزى ج•ف يوبهـــام بنيث مطران الكنيسة الانكليزية فى أورشـــليم والشرق • قال فى حكمه على تلك الموعظة « ربما لا يوجد عضو فى الكنيسة يرتاب فى حكم مار ايرونيموس المقـــدم من الأسقف ورتسورث أن الكنيسة التى ليس لها كهنة ليست بكنيسة »

أما هذه الموعظة (٢) فهى أثبات لوجود كهنوت مسيحى فى العهد الجديد ، نذكر منها هنا بعض فقراتها : ـ

« أنه مما نلاحظه فى الكتاب نتـــأكد أنه يوجد بركات مختصة بالخـــلاص

---

(١) أى وضع اليد •

(٢) أدرجت بنصها فى مجلة الكرمة فى الجزء الخامس من المجد الثالث عشر •

يعطيها الله لنا ، ليس رأسا ، بل بواسطة وسائل النعمة التى قد ثبتها هو ذاته ، والتى قد عين لها البعض من اخوتنا بنى البشر خداما ليجروها ٠

« الجميع يسلم أن فى ارجاع النفس الى الله (مثلا) يستعمل الله غالبا واسطة بشرية ٠ هو لا يكرز بالانجيل كما نطق مرة بالناموس بصوته من السماء ، بل يدعو الخطاة للتوبة بصوت اخوتهم رفقائهم فى الخطية ٠ وكما أنه يستعمل الخدمة البشرية فى توبة وارجاع الخاطىء ، هكذا أيضا يستعمل تلك الخدمة فى أمور أخر لها علاقة كلية بخيرنا الروحى ٠

« يدجد لنا مثل فى استعمال الله العلامة الخارجية لايصال النعمة الروحية فى اشعيا ص ٦ حيث ظهر الرب ذاته الى النبى بينما كان يسجد فى الهيكل فتحير وارتبك لأنه نظر اعلان مجد الله فقال : « ويل لى انى هلكت لأنى انسان نجس الشفتين لأن عينى قد رأتا الملك رب الجنود » فعند ذلك طار اليه واحد من السيرافيم وبيده جمرة قد أخذها بملقط من على المذبح ومس بها فم النبى ونطق له بهذا الحل ٠ « ان هذه قد مست شفتيك فانتزع اثمك وكفر عن خطيتك »

« ولا ريب أن أشعياء آمن بحصوله على الحل من خطاياه لأنه لما سأله الرب « من أرسل » أجابه بكل ثقة « هأنذا أرسلنى » : اننا كنا ننتظر أن الله يصرح بهذا الحل للنبى اشعياء بذات صوته الالهى ٠ أو بالحرى يعطيه التأكيد الداخلى على غفران خطاياه لأنه كان معتادا على الأعلانات الالهية ٠ غير أن الله لم يستعمل أحدى هاتين الطريقتين بل بالحرى أرتضى عز وجل أن يصرح بهذا الحل بواسطة ملاك ، وأن يستعمل فعلا خصوصيا أى علامة خارجية لتأكيد النبى ، وأكثر من ذلك انا نرى أن الملاك قد جعل علاقة كلية بين « انتزاع الاثم » وبين ذبيحة الهيكل الكفارية التى قد عينت لأنه مس شفتى النبى بجمرة قد أخذها من على المذبح الذى كان يوقد عليه تلك الذبيحة ٠

« انى لا أقدم هذه الرؤيا برهانا على الكهنوت المسيحى فى العهد الجديد بل أقدمها كمثال نستنتج منه أن الله يستخدم فعلة ينوبون عنه وعلامات ظاهرة خارجية ليعطى عبيده بركات كالتطهير والغفران ٠ لأنه ان استخدم هذين الأمرين ليبارك على عبده اشعياء الذى منحه اعلانات عن ذبيحة الكفارة الوحيدة كما فى الأصحاح ٥٣ من نبوته ، فكم بالحرى يستخدم هذين الأمرين الآن لأولاد كنيسته الاعتياديين

« ولاثبات وجود كهنوت مسيحى فى العهد الجديد لنتكلم عن وجوده فى النظام البطارقى ، والنظام الموسوى ، والنظام المسيحى

« أولا : من جهة النظـام البطارقى ، فأول ذكر لكاهن نراه فى الآيات الواردة فى (تك ١٤ : ١٨ ــ ٢٠) « وملكى صادق ملك شاليم اخرج خبزا وخمرا وكان كاهنا لله العلى . وباركه وقال مبـارك أبرآم من الله العلى مالك السموات والأرض ، ومبارك الله العلى الذى أسلم أعداءك فى يدك . فأعطاه عشرا من كل شئ »

« فان وجد انسان على وجه البسيطة لا يحتـاج الى بركة من فم انسان نظيره فذلك الانسان هو ابراهيم الذى كان قد ظهر له الرب قبل هذه الواقعة ثلاث مرات ، وكان قد وعده أن فيه تتبارك جميع قبـائل الأرض ، فما هى الحاجة لأن يتوسط كاهن بين الله وبين ابراهيم . ومع ذلك كان ابراهيم فى احتياج الى ذلك لأن الله قد عين أن ذلك الكاهن والملك ينبغى أن يبـارك من كانت له المواعيد .

« فمن فعل البركة هذا يظهر لى أن الله لم يمنح شرفا وقدرا لرتبة بشر من كهنة أو خدام بل بالحرى قد صرح بسلطته المطلقة أى أنه يحق له أن يوصل بركاته كيفما اختار

« ابراهيم كان بنوع خصوصى رمزا الى المسـيحى الذى يتبرر بالايمان ويتمسك بالمواعيد . وان كان قد شرفه الله بالتكلم معه مرارا وبتسميته اياه خليله الا أن العناية أرشدت هذا الانسان الى كاهن ليتبارك منه ، ومهما كانت أمجاد ذلك الكاهن الرمزية عظيمة الا أنه فى زمان ابراهيم لم يكن معروفا الا ككاهن وملك فى أرض كنعان

« فمهما تعلمنا من هذا الخبر نتعـلم بلا ريب أمرين (١) أنه مهما كان المسيحى متقدما فى الحياة الروحية ومتمسكا بالمسيح لا يجب أن يدعى أنه أتصل الى درجة لا يحتاج فيها الى نوال البركة ممن قد عينهم الله لايصالها (٢) أن مخاطبة الله رأسا للمؤمنين لا تضـاد ولا تمنع لزوم مخاطبته لهم بواسطة لايصال بركاته ان كان ذلك بموجب تعيينه الالهى

« ثانيا . لنأت الآن الى النظام اليهودى . لا احتياج لتكثير البراهين أنه فى هذا النظام كان الكهنة يوصلون بركات الله للشعب الاسرائيلى ، الأمر المسلم به من الجميع

« الله كان قد رتب أن سبطا بين أسباط اسرائيل الأثنى عشر يجب أن يخدمه فى الهيكل . وأهم واجبات خدمته كان عمل الكفارة . كان الله يستطيع أن يغفر خطايا شعبه بدون واسطة الوسائل الظاهرة ولا سيما لأنه كان مزمعا

أن يعد ذبيحة كاملة كافية • غير أنه سر أن يعين أن خطايا شعبه لا تغفر الا بتقديم ذبائح معلومة يقبلها الكهنة من الشعب ويقدمونها للرب •••

« خدم أخرى كانت مختصة بالكاهن : مثل تقـــديم البخور ، والحكم فى تطهير الأبرص ، ووضع خبز التقدمة على المائدة بترتيب ، وبركة الشـــعب باسم الرب •••

« فمن جهة النظام اليهودي اذن واضح كل الوضوح أن الله عين ان شعبه ينتظرون بركات معلومة عظيمة بواسطة خدمة اخوتهم •••

« انه يوجد ثلاث قضايا فى هذا الكهنوت الاستعدادى تشير الى خدمة كهنة نظام العهد الجديد : (١) اختيار الله وتقديسه كل الشـــعب الهيودى ليكون مملكة كهنة لم يمنعه عن افراز سبط لاوى ليكونوا كهنة له بمعنى خصوصى ، وليجروا أمورا بالنيابة عن أخوتهم لم يسمح لهم الله أن يجروها هم أنفسهم ، وليصلوا بركات معلومة لا ينتظر اعتياديا الحصول عليها الا على يدهم

« ومار بطرس حينما يشير الى كهنوت جميع المســـيحيين كاعضاء جسد الكاهن الواحد السرى بقوله « وأما أنتم فجنس مختار وكهنوت ملوكى » (١ بطرس ٢ : ٩) أهو لا يعترف بكهنوت المســـيحيين العام أكثر مما أعترف بكهنوت الاسرائيليين العام فى النظام اليهودى الذى يشير اليه الله ذاته بواسطة موسى قائلا « وأنتم تكونون لى مملكة كهنة وأمة مقدسة » (خر ١٩ : ٦) لا بل نقول ان كلام مار بطرس عن المسيحيين ليس الا اقتباسا أو تخصيصا لكلام الله عن اليهود •

« اذن كون جميع أعضاء كنيسة المسيح كهنة لله لا يناقض مطلقا اختيار الله رتبة معلومة من البشر من وسط كنيسته وجعله اياهم كهنة بمعنى خصوصى ليجروا خدمة لاخوتهم •

« (٢) القضية الثانية التى تستحق الذكر هنا هى : أنه منذ ســـقوط آدم لم يوجد وان يوجد الا كاهن واحد حقيقى وهو الرب يســـوع ، وكفارة واحدة اى جسده الذى بذل ، ودمه الذى سفك لمغفرة الخطايا •

« والرسول مار بولس يصرح أن دم الثيران والماعز لا يرفع الخطية ومع ذلك فمما نقرأه فى سفر اللاويين يتضح جليا أن ارادة الله كانت أن شعبه يعتبر تلك الذبائح والمحرقات أنها تكفر كفارة حقيقية

« وهكذا قال عن المحرقة (لا ١ : ٤) « فيرضى عليه للتكفير عنه » وعن ذبيحة الاثم يقـــال (لا ٥ : ١٠) « فيكفر عنه الكاهن من خطيته التى أخطأ

فيصفح عنه » ولا سيما يقال عن ذبيحة الكفارة السنوية (لا ١٦ : ٣٠) « لأنه فى هذا اليوم يكفر (الكاهن) عنكم لتطهيركم من جميع خطاياكم أمام الرب تطهرون »

« لا يمكننا أن نتصور كلمات تصف كفارة حقيقية ذات فاعلية أوضح من هذه الكلمات التى أشرت اليها لأنها تشير الى تطهير لكى يتطهر الساجدون « أمام الرب »

« والتفسير الوحيد الذى يوفق بين هذه العبارات وبين قول مار بولس عن دم الثيران والماعز انه لا يستطيع أن يرفع الخطية هو أن تلك الذبائح طهرت ليس بقوة فيها هى ذاتها بل لأنها كانت وسيلة معينة لجعل البشر يشتركون على طريقة ما فى الذبيحة الواحدة الكافية للجميع • فتلك الذبائح كانت فعالة للتكفير وطهرت من الخطية (أمام الرب) ليس لان الله رأى فيها هى ذاتها أدنى قوة ، بل لان قوة الذبيحة الوحيدة كانت منعكسة اليها الى درجة ما

« وهكذا الامر فى الكهنة بالمقابلة مع الكاهن الوحيد الذى كان مزمعا أن يبذل ذاته ، فهم بالمقابلة معه ليسوا بكهنة لانه لم يوجد ولن يوجد الا الكاهن الوحيد الحقيقى • ولكن بالمقابلة مع اخواتهم الاسرائيليين هم كهنة لانهم بتعيين الله أجروا بخدمتهم الكفارة وطهروا أيضا (أمام الرب) •••

(٣) القضية الثالثة فى كهنوت العهد القديم التى لها علاقة بالكهنوت المسيحى فى العهد الجديد هى أنه يوجد جملة نبوات فى العهد القديم تشير الى ملكوت المسيح ، وفى هذه النبوات سبق الروح فصرح جليا أن [كهنة] و [لاويين] سيجرون واجبات وظائفهم المتنوعة تحت حكم داود الروحى العظيم

(أ) ارمياء (٣٣ : ١٥ ـ ٢٢) خصوصا (الاعداد ١٧ و ١٨ و ٢١) فبلا شك أن هذه النبوة تشير الى المسيح والى خدمة كنيسته والذبائح الروحية التى يقدمها الخدمة لا سيما تلك الذبيحة غير الدموية التذكارية أى سر الافخارستيا • وهنا خدمة الانجيل يسمون بذات الاسم الذى تسمى به خدمة العهد القديم

(ب) ملاخى (٣ : ٣) الروح سبق فقال عن المسيح ملاك العهد « فيجلس ممحصا ومنقيا للفضة فينقى بنى لاوى ويصفيهم كالذهب والفضة ليكونوا مقربين للرب تقدمة بالبر » ولا نستطيع أن تفسر هذه النبوة الا عن تنقية المسيح خدمة دين لنفسه من وسط شعبه المسيحى • لأننا ان فسرناها عن كهنوت المسيحيين العام نغلط لان المراد هو تنقية ليس كل الشعب بل سبط

من وسط الشعب وذلك السبط هو السبط المعين لخدمة المقدس ٠ وأما بقية الشعب بجملته فيدعى فى النبوة [يهوذا وأورشليم] (عد ٤) حتى المفسر الشهير (سكوت) يسلم أن هذه النبوة والنبوة المذكورة فى ارمياء التى مر ذكرها تشيران الى خدمة الدين المسيحى بالامتياز عن كهنوت المسيحيين العام

ان كان الله لم يقصد فى العهد الجديد انخدمة الدين يكونون كهنة خاضعين للكاهن الحقيقى الوحيد ، وان كان الاعتقاد بذلك تجديفا كما يزعم البعض مغائرا لكهنوت المسيح الحقيقى الوحيد ، فلماذا ألهم الله ارمياء أن يتنبأ عن خدمة [كهنة] تحت حكم ابنه فى العهد الجديد ؟

ان كان الله لم يقصد فى العهد الجديد ان خدمة الدين يكونون كهنة خاضعين كهنوت ابنه وكهنوت المسيحيين العام فلماذا جعل ملاخى يتنبأ عن ابنه أنه عند مجيئه الى العالم سينقى ليس كل اسرائيل فقط بل بنوع خصوصى [بنى لاوى] — أى سبطا واحدا من وسط الشعب المقدس ، مفرزا الى خدمه المذابح، ممتازا عن اخوته ٠٠

ثالثا — لنأت الآن الى نظام الكاهن الحقيقى الوحيـــد والذبيحة الحقيقية الوحيدة ٠ هل عين رئيس كهنتنا العظيم خدمة دين ٠ فان كان قد عينهم فما هو المركز وما هى الخدمة التى عينها لهم فى نظامه هذا ؟

فان اتضح من الانجيل أن المسيح رتب ان خدامه يجب أن يوزعوا فوائد كفارته لأخوتهم اما بواسطة الكرازة أو بواسطة أفعال ذات معنى كالأسرار ، فحينئذ يكون هؤلاء الخـــدام كهنة حقيقيين كما كان كهنة النظامين اليهودى والبطاركى ٠ لأن الأمر المهم فى هذه المســـألة هو ليس الاسم الذى سمى به خدام الانجيل بل الواجبات التى تعينت لهم ٠٠٠

وهنا أفاض المؤلف فى ذكر الآيات الكتابية الدالة على وظيفة الرســـل وخلفائهم من بعدهم ، وسلطانهم الكهنوتى الذى منح لهم ومركزهم والخدمتهم التى خصصوا لها كالكرازة والمعمودية واجراء سر الأفخارستيا وتفويضهم حل الخطايا ، وختم كلامه بما يأتى : —

« علينا أخيرا أن نرى هل كان للرسل سلطان أن يسلموا اجراء هـــذه الخدمة لغيرهم فان لم يكن لهم سلطان على ذلك فحينئذ يكون أولئك المسيحيون فقط الذين عاصروهم وعاشروهم قد تعمدوا وتناولوا العشاء الربانى وحصلوا على الحل ٠ لأنه لا يجب أن ننسى أن التفويض الأصلى بالكرازة والمعمودية واجراء خدمة العشاء الربانى وسلطان الربط والحل لم يعط الا للرسل وحدهم ٠

لأنهم هم وحدهم كانوا حاضرين كما يذكر الانجيل حين اعطاء ذلك التفويض ، وفضلا عن هذا توجد كلمات معلومة فى سفر الاعمال يستنتج منها أن التفويض كان محصورا فى الرسل فقط (اع ١ : ٢) بالمقابلة مع (مت ٢٨ : ١٦ و ١٨ و ١٩ ، مر ١٦ : ١٤ و ١٥ ، يو ٢٠ : ١٩ ــ ٢٧ ، أع ١٠ : ٤٠ ــ ٤٢) فلو أراد الرب يسوع المسيح أن يفوض كافة المسيحيين اجراء هذه الخدمة لكان على الأقل جمع كل التلاميذ عند اعطائه التفويض او أعطاه فى وقت اجتماع المائة والعشرين والخمسمائة • ولكنه لم يشأ ذلك بل أراد أن يكون كهنوت مسيحى خصوصى فى كنيسة العهد الجديد كما كان فى كنيسة العهد القديم كهنوت خصوصى بالامتياز عن كهنوت المسيحيين العام • ولذلك الى وقت صعود المسيح كان الرسل وحدهم خدمة الدين الذين فوضوا ليخدموا فى كنيسته •

ولأجل دوام هذه الخدمة أعطى المسيح أو الروح القدس الرسل سلطانا ليسلموا اجراء هذه الخدمة بواسطة وضع اليد أى الرسامة •

ووضع اليد هذا كان من أركان النظام المسيحى حتى ذكر مع المبادىء الأولية للتعليم المسيحى أى أساسات الديانة المسيحية (عب ٦ : ١ ــ ٤) •

فكل متوظف فى الكنيسة من الرسل (أع ١٣ : ٢) الى الشماس (أع ٦ : ٦) أفرز الى خدمة وظيفته بوضع الأيدى هذا • لأنه اذا كان الرسل فعلوا ذلك فى أمر الشمامسة الذين فوضوا لهم واجبات خدمة موائد ، فكم بالحرى يكون قد فعلوا ذلك فى أمر من فوضوا لهم خدمة روحية •

فى الرسائل الرعوية نجد أن وضع اليد لنقل هذا السلطان هو الواسطة المعتبرة لابقاء خدمة خدام الدين فى الكنيسة • فمار بولس يأمر تيموثاوس قائلا « اذكرك أن تضرم أيضا موهبة الله التى فيك بوضع يدى » (٢ تيمو ١ : ٦) وأيضا « لا تضع يدا على أحد بالعجلة » (١ تيمو ٥ : ٢٢) •

اذا الأمر واضح أن المسيح لم يوكل فقط خداما لاجراء أسمى الخدمات الكهنوتية بل قد عين طريقة أيضا لدوام اجراء تلك الخدمات

فعليكم اذن أيها الاخوة أن تعتبروا خدمة ووكلاء أسرار الله لا كأنهم يكرزون أو يعمدون أو يجرون سر الشركة المقدسة أو يعملون بسلطانهم ، بل بسلطان المسيح الذى فوض لهم تلك الخدمة • فآمنوا أنهم يخدمونكم بالنيابة عن المسيح واسمه وبحسب ايمانكم يكون لكم •

الفصل الرابع

رد اعتراضات البليموثيين والاصلاحيين

يزعم البليموثيون والاصلاحيون ، وهم مذاهب حديثة نشأت من البروتستانت ، بأن خدم الكنيسة وأسرارها يتممها كل واحد من المؤمنين وينكرون السلطان المعطى لأناس مخصوصين فى الكنيسة · وقد ثبت مما أوردناه فى الفصول السابقة بأن الله تعالى كما قال الرسول « وضع فى الكنيسة أولا رسلا ثانيا أنبياء ثالثا معلمين ثم قوات ··· ألعل الجميع رسل · ألعل الجميع أنبياء · ألعل الجميع معلمون · ألعل الجميع أصحاب قوات » (١ كو ١٢ : ٢٨ و ٢٩) وقوله « وهو أعطى البعض أن يكونوا رسلا والبعض أنبياء والبعض مبشرين والبعض رعاة ومعلمين · لأجل تكميل القديسين لعمل الخدمة لبنيان جسد المسيح » (أف ٤ : ١١ و ١٢) « ولا يأخذ أحد هذه الوظيفة بنفسه بل المدعو من الله كما هرون أيضا » (عب ٥ : ٤) فاذا كان الكل رعاة فأين تكون الرعية · وهل يمكن وجود رعاة حيث لا خراف ولا قطيع غنم · وكل هيئة اجتماعية لا ينتظم حالها الا بموجب قانون يديرها ، ويلزمها تخصيص البعض للقيام بوظائف الخدم اللازمة لتلك الجماعة بناء على الأوامر العالية الصادرة من تلك السلطة الشرعية والا فماذا تكون تلك الهيئة التى يجوز فيها لأى كان من أفرادها أن يجلس على منصة القضاء ويصدر الأحكام ويسن الشرائع ويشكل المجالس كما يشاء ؟ ألا تكون الهيئة فوضى عاقبتها الخراب · ألم يعين الله للشعب الاسرائيلى كهنة لتدبير أموره وأفرز لهم سبطا خاصا للكهنوت وخصص فى كتابه سفرا خاصا بهم · فهل يصح أن يترك المسيح كنيسته بدون تدبير كهنة · هل يعقل أنه يجعلها فوضى يجوز للكل أن يباشروا ما فيها من الخدم الدينية والأسرار الالهية ، هذا أمر لا يقبله العقل فكم بالحرى لا تأتيه الحكمة العلوية التى تضع كل شىء بنظام عجيب · فالبليموثيون الذين ينكرون كل سلطة فى الكنيسة ، ويقولون بالمساواة المطلقة ، ويسمون أنفسهم الخوة ولا يسلمون بوجود قسوس ولا وضع يد « وينادون بأن للجميع الحق فى مباشرة الخدم الدينية على السواء » يخالفون بتعليمهم هذا العقل والكتاب

ونأتى هنا بالاعتراضات التى يتذرعون بها فى تعليمهم مفدين اياها : —

الأعتراض الأول — يقولون ان الكتاب يدعو كل المؤمنين كهنة بقوله

« كونوا أنتم أيضا مبنيين كحجارة حية بيتا روحيا كهنوتا مقدسا لتقديم ذبائح روحية مقبولة عند الله بيسوع المسيح ... وأما أنتم فجنس مختار وكهنوت ملوكي أمة مقدسة » (١ بط ٢ : ٥ و ٩) وقوله « الذى أحبنا وقد غسلنا من خطايانا بدمه وجعلنا ملوكا وكهنة لله أبيه » (رؤ ١ : ٥ و ٦) وأيضا قوله « وجعلتنا لالهنا ملوكا وكهنة » (رؤ ٥ : ١٠)

وندفع هذا الأعتراض بأن الكتاب ذكر مرارا بأن المؤمنين هم كهنة ، وهذه الكلمة تأتى فى الكتاب بمعنى حقيقى عن الكهنة خدام الله المكرسين للخدمة ، وبمعنى مجازى عن جميع المؤمنين لأنهم يقدمون لله ذبائح روحية هى صلواتهم وعبادتهم له تعالى . والدليل على ذلك أن بطرس الرسول بعدما دعا المؤمنين « بيتا روحيا » أضاف حالا بأن الله جعلهم « كهنوتا مقدسا لتقديم ذبائح روحية مقبولة عند الله » تميزا لها عن الذبائح الحقيقية التى لا يجوز لغير الكهنة تقديمها . خصوصا وأن بطرس الرسول يقتبس هذه الآية من سفر الخروج (١٩ : ٦) حيث قيلت أولا عن الشعب الاسرائيلى . ومن المعلوم أن هذا الشعب الذى أعلنه الله بأن يكون له مملكة كهنة وأمة مقدسة لم يحصل بأجمعه على الكهنوت الحقيقى الذى أختص به سبط لاوى دون سواه . حتى أن قورح وداثان وأبيرام الغرباء عن الكهنوت عندما تعدوا على الكهنوت فتحت الأرض فاها وأبتلعتهم وكل ما لهم فهبطوا أحياء الى الهاوية (راجع عدد ١٦ : ١ ـ ٤٠)

قال **القديس أمبروسيوس** « ان كل مؤمن يمسح كاهنا وملكا غير انه لا يصير ملكا حقيقيا ، ولا كاهنا حقيقيا ، بل ملكا روحيا وكاهنا روحيا يقرب لله ذبائح روحية وتقدمات الشكر والتسبيح » (ك ٤ فى الكهنوت) . وقال **القديس أغسطينوس** « أن الكهنوت الملكى لا يقال عن الاساقفة والقسوس فقط الذين هم فى الواقع وحقيقة الأمر كهنة فى بيعة الله ، ولكن الجميع يدعون مسيحيين بسبب المسحة السرية ، كذلك الجميع يدعون كهنة لأنهم أعضاء كاهن واحد وهو المسيح ، وعنهم قال الرسول انهم « أمة مقدسة وكهنوت ملوكى » (مدينة الله ك ٢٠ فصل ١٠)

والبليموثيون أنفسهم يفسرون هذا التفسير ، فقد جاء فى تفسيرهم لسفر الرؤيا المطبوع باسكندرية سنة ١٩١٠ عند تفسير قوله « وجعلنا ملوكا وكهنة لله » رؤ ١ : ٦ ما نصه « هذه التسبحة تقدم من المؤمنين عندما يسمعون الكلام عن عمل المسيح لاجلهم ، وهذا يصدق على حالتهم الحاضرة لكونهم كهنة لله وقريبين منه بدم المسيح لتقديم السجود والتسبيح للذى دعاهم من الظلمة الى نوره العجيب (١ بط ٢ : ٩) وهم ملوك أيضا بالقوة لا بالفعل لأنهم طول مدة غياب المسيح فى السماء مضطهدون ومدوسون من العالم . ولكن متى جاء ربهم يصيرون ملوكا معه بالفعل .

الاعتراض الثانى — يقولون ان جميع المؤمنين متساوون فى الحقوق وعليه يجوز لهم اداء الخدم المقدسة ومباشرة الأسرار مســتندين على قول الرسول « لأنكم جميعا أبناء الله بالايمان بالمسيح يسوع • لأن كلكم الذين أعتمدتم بالمسيح قد لبستم المسيح ليس يهودى ولا يونانى • ليس عبد ولا حر • ليس ذكر وانثى لانكم جميعا واحد فى المسيح يسوع » (غل ٣ : ٢٦ ـ ٢٨)

وندفع هذا الاعتراض بأن الرســـول هنا لا يتكلم عن سلطة الخـدام ولا مباشرة الاسرار المقدسة • وذلك ظاهر من سوابق الكلام ولواحقه • بل غرض الرسول بيـــان الحقوق التى للمؤمنين فى الميراث السماوى مهما كانت جنســـيتهم ، ان كانوا يهودا أو يونانيين ، ومهما كانت منزلتهم عبيدا أو أحرارا • لأن الجميع صاروا ابناء الله بالايمان بالمسيح والمعمودية المقـــدسة ولا فضل لأحد على آخر بل جميعهم اخوة فى المسيح وأعضاء فى جسده ، وهو الرأس • وانهم تسـاووا من هذه الحيثية فلم يعـــد لليهودى أن يفتخر على الاممى ، بأنه من ذرية ابراهيم الذى كان له الموعد ، بل الجميع صاروا أولاد ابراهيم بالايمان وورثة البركة التى وعد الله بأن تكون لهم بالمسيح • أما عن خدم الكنيسة فقد شرح الرسول فى رسالته الأولى الى أهل كورنثوس المواهب التى وزعها الروح القدس على المؤمنين وختمها بقـــوله « وأما أنتم فجسد المسيح وأعضاؤه أفرادا • فوضع الله اناسا فى الكنيسة أولا رسلا ثانيا انبياء ثالثا معلمين ثم قوات • وبعد ذلك مواهب شفاء أعوانا تدابير وأنواع السنة العل الجميع رسل • ألعل الجميع أنبياء • العل الجميع معلمون • ألعل الجميع اصحاب قوات • ألعل للجميع مواهب شفاء الخ » (١ كو ١٢)

الاعتراض الثالث — يزعمون أن المخلص لم يجعل سلطة فى كنيسته بل جعل الكل اخوة ، وسندهم فى ذلك قوله له المجد « أنتم تعلمون أن رؤساء الأمم يسودونهم والعظماء يتسلطون عليهم • فلا يكون هكذا فيكم بل من اراد أن يكون عظيما فليكن لكم خادما ومن اراد أن يكون فيكم أولا فليكن لكم عبدا • كما أن ابن الانسان لم يأت ليخدم بل ليخدم وليبذل نفسه فدية عن كثيرين » (مت ٢٠ : ٢٥ ـ ٢٨) •

وندفع هذا الزعم بأن المسيح له المجد أقام فى كنيسته رعاة ومعلمين وآباء وقضـــاة روحيين • ولا بد للرعاة من رعية تسمع لهم ، وللمعلمين من تلاميذ يتعلمون منهم ، وللآباء من بنين مطيعين ، وللقضـــاة من مرؤوسين ينفذون احكامهم ولاثبات ذلك نورد ما جاء فى الانجيل ورسائل الرسل فى هذا المعنى • قال الرب يسوع لتلاميذه « اذهبوا وتلمذوا جميع الأمم وعمدوهم باسم الآب والابن والروح القدس • وعلموهم أن يحفظوا جميع ما أوصيتكم به » (مت ٢٨ : ١٩ و ٢٠) وقال لهم أيضا « الحق أقول لكم كل ما تربطونه على الأرض يكون مربوطا فى السماء وكل ما تحلونه على الأرض يكون محلولا فى السماء »

(مت ١٨ : ١٨) « اقبلوا الروح القدس • من غفرتم خطاياه تغفر له ومن أمسكتم خطاياه امسكت » (يو ٢٠ : ٢٢ و ٢٣) وقال بطرس الرسول « اطلب الى الشيوخ الذين بينكم أنا الشيخ رفيقهم والشاهد لآلام المسيح وشريك المجد العتيد أن يعلن • ارعوا رعية الله التى بينكم نظارا • لا عن اضطرار بل بالاختيار • ولا لربح قبيح بل بنشاط • ولا كمن يسود على الانصبة بل صائرين أمثلة للرعية • ومتى ظهر رئيس الرعاة تنالون اكليل المجد الذى لا يبلى » (١ بط ٥ : ١ — ٤) وقال بولس الرسول لقسوس أفسس « احترزوا اذا لانفسكم ولجميع الرعية التى أقامكم الروح القدس فيها أساقفة لترعوا كنيسة الله التى اقتناها بدمه » (أع ٢٠ : ٢٨) وقال لاهل كورنثوس « لأنه وان كان لكم ربوات من المرشدين فى المسيح لكن ليس آباء كثيرون • لأنى أنا ولدتكم فى المسيح يسوع بالانجيل » (١ كو ٤ : ١٥) وقال لأهل غلاطية « يا أولادى الذين أتمخض بكم أيضا الى أن يتصور المسيح » (غل ٤ : ١٩) (راجع أيضا عب ١٣ : ١٧) ألا ينتج من هذه النصوص المقدسة وجود آباء وقضاة ومعلمين فى الكنيسة أقامهم المسيح لرعايتها وخيرها ؟ أما ما يتذرع به الأخوة البليموثيون من قول السيد لتلاميذه « من أراد أن يكون فيكم عظيما فليكن لكم خادما » فهذا ما يفترض وجود أكبر وأصغر فى الكنيسة ومع ذلك يعلمهم المسيح أن لا يكونوا كالامم فى طلب الرئاسة والعظمة الدنيوية والأبهة العالمية ، وانما يعلمهم أن يكونوا خداما متواضعين مع الرعية • ولا يستعملون سلطانهم لفائدة انفسهم بل لخير الرعية ، وليعلم الجميع أن العظمة الحقيقية هى فى التواضع والخدمة والتضحية •

الاعتراض الرابع — يزعم الاصلاحيون الذين يجيزون تأدية النساء للخدم الدينية أن الكتاب يساعدهم على زعمهم هذا اذ يستندون على قول يوئيل النبى « انى أسكب روحى على كل بشر فيتنبأ بنوكم وبناتكم ويحلم شيوخكم أحلاما ويرى شبابكم رؤى » (يؤ ٢ : ٢٨) وما جاء فى سفر الأعمال من أنه كان لفيلبس المبشر أربع بنات عذارى يتنبأن (أع ٢١ : ٩) وما قاله بولس الرسول « أما كل امرأة تصلى أو تتنبأ ورأسها غير مغطى فتشين رأسها » (١ كو ١١ : ٥) مستنتجين من ذلك أنه يجوز للنساء الوعظ والتعليم وتأدية الخدم الدينية فى الكنيسة

ونرد عليهم بأن ظهور النساء فى وسط الرجال لتعليمهم ينافى الحشمة والآداب المسيحية • أما مايرردونه من الآيات فلا يفيدهم شيئا لاثبات مدعاهم لأن كلمة تنبأ تدل فى الكتاب على معنيين أحدهما الاخبار بالمستقبل بوحى الروح القدس ، ثانيهما تفسير الاسرار وتأويل كلام الله • فالامر الأول ليس خاصا بالكهنة ، وانما هو هبة تعطى من الله لكثير من خدام الدين • للرجال وللنساء • فدواد وايليا واشعياء وكثيرون غيرهم لم يكونوا كهنة ومع ذلك

كانوا يتنبأون ، أى يخبرون عن الأمور المستقبلة بوحى الروح القدس • وهذا ما يشير اليه يوئيل النبى ، وأما النبـــوة بمعنى تفسير كلام الله والوعظ فى الكنيسة بصورة رسمية لأجل تعليم الشعب ، فهذا مقرر على خدام الدين دون غيرهم • وقد زجر بولس الرســـول النســاء بأن يصمتن فى الكنيسة ولا ترفع امرأة صوتها فيها بقوله « لتصمت نساؤكم فى الكنائس لأنه ليس مأذونا لهن أن يتكلمن بل يخضعن كما يقول الناموس أيضا ولكن ان كن يردن أن يتعلمن شيئا فليسألن رجالهن فى البيت لأنه قبيح بالنساء أن تتكلم فى كنيسة » (١ كو ١٤ : ٣٤ و ٣٥) وقوله « لتتعلم المرأة فى سكوت فى كل خضوع • ولكن لست آذن للمرأة أن تعلم ولا تتسلط على الرجل بل تكون فى سكوت • لأن آدم جبـــل أولا ثم حواء وآدم لم يغو لـــكن المرأة اغويت فحصلت فى التعدى » (١ تى ٢ : ١١ ـ ١٤)

ونختتم هذا الفصل بايراد ما جاء فى آخر النبذة التى أشرنا اليها سـابقا التى وضعها أساقفة الكنيسة الانكليزية لرد الأعتراضات على الخلافة الرسولية وهى كما يأتى : ـ

[كثيرون يعارضون فى تعاليم الخلافة الرسولية رغما عما ذكرناه من أقوال الكتاب المقدس فيقولون :

أولا ـ ان كل المسيحيين هم كهنوت مقدس وجنس مختار (١ بط ٢ : ٥ و ٩) [كونوا أنتم أيضا مبنيين كحجارة حية بيتا روحيا كهنوتا مقدســا لتقديم ذبائح روحية مقبولة عند الله بيسوع المسيح • وأما أنتم فجنس مختار وكهنوت ملوكى أمة مقدسة شعب اقتناء لكى تخبروا بفضائل الذى دعاكم من الظلمة الى نوره العجيب] ويبنون على ذلك عدم وجود تمييز بين الشـــعب المسيحى وأنه لا يوجد اكليروس مخصوص • فالجواب على ذلك أنه هو عين ما قاله قورح لموسى وهارون كل الجماعة مقدسة [فاجتمعوا على موسى وهارون وقالوا لهما كفاكما • ان كل الجماعة بأسرها مقدسة وفى وسطها الرب فما بالكما ترتفعان على جماعة الرب] (عدد ١٦ : ٣) وأن الله قال أنتم لى كهنوت ملوكى (خر ١٩ : ٦) [وأنتم تكونون لى مملكة وكهنة وأمة مقدسة] • وبنى قورح على ذلك أن له حق فى الكهنوت مثل هارون فعاقبه الله بالموت • ويعلمنا يهوذا الرسول أن كثيرين يرتكبون خطية قورح (يهو ١ : ١١) [ويل لهم لانهم سلكوا طريق قايين وأنصـــبوا الى ضــلالة بلعام وهلكوا فى مشاجرة قورح] فبناء على هذا لا يمكن أى طائفة من البروتستانت لها رعاة (ويندر من ليس لهم رعاة) أن تدافع عن نفسها بهذا الاحتجاج الباطل • وحتى لو فرضنا أن احتجاجهم صحيح فانهم أنفسهم يميزون ما بين الرعاة والشعب وما رأيهم فى قول الانجيل ان المسيحيين يدعون ملوكا وكهنة (رؤ ١ : ٦) [وجعلنا ملوكا وكهنة لله أبيه له المجد والسلطان] (رؤ ٥ : ١٠) [وجعلتنا لالهنا ملوكا وكهنة فسنملك على الأرض] فهل هذا يعنى أن كل انسان يعتبر فى منزلة الملك ؟

ثانيا ــ يقولون ان السيد المسيح حين رأى تلاميذه يمنعون رجلا غريبا من اخراج الشــيطان قال لهم لا تمنعوه « لأن من ليس علينا فهو معنـا » (لو ٩ : ٥٠) وعليه فلا وجود للوظيفة الدينية والخدمة حق لكل الناس ٠

ونجيب : ــ

١ ــ ان اخراج الشياطين ليس موقوفا على رجال الدين كعمل الرعاية وممارسة الخــدمات الكنسية والأسرار ، ولكنه هبة من الله للمؤمنين الذين يمارسونها بانكار الذات والعطف على المعذبين ٠ وفى قول السيد لتلاميذه عن الرجل « لا تمنعوه لأن الذى ليس علينا هو معنا » ٠ (لو ٩ : ٥٠) شهادة عن ايمان هذا الرجل واخلاصه ٠ ولو كان محتالا من الطوافين المعزمين لما حياه السيد ولوثب عليه المريض الساكن به الروح الشرير ، كما وثب على أولاد أسكاوا الدجالين الذين غلبهم وهربوا أمامه عراة مجرحين ٠ (اع ١٩ : ١٣ ــ ١٦) ٠

٢ ــ حين أمر السيد تلاميذه ان لا يمنعوا هذا الرجل لم يكن السيد قد رتب الكنيسة التى تم نظـامها بعـد حلول الروح القـدس فى يوم البنديقسطى ٠ هذا بالأضافه الى ما قلناه سابقا

٣ ــ ليست الوظائف الدينية سلعا يمكن شراؤها أو اغتصابها لكنها دعوة من الله « لا يأخذ أحد هذه الوظيفة لنفسه بل المدعو من الله كما هارون ايضا » ٠ (عب ٥ : ٤) ٠ أما ظهور واحد كأبلوس على مسرح التعليم والوعظ فلا ينفى موضوع الدعوة للخدمة وقد دعا السيد تلاميذه واختارهم للرسالة وهكذا أعطت الكنيسة السلطان لتقديم خدامها ٠ ولا ننسى أن التلاميذ لما سمعوا بغيرة ابلوس هـذا ومحبته قرروا دعوته رسميا ٠ انظر (أع ١٨ : ٢٤ ــ ٢٨ ، ١ كو ٣ : ٦ ، ١ كو ١٦ : ١٢) ٠ ومما يذكر أن أبلوس كان يمارس شرح تعليم الرسل كمفسر وهذا واضح من قول بولس الرسول « أنا غرست وابلوس سقى لكن الله كان ينمى » (١ كو ٣ : ٦) ٠

ثالثا ــ يقولون ولو فرضنا أن الخلافة الرسولية كانت موجودة الا أنها قد انحلت وتلاشت من زمان طويل وذلك على تمادى الزمن لأنه واضح أنه لو انكسرت حلقة واحدة من السلسلة فتتلف جميعها ٠ ولا بد قد انكسر أكثر من حلقة لسبب أو آخر ٠

فالجواب « ان من تعقل هذه المسألة بتدقيق فلا يقبل دعوى واهية كهذه لانه قد أخذت كل الاحتياطات اللازمة منذ الابتداء لمنع حصول ذلك ٠ وقد جعلت قاعدة عمومية أنه يلزم وجود ثلاثة أساقفة لقسمة كل أسقف جديد

ومع أنه كان واحد يكفى الا أن العادة قد جرت بذلك لكى اذا أجتمع ثلاثة أساقفة القسمة أسقف جديد وكان أثنان منهم ليسا حقيقيين وكان الثالث حقيقيا فتصبح القسمة صحيحة • أما موت القسوس الذين يكونون قد كرسهم الاساقفة غير الحقيقيين فلا ضرر من ذلك وهكذا استمرت الخلافة الرسولية تتقوى باضافة كل أسقف جديد اليها حتى أنه يتعسر جدا انقراضها • فهى لا تشبه سلسلة مركبة من حلقات منفردة اذا انكسرت حلقة منها تنقطع وتتلف بل هى كجديلة مركبة من آلاف الحلقات المجدولة بعضها ببعض • أو التى كل حلقة منها ترتبط بثلاث حلقات أخرى أو أكثر بحيث يمكن أن تنكسر جملة حلقات بدون أن تتلف الجديلة •

رابعا ــ يقولون انه ليس من الرحمة أن نجحد الطقوس والخدمة من رجال صالحين أتقياء بين قسوس البروتستانت •

فالجواب على ذلك أن هذا هو عين ما يقوله الوثنيون عندما يقال لهم اذا لم تؤمنوا بالمسيح فلا تخلصوا فانهم يجاوبون قائلين ان رحمة الله واسعة ولا تنحصر فى شىء واحد • ولكن المحبة والرحمة الحقيقية هى قول الحق ، واذا كان أناس عندهم نية صالحة ولكنهم يغشون أنفسهم والآخرين بكونهم يتقلدون وظائف لا تخصهم فأعظم شفقة عليهم هى تحذيرهم من ضلالهم • وفى الواقع أن الكنيسة تعتبر رعاة البروتستانت بنفس اعتبارهم لأنفسهم فانهم أولا لا يدعون أنهم مرسلون من الله وثانيا لا يتجاسرون على تقديم ذبيحة جسد المسيح ودمه ، ولا على حل وربط الخطايا • وبما أن هذا هو أعترافهم وعدم ايمانهم بالأسرار وسلطان الكنيسة التى هى من أخص مزايا رتبة القسوسية فقد حكموا بأنه لا حق لهم فى هذه الرتبة الدينية • وهذا لا يمنع أن يأتوا أعمالا خيرية أو يقوموا بتعليم أو بوعظ بطرقهم غير النظامية •

خامسا ــ يقولون حتى ولو سلمنا بأن الخلافة الرسولية هى حقيقية وواضحة فلا يهم وجودها بين الجماعة ما دامت الكرازة بالانجيل جارية بمعرفة رجال أتقياء ، فالتقوى هى الخلافة الرسولية الحقيقية ولا لزوم لشىء خلافها •

فالجواب على ذلك نقول « ان الانجيل يقضى علينا باطاعة المسيح وخدامه عوضا أن نصنع مثل الذين يجمعون لأنفسهم معلمين مستحكة آذانهم (٢ تيموثاوس ٤ : ٣) « لأنه سيكون وقت لا يحتملون فيه التعليم الصحيح بل حسب شهواتهم يجمعون لأنفسهم معلمين مستحكة مسامعهم » وهكذا الناس الذين ينتخبون رعاتهم يفضلون أنفسهم على بيعة الله • وأما من جهة التقوى فلا دخل لها فى مادة الأحقية ، فان أولاد عالى رئيس الكهنة كانوا رجالا أشرارا ومع ذلك كانوا كهنة حقيقيين (١ صموئيل ٢ : ١٢) « وكان بنو عالى بنى

بليعال لم يعرفوا الرب » وكذلك يهوذا الاسخريوطى كان شريرا ومع ذلك كان رسولا حقيقيا (يوحنا ٦ : ٧٠) و « أجابهم يسوع أليس أنا اخترتكم اثنى عشر وواحد منكم شيطان » فهل كان يمكن لأحد أن يقيم نفسه كاهنا أو رسولا بدعوى أنه أحسن من حفنى أو فنحاس أو يهوذا الاسخريوطى كلا فانه لا ينتج عن التعدى عمل صالح • نعم قد يكون من بين الخدام أشرار ولكن لا تقدر التقوى وحدها أن تصير صاحبها راعيا شرعيا وتفرضه على الكنيسة ، كما أن حسن التبصر ومعرفة الشرائع لا تكفيان لجعل رجل قاضيا للمدينة بدون أمر من السلطان • وبناء على ما ذكر لا تقدر التقوى على اغتصاب الوظائف التى لم تمنح حسب الأصول وبالاجمال : —

أولا — الخلافة الرسولية هى حسب تعاليم الكتاب المقدس

ثانيا — الخلافة الرسولية هى عادة اتبعتها الكنيسة بأسرها

ثالثا — الخلافة الرسولية ليست ضد الرحمة والمحبة •

رابعا — الخلافة الرسولية تعتبر ضرورية عند كل الذين لا يريدون نسخ الشرائع ولا مقاومة رؤساء كنيسة المسيح •

الفصل الخامس

درجات الكهنوت الثلاث وترتيبها من الله

يتضح لنا من الانجيل أن درجات الكهنوت ثلاث : الأولى درجة الأسقف وهى العليا ، والثانية درجة القس وتخضع للأولى ، والثالثة درجة الشماس وهى الأخيرة

واليك الأدلة على ذلك : ـ

أولا ـ من الكتاب المقدس ـ حيث نجد الامتياز الواضح لرتبة الأسقف عن رتبة القس ، فان الرسل الأطهار أعطوا الأساقفة سلطانا وامتيازا خاصا عن القسوس ، لأنهم منحوهم حق اقامة القسوس ووضع اليد عليهم ، كما قال بولس الرسول لتلميذه تيطس « من أجل هذا تركتك فى كريت لكى تكمل ترتيب الأمور الناقصة وتقيم فى كل مدينة شيوخا (قسوسا) كما أوصيتكم » (تى ١ : ٥) وأمروهم بعدم الاسراع فى وضع اليد « لا تضع يدا على أحد بالعجلة ولا تشترك فى خطايا الآخرين » (١ تى ٥ : ٢٢) كما أعطوهم حق محاكمتهم حسب قول الرسول لتلميذه تيموثاوس « لا تقبل شكاية على شيخ (قس) الا على شاهدين أو ثلاثة شهود • الذين يخطئون وبخهم أمام الجميع لكى يكون عند الباقين خوف » (١ تى ٥ : ١٩ و ٢٠) وأعلنوا حق مكافأتهم « أما الشيوخ (القسوس) المدبرون حسنا فليحسبوا أهلا لكرامة مضاعفة ولا سيما الذين يتعبون فى الكلمة والتعليم » (١ تى ٥ : ١٧) •

أما أما تسمية القسوس أحيانا بالأساقفة ، أى رقباء ونظار ومحافظون على الشعب (لأن كلمة أسقف فى اليونانية « أبيسكوبوس » معناها ناظر أو رقيب أو محافظ • وكلمة قس باليونانية « بريسفيتيروس » ومعناها شيخ) فذلك لا يلغى الامتياز الجوهرى بين الرتبتين ، لأن الرسل سموا أنفسهم بتلك الأسماء فقد قال بطرس الرسول « أطلب الى الشـــيوخ (القسوس) الذين بينكم أنا الشيخ (القس) رفيقهم » (١ بط ٥ : ١) وقال يوحنا الرسول « الشيخ (١) الى كيرية المختار » (٢ يو ١ : ١ ، ٣ يو ١ : ١)•

قال **القديس ابيفانيوس أسقف قبرص** « انه لا يمكن أن يكون القس

(١) يعنى من الشيخ •

والأسقف متساويين ، وقد علم الكتاب الالهى ما هو الأسقف وما هو القس بقوله لتيموثاوس « لا تزجر شيخا » وفى محل آخر « لا تقبل شكوى على قس الا بشهادة اثنين أو ثلاثة » (ضد الهراطقة ك ٣ هرطقة ٧٥ : ٥) والبرهان على أن الرسل القـــديسين علموا أن درجة الاسقف غير درجة القس هو أن تلاميذ الرسل جميعهم فهموا ذلك وعلموه فى أقوالهم كما يأتى

ثانيا — ان خلفاء الرسل الذين تسلموا التعاليم من الرسل أنفسهم ، وقبلوا الكهنوت من أيديهم علموا هذا التعليم : قال القـــديس اكليمنضس أسقف رومية تلميذ بطرس الرسول « انه يجب علينا أن نعمل كل ما أمرنا به سيدنا فى أوقاته المعينة بالترتيب ، وأن نتمم القرابين والخدم التى أمر أن تصير لا كيفما اتفق وبلا ترتيب ، بل فى أوقات وساعات معينة وقد حدد أيضا بمشيئته السامية أين وممن يريد أن تتمم ، لكى يكون كل ما يصير ببر مقبولا لدى مشيئته حاصلا على تعطفه • فالذين يقدمون قرابينهم فى اوقاتها المعينة هم مقبولون عنده ومغبوطون • فانهم اذ تبعوا شرائع الرب لا يخطأون لان « رئيس الكهنة » اعطيت له خدم خصوصية و « للكهنة » تعين مكان خصوصى و « اللاويون » (اى الشمامسة) لهم خدم خصوصية ، واما العامى فانما هو مرتبط بالاوامر المتعلقة بالعوام » (رسالة الى أهل كورنثوس فصل ٤٠) وقد أوضح القديس اغناطيوس تلميذ يوحنا الرسول هذه المســألة بأكثر ايضاح حيث قال فى رسالته الى أهل أفسس « ان الاســاقفة قد تعينوا الى اقاصى الارض بحسب مشيئة يسوع المسيح » (فصل ٣) وقال فى رسالته الى أهل أزمير « اتبعوا الاسقف كلكم كما يتبع يسوع المسيح أباه ، واتبعوا الكهنة كالرسل ، وأكرموا الشمامسة حسب وصية الله » (فصل ٨) وقال فى رسالته الى أهل مغنيسيا « أتوسل اليكم أن تعملوا كل شىء بسلام الله تحت رياسة الاسقف حيث مكان الله ذاته ، والكهنة حيث مصاف الرسل ، والشمامسة المحبوبين منى جدا الذين أؤتمنوا على خدمة يسوع المســـيح » (فصل ٦)

ثالثا — ان رؤســـاء الكنائس وعلماءها فى القرون الأولى يذكرون هذا الترتيب فى درجات الكهنوت • قال القديس ايريناوس « جميع المخالفين لتعليم الكنيسة قد ظهروا متأخرين كثيرا عن هؤلاء الاســـاقفة الذين أؤتمنوا من الرسل على الكنائس » (ضد الهراطقة ٥ : ٢٠) وقال العلامة ترتوليانوس « قد تخصص حق التعميد بالكهنة الاعظمين (الأســاقفة) ثم أعطى للكهنة والشمامسة فقط ولكن ليس من دون اذن الأسقف » (فى المعمودية فصل ١٧) وقال العلامة أوريجانوس « يطلب منى انا القس أكثر مما يطلب من الشماس ومن الشماس أكثر من العامى ، ولكن الذى يضـبط بيده السلطة الكنسية يطلب منه أكثر منا كلنا » (مقالة ١١ على ارميا فصل ٣) •

رابعا — القوانين الرسولية وقوانين المجامع المسكونية والمكانية تبين هذه الحقيقة ، اذ تذكر الواجبات التى على كل من أصحاب هذه الدرجات ، الأساقفة

والقسوس والشمامسة · فقد جاء فى قانون ١٥ من قوانين الرسل « كل قس أو شماس أو أحد المعدودين من الاكليروسيين عموما يترك محل سكناه وينتقل الى ابروشية أخرى بقصد السكنى الدائمة بدون رأى أسقفه نأمر بأن يقطع ، خصوصا اذا استدعاه أسقفه ولم يطع » وجاء فى قانون ٣١ « كل قس احتقر اسقفه وأقام الصلاة منفصـــلا عنه وبنى مذبحا آخر من دون أن يثبت على الأسقف شيئا لا يوافق الأيمان والبر فليقطع اذ هو محب الرياسة » وجاء فى قانون ٢٩ « لا يجوز للقسوس والشمامسة أن يفعلوا شئيا البتة من غير رأى أسقفهم ، لأنه هو المؤتمن على شـــعب الرب وهو العتيد أن يحـاسب عن أنفســـهم » وجاء فى قـانون ١٨ من قوانين المجمع المسكونى الأول « ليلبث الشمامسة ضمن حدودهم عالمين أنهم خـدام للأسقف وأقل من القسوس » وقانون ٥٦ و ٥٧ من قوانين مجمع اللاذقية يأمر القسوس بعدم تقدمهم على أسقفهم ووجوب انقيادهم له ،وغير ذلك من القوانين ·

خامسا ـ ومما يثبت سمو درجة الاسقفيه وأمتيازها عن درجة القس ، وأنها مقامة من الله تعالى ولها سلطان ورياسة فى الكنيسة ، الجداول القديمة لاسماء الأساقفة الأولين فى كنائس رسولية عديدة · وقد كانت هذه الجداول قديما سلاحا فى وجه الهراطقة ، فقد قال **القديس ايريناوس** « يمكننا أن نعد الأساقفة الذين حكموا فى الكنائس من عصر الرسل وأن نحصى خلفاءهم أيضا حتى أيامنا هذه » وأوسابيوس المؤرخ الكنسى الشهير حفظ جداول قديمة عن سلسلة الخلافة لأساقفة كنيسة كورنثوس ورومية وأورشليم ويبين فهرس أساقفة الكنائس القديمة (كتاب ٤ فصل ٥و٢٢)

سادسا ـ ما ذكرناه فى الفصول السابقة من شـــهادة موسهيم المؤرخ البروتستانتى وما هو واضح فى تاريخ الكنيسة منذ العصور الأولى يثبت أن الدرجات الكهنوتية كانت ولا تزال ثلاث ، وهى أسقف وقس وشماس وأنها رتبت فى الكنيسة بسلطان الهى وأن هذه الرتب أشبه شىء برتب الملائكة كما قال **القديس أكليمنضس الاسكندرى** « ان درجات الأسقف والكهنة والشمامسة تشبه بحسب رأيى المجد الملائكى » (فى البديعيات ٦ : ١٣) لأن رتب الملائكة ثلاث وكل رتبة منها ثلاثة أصناف ·· فالرتبة الأولى تشمل الكروبيم (خر ١٠ : ١٨) والسرافيم (أش ٦ : ٢) والعروش (كو ١ : ١٦) والرببة الثانية تشمل الرياسة والسادات والسلاطين (كو ١ : ١٦) والرتبة الثالثة تشمل القوات (١ بط ٣ : ٢٢) والملائكة ورؤساء الملائكة (رو ٨ : ٣٨ ، ١ تس ٤ : ١٦) وعلى هذا المثال رتبت الدرجاب الكهنوتية الثلاث · فالأولى وهى الأسقفية تشـمل وظائف البطريرك والمطران والأسقف : والثـــانية وهى القسيسية تشمل وظائف الخوريبيسكوبوس والايغومانوس والقس والثالثة وظيفة الشماسية تشمل الابودياكون (أى معين الشـــماس) والأغنسطس (القارىء) والأبصلتس (المرتل) ·

الفصل السادس

درجات الشماسية والقسيسية والاسقفية

ان الشماسية هى درجة من درجات الكهنوت ، بها يتولى صاحبها ولاية خاصة لمساعدة القسيس عند تلاوة القداس واتمام الخدم المنوط بها ، وهى درجة مستوفاة جميع مقتضيات السر ، اذ فيها مادة السر وصورته وخادمه فمادة السر وضع اليد وصورته الصلاة كما يظهر مما فعله الرسل اذ « أقاموهم (أى الشمامسة) أمام الرسل فصلوا ووضعوا عليهم الأيادى » (اع ٦ : ٦) واليهم أشار الرسول بولس فى (١ تى ٣ : ٢ و ٨ ، فى ١ : ١ و ٢) أما خادم السر فهو الأسقف ٠

والشماس لفظة سريانية وفى العبرية شماس ومعناها خادم وباليونانية « دياكون » وللشمامسة واجبات منها أن يوزعوا الصدقات على الفقراء (اع ٦ : ١ – ٤) ولهم أن يكرزوا بالانجيل ولكن بأذن الأسقف (راجع أع ٦ : ٥ ، ٨ : ٤ ، ٢١ : ٨) وكان لهم أن يحملوا الكأس ويقربوا الشعب ، ليس لأنهم كهنة ، بل لأنهم خدام الكهنة (راجع ما لهم من الحقوق وما عليهم من الواجبات فى الباب السابع من كتاب المجموع الصفوى للشيخ الصفى ابن العسال) ٠

وواضح فى الكتاب أن درجة القسيسية تختلف عن درجة الشماسية حيث يختلف الشمامسة والكهنة بالأسم والوظيفة ٠ فالكهنة موكول اليهم مباشرة وتوزيع سر المسحة كما جاء فى (يع ٥ : ١٤) وتدبير الكنائس كما ورد فى (أع ١٤ : ٢٢ ، ١ تى ٥ : ١٧ ، تى ١ : ٥) وقسيس لفظة سريانية ، وباليونانية ابريفسيتيروس ، وبالقبطية (ⲡⲓ ϩⲉⲗⲗⲟ) وترجمتها بالعربية الشيخ ، ووظيفته تقديس القرابين وعماد المعتمدين وتزويج المتزوجين وتأدية خدمة الأسرار وتوزيعها على الشعب وتعليمهم ووعظهم وباقى الخدمات الدينية وحقوق القسوس وواجباتهم واضحة فى كتب القوانين – راجع الباب السادس من كتاب المجموع الصفوى للشيخ الصفى ابن العسال

أما الاسقفية فهى الدرجة العليا فى الكهنوت ، والاسقف كاهن ذو درجة ورتبة أولى ، موكول اليه كما للكاهن ، أن يقدم القرابين ويعمل ما يعمله الكاهن ، وهو فى كنيسته ورعيته نائب المسيح ٠ ومن ثم له حق الرياسة على الكهنة الذين تحت ادارته وعلى رعيته ٠ وله السلطان أن يقيم الكهنة لشعبه ويمنحهم الحقوق والسلطة الروحية ٠ فهو الذى يعلم الشعب ويدبره ويقيم لهم الرعاة المدبرين والمعلمين اما حقوقه وواجباته فمذكورة فى الباب الخامس من كتاب المجموع الصفوى للشيخ الصفى ابن العسال

الفصل السابع

القسم المنظور من سر الكهنوت وفعله غير المنظور وعـــدم اعادته

ان القسم المنظور من سر الكهنوت يتالف من أمرين :

١ ــ وضع اليد ٢ ــ الصلاة

ونرى هذين الأمـرين واضــحين فى الكتاب فى ســيامة الأســاقفة والقســوس والشــمامسة (راجــع ١ تى ٤ : ١٤ ، ٥ : ٢٢ ، ٢ تى ١ : ٦ ، أع ٦ : ٦) كذلك جميع القوانين الرسولية فانها تقرر وضع اليد ، فقد جاء فى هذه القوانين « أيها الأسقف عنــدما تشرطن قسا ضع يدك على رأسه » (كتاب ٨ : ١٦ و ١٧) وكذلك المجامع المسكونية والمكانية فانها تعلم هذا التعليم ، وجمع آباء الكنيسة ومعلموها يصرحون أن سيامة الأسقف أو القس أو الشماس لا تتم الا بوضع اليد • ووضع اليد كان مصحوبا بالصلاة دائما كما جــاء فى سفر الأعمــال عن الذين اختــاروهم « الذين أقاموهم أمام الرسل فصلوا ووضعوا عليهم الأيادى » (أع ٦ : ٦) وبولس وبرنابا عندما كانا يثبتان ويشددان التلاميذ « انتخبا لهم قسوسا فى كل كنيسة ثم صليا بأصوام واستودعاهم الرب » (أع ١٤ : ٢٣) ولاتزال الكنيسة سائرة على هذه الطريقة الموضوعة من الرسل وتستعمل ذات الصلوات التى كانت تستعمل منذ القديم •

أما نتيجة سر الكهنوت غير المنظورة فى المشرطن (الموضوع عليه اليد) فهى أنه يقبل بهذا السر مفعولين : أولهما الوسم ، وثانيهما النعمة • فالوسم هو السمة التى يرسمها سر الكهنوت فى نفس من يناله ، وهذه السمة دائمة لا تمحى (راجع ما ذكرناه عن الوسم عند كلامنا فى مفعول الأسرار ص ١٨ ــ ٢١) • أما النعمة فهى الهبة التى ينالها المشرطن من الله ، المناسبة لخدمته التى انتدب اليها وهى نعمة الكهنوت • وقد أشار الرسول بولس الى هــذه الموهبة بقوله لتلميذه تيموثاوس « ولا تهمل الموهبة التى فيك المعطاة لك بالنبوة مع وضع أيدى المشيخة » (١ تى ٤ : ١٤) « أذكرك أن تضرم أيضا موهبة الله التى فيك بوضع يدى » (٢ تى ١ : ٦) وقال **القديس يوحنا ذهبى الفم** « انى أذكرك أن تذكى موهبة الله التى فيك بوضع يدى ، يعنى هنا نعمة الروح التى نالها الرؤساء لرياسة الكنيسة وللآباء ولكل العبادة فانها فى يدهم

أن يطفئوها أو يذكوها » (تفسيره على ٢ تى ١ : ٢) وقال القديس أيضـــا « لو أفتكر أحد بأنه يستطيع الدنو من تلك الطبيعة المغبوطة النقية لكان يرى جيدا الى أى كرامة أهلت نعمة الروح الكهنة • لانه بهم تتمم هذه وغيرها مما لا بديل لها فى أمر وظيفتنا وخلاصـــنا • فان رجالا ساكنى الأرض وسالكين فيها نيـط بهم أن يسوسوا ما فى الســـموات ، ونالوا سلطانا لم يعطه الله للملائكة ولا لرؤسا الملائكة » (فى الكهنوت ٣ : ٥) وقال **القديس غريغوريوس النيسى** « ان قوة الكلمة عينهاتجعل الكاهن وقورا ومكرما بالبركة الجديدة اذ ينفصل عن الجماعة الكثيرة (الشعب) لأنه كان أمس وقبل واحدا من الكثيرين ومن الشعب ، فصار حالا دفعة واحدة متقدما ومعلما للايمان وكاتما للاسرار الخفية • وهذا كله يصنعه من دون أن يتغير شىء فى جسده أو هيئته • بل وهو لم يزل فى الظاهر كما كان تتغير نفسه غير المنظورة فى ما هو أفضل بقوة ونعمة غير منظورتين » (على معمودية المسيح ١٠)

ونعمة الكهنوت تمنح على درجات متنوعة للمشرطنين • فالشماس ينالها بدرجة أقل • والقس ينالها بدرجة أرفع منه • والأسقف ينالها بدرجة أسمى ، وذلك بنسبة الدرجة التى ينالها كل من أصحاب هذه الدرجات •

أما من جهة عدم اعادة وضع اليد مرة ثانية على المشرطن فذلك لأننـــا أوضحنا بأن السر يمنح صاحبه السمة ويطبعها فيه طبعا لا يمحى ، وعليه لا يجوز اعادة السر بوجه من الوجوه • وقد قال قانون ٦٨ من قوانين الرسل « كل أسقف أو قس أو شماس ينال الشرطونية ثانية من أحد يقطع هو والذى شرطنه » وجاء فى قانون ٣٥ من قوانين مجمع قرطاجنة وقانون ٥٧ منه أيضا « لا يسمح باعادة المعمودية واعادة الشرطونية أو نقل الأساقفة »

الفصل الثامن

خادم سر الكهنوت

ان خادم سر الكهنوت هو الأسقف وحده الذى له حق الشرطونية (وضع اليد) وهذا واضح مما يأتى : -

أولا - من الكتاب المقدس حيث يتضح أن الرسل وحدهم كانوا يقيمون الأساقفة والقسوس والشمامسة وأعطوا هذا السلطان لخلفائهم الأساقفة من بعدهم • فقد وضعوا اليد على اساقفة (٢ تى ١ : ٦) وعلى قسوس (اع ١٤ : ٢٢ ، ٢٣) وعلى شمامسة (أع ٦ : ٥) وبولس الرسول قال لتيطس أسقف كريت « من أجل هذا تركتك فى كريت لكى تكمل الأمور الناقصة وتقيم فى كل مدينة شيوخا (قسوسا) كما أوصيتك » (تى ١ : ٥) وقال لتيموثاوس أسقف افسس « لا تضع يدا على أحد بالعجلة ولا تشترك فى خطايا الآخرين » (١ تى ٥ : ٢٢) أما قول بولس الرسول - مع وضع أيدى المشيخة - فقد شرحها **القديس يوحنا ذهبى الفم** بقوله : « ان كلمة بريسفيتيريون (التى أصطلح على ترجمتها بالقسوس أو المشـــيخة) فانها تدل على جمعية رعاة الكنيسة الذين كان أحدهم بولس الرسول • لا على القسوس فقط فلم يقل عن القسوس بل عن الأساقفة • لأن القسوس لم يكونوا يشرطنون الأسقف » (مقالة ١٣ : ١ على ١ تى)

ثانيا - من القوانين الرسولية والمجمعية فان قانون ١ من قوانين الرسل يقول « الأسقف يشرطن من أسقفين أو ثلاثة » وقانون ٢ منها يقول « القس والشماس وسائر الاكليروس يشرطنون من أسقف واحد » وقانون ١٩ من قوانين المجمع الأول المسكونى المجتمع فى نيقية حدد أن يسام الاكليروس من أسقف الكنيسة ، وقـــانون ٩ من قوانين مجمع انطاكية فوض للأسقف أن يشرطن قسوسا وشمامسة ويقضى كل الأعمال بتدقيق •

ثالثا - ان آباء الكنيسة فى تعاليمهم يعلنون هذه الحقيقية ، فقد قال **القديس يوحنا ذهبى الفم** « ان الاساقفة يسمون (١) عن القسوس بالشرطونية فقط وبها وحدها يظهر أنهم يمتازون عنهم » (على ٢ تى مقالة ١٠ : ١) وقال **القديس ابيفانيوس** « ان درجة الأساقفة تمتاز بنـــوع خصوصى بأنهم يلدون آباء • لأن تكثير الآباء فى كنيسة المسيح يختص بالأســـاقفة • وأما الرتبة الثانية (الكهنة) فلا يمكنها أن تلد آباء أو معلمين • وكيف يمكن أن يشرطن كاهن كاهنا آخر وليس له سلطة الشرطونية ؟ » (هرطقة ٧٥ : ٤) وقال **القديس ايرونيموس** « ماذا يعمـــــل الأسقف ولا يعمـــله القس خلا الشرطونية » (رسالة ٨٥)

---

(١) يعنى « يتميزون »

الفصل التاسع

الدعوة الى الرتبة الكهنوتية وعلاماتها
ومؤهلات المدعوين اليها

بما أن الدرجة الكهنوتية درجة سامية وشريفة ، فقد أمر الله تعالى أن لا يدنو منها ويقتبلها الا من كان مستحقا لها ، بناء على دعوة الهية . وهذه الدعوة واضحة فى الكتاب المقدس من النصوص الآتية : —

ففى العهد القديم . قال الرب « وتخدمون خدمة . عطية أعطيت كهنوتكم والاجنبى الذى يقترب يقتل » (عدد ١٨ : ٧) وقوله « من أرسل ومن يذهب من أجلنا . فقلت هأنذا ارسلنى » (أش ٦ : ٨) وقوله « روح السيد الرب على لأن الرب مسحنى لأبشر المساكين . أرسلنى لأعصب منكسرى القلب » . (اش ٦١ : ١) وقوله لارمياء « قبلما خرجت من الرحم قدستك . جعلتك نبيا للشعب .. فقال الرب لى لا تقل انى ولد لأنك الى كل من أرسلك اليه تذهب وتتكلم بكل ما آمرك به » (ار ١ : ٤ — ٧) وقوله « هأنذا على الذين يتنبأون بأحلام كاذبة يقول الرب .. وأنا لم أرسلهم ولا أمرتهم . فلم يفيدوا هذا الشعب فائدة يقول الرب » (ار ٢٣ : ٣٢)

وفى العهد الجديد قال المخلص لتلاميذه « كما أرسلنى الآب ارسلكم أنا » (يو ٢٠ : ٢١) وقال لهم « ليس أنتم اخترتمونى بل أنا اخترتكم » (يو ١٥ : ١٦) وقال أيضا « الحق الحق أقول لكم ان الذى لا يدخل من الباب الى حظيرة الخراف بل يطلع من موضع آخر فذاك سارق ولص . وأما الذى يدخل من الباب فهو راعى الخراف الخ » (يو ١٠ : ١ — ٥) وقوله « اطلبوا من رب الحصاد أن يرسل فعلة الى حصاده » (مت ٩ : ٢٨) ويتم ذلك بفعل روح الله القدوس بدليل ما جاء فى سفر الأعمال (١٣ : ٢) « وبينما يخدمون الرب ويصومون قال الروح القدس افرزوا لى برنابا وشاول للعمل الذى دعوتهما اليه » وقول الرسول بولس « احترزوا اذا لأنفسكم ولجميع الرعية التى أقامكم الروح القدس فيها اساقفة لترعوا كنيسة الله » (أع ٢٠ : ٢٨) وقوله « الكرازة التى أؤتمنت أنا عليها بحسب امر مخلصنا الله » (تى ١ : ٣) وقوله « الذى خلصنا ودعانا دعوة مقدسة » (٢ تى ١ : ٩) وقوله « كيف يكرزون ان لم يرسلوا » (رو ١٠ : ١٥) وقوله « لا يأخذ أحد هذه الوظيفة بنفسه بل المدعو من الله كما هرون » (عب ٥ : ٤) لأن خدمة الكهنوت خدمة سماوية ، خدمة أسرار تشتهى الملائكة أن تطلع عليها ، وقال عنها **القديس يوحنا ذهبى الفم** « خدمة لم يعطها الله للملائكة ولا لرؤساء الملائكة . وقد سميت هذه الخدمة خدمة الروح (٢ كو ٣ : ٨) وخدمة البر وخدمة المصالحة (٢ كو ٣ :

٩ ، ٥ : ١٨) وسمى الرعاة ملائكة رب الجنود (ملا ٢ : ٧ ، رؤ ٢ : ١) وخدام الله لبناء بيت الله (١ كو ٣ : ٥ ـ ١٠ ، ٤ : ١) وملح الأرض (مت ٥ : ١٣) ونور العالم (مت ٥ : ١٤) وسراج موقد على منارة (مت ٥ : ١٥ و ١٦) وهكذا من الأسماء الشريفة والألقاب السامية الدالة على شرف وعظمة هذه الرتبة لذلك أقتضى الأمر أن لا يقبل أحد الى هذه الدرجة المقدسة الا بناء على دعوة الهية ، والرب يسوع المســـيح نفسه المذخر فيه كل كنوز الحكمة والعلم الذى به كان كل شيء ويغيره لم يكن شيء مما كان ، قيل عنه انه انتدب الى الكهنوت حسب قول الرسول • كذلك المسيح أيضا لم يمجد نفسه ليصير رئيس كهنة بل الذى قال له أنت ابنى أنا اليوم ولدتك • وكما يقـــول فى موضع آخر أنت كاهن الى الأبد على رتبة ملكى صادق » (عب ٥ : ٥ و ٦) وهو له المجد خصص الكلام فى اشعياء القائل « روح السيد الرب على لأن الرب مسحنى » (اش ٦١ : ١) بدعوته الى بشارة الانجيـــل • وعنـــد معموديته انفرز انفرازا خاصا لعمله لما حل الروح القدس عليه (مت ٣ : ١٦ و ١٧) وتثبتت دعوته بالصوت الآتى من الآب على جبل التجلى بقوله تعالى « له اسمعوا » (مت ١٧ : ٥) وكما قال **القديس كبريانوس** « هل يمكن أن يوجد أحد جسور حتى أنه يروم الحصول على الكهنوت من تلقاء نفسه ومن دون أن يدعوه الله » لذلك كان أكثر الآباء القديسين يهربون من قبول هذه الرتبة ويفرون من مسئولياتها •

فالذين يختارهم الله للكهنوت ينتدبهم ويدعوهم ليكونوا خداما له كما قيل فى سفر العدد الذى « يختاره يقربه اليه » (٦ : ٥) قال **القديس أفرآم السريانى** « ان من تجاسر وصار كاهنا من غير أن يدعوه الله يهلك » فياجسارة أولئك الذين يجترئون ويسعون للحصول على درجة الكهنوت وهم غير أكفاء لها وغير مدعوين اليها ويظنونها مهنة يتعيشون منها ! أولئك يتم عليهم ما قاله الله عن الذين يبقون من أولاد عالى « ويكون أن كل من يبقى فى بيتك يأتى ليسجد له لأجل قطعة فضـــة ورغيف خبز ويقول ضمنى الى احدى وظائف الكهنوت لآكل كسرة خبز » (١ صم ٢ : ٣٦) • أمثـــال هؤلاء نصيبهم نصيب الأنبياء الكذبة الذين قال عنهم الرب « لم أرسل الأنبياء بل هم جروا • لم أتكلم معهم بل هم تنبأوا • ولو وقفوا فى مجلسى لأخبروا شـــعبى بكلامى وردوهم عن طريقهم الردىء وعن شر أعمالهم •• هم أنبياء خداع قلبهم •• لذلك هأنذا على الأنبياء يقول الرب الذين يسرقون كلمتى بعضهم من بعض ••• الذين يأخذون لسانهم ويقولون • هأنذا على الذين يتنبأون بأحلام كاذبة ••• ويضلون شعبى بأكاذيبهم ومفاخراتهم وأنا لم أرسلهم ولا أمرتهم فلم يفيدوا هـــذا الشـــعب فـــائدة يقـــول الرب » (ار ٢٣ : ٢١ ـ ٣٢) « كل غرس لم يغرسه أبى السماوى يقلع » (مت ١٥ : ١٣) •

ليس لنا اليوم صوت مسموع من الله يدعو به الانســـان الى خدمته ، ولا يرسل الينا ملاكا لانتداب المدعو الى الكهنوت ، ولكن هذه الدعوة الالهية تعرف بطريقتين ظاهرة وباطنة • فالظاهرة هى تصديق الكنيسة وشهاداتها للأهلية ، لانها تمنح السلطان الرسمي لهذه الخدمة • وأما الباطنة فهى صوت روح الله وقوته اللذان يؤثران فى ارادة الانسان واقناعه حين يكون طالب هذه الخدمة مملوءا بالرغبة الشديدة والقصد الثابت فى خدمة الله تعـالى وخلاص النفوس ، علاوة على تجدده بروح الله وحصـــوله على المؤهلات الكافية لهذه الخدمة • فالمدعو من الله لخدمة الكهنوت يجب أن يكون محركا من الله لمجرد خدمة اسمه القدوس وليس لأجل طمع ، ولا لربح دنيوى ، ولا لمجد عالمى ، ويجب أن يكون مستعدا لأن يكرس ذاته لله ويضحى نفسه فى خدمته وخدمة النفوس التى اشتراها المسيح بدمه

وأخص علامات الدعوة الالهية لهذه الدرجة هى :

١ ـ الميل القلبى للخدمة فان هذا الميل دليل على استعداد النفس للامور الروحية

٢ ـ المناسبة للخدمة روحا وعقلا وجسدا ، فان الله تعالى لا يدعو الى هذه الخدمة من ليس أهلا لها

٣ ـ الدعوة من كنيسته اذ يرى شعب تلك الكنيسة الصفات والمؤهلات فى شخص ، فيزكونه بعد أن يختبروه الخبرة التامة

٤ ـ بعض حوادث وأحوال من العناية الالهية تدل على موافقة الانسان لهذه الخدمة ، كما حصل فى قصة انتخاب القديس أمبروسيوس فان هـــذا الأسقف ولد سنة ٣٤٠ م من عائلة شريفة وكان واليا على ولاية ميلان، ولما مات أسقفها الآريوسى وحدث شغب عظيم فى انتخـــاب خليفة له ، دخل أمبروسيوس الوالى ليهدئ الشعب ، فرفع ولد صـــوته قائلا أمبروسيوس أسقف !! فقبل الشعب ورفعوا أصواتهم علامة على قبـــولهم • ثم انتخبوه أسقفا ، ولم يقبلوا منه رفضه الشديد ،بل أجبروه على قبول درجة الاسقفية فصار أسقفا عظيما مشهورا ، وأبطل التعليم الأريوسى

وبناء على ما تقدم تحترم الكنيسة جدا قداسة الخدمة الرعوية وكانت منذ القديم تهتم بالمرشحين الى الدرجات الكهنوتية وأسست لهم المدارس اللاهوتية لاعدادهم وتثقيفهم ولا تضع يدا على أحد منهم بالعجلة حسب اشارة بولس الرسول ، بل تفحصهم أولا فى قواهم الطبيعية والعقلية والأدبية : ـ

أولا ـ القوة الطبيعية ـ فان كنيسة العهد القـــديم كانت تشترط أن ينتخب الكاهن من الخالين من كل عيب جسدى ومن كل تشويه فى الأعضاء

وكان اذا أصيب أحد بشيء من ذلك بعد اقامته كاهنا يطرد من الخدمة لئلا يدنس قدس الله (راجع لا ٢١ : ١٦ ـ ٢٤) وذلك لأن كنيسة العهد القديم كان جل اهتمامها فى الأمور الخارجية والطقسية . أما كنيسة العهد الجديد فلانها ديانة الروح والحياة وجل اهتمامها بالأمور الباطنية وليس الخارجية ، فلا تمنع عن الكهنوت من كان فيه عيب جسـدى ، اذا كانت فيه المؤهلات السامية ، وانما تمنع من لا يسمح له عيبه الجسدى بتتميم فروضه الكهنوتية كالأعمى والأصم والمريض بأمراض تعطل خدمته ، ومن كان كاهنا وأصيب بمثل تلك الأمراض فلا يجرد من وظيفته بل يوقف عن خدمته مع بقاء الأحترام والوظيفة له . وصحة الجسد وسلامة البنية والقوة على العمل من الشروط اللازمة لكل عمل من أعمال الدنيا ، فكم بالحرى لهذه الخدمة المقدسة التى تقتضى بذل النفس والجسد فى تأدية واجباتها .

ثانيا ـ القـوى العقلية ـ فان جميع القوانين الكنسية تقرر أن يكون المنتخب للوظيفة الكهنوتية مثقفا بكل أنواع الثقافة ، وبالأخص فى العلوم الدينية . وأن يكون قادرا على التعليم حسب قول الرسول بولس لتلميذه تيموثاوس ، يجب أن يكون الأسقف بلا لوم بعل امرأة واحدة صاحيا عاقلا محتشما مضيفا للغرباء صالحا للتعليم غير مدمن الخمر ولا ضراب ولا طامع بالربح القبيح ... بل حليما غير مخاصم ولا محب للمال . يدبر بيته حسنا . له أولاد فى الخضوع بكل وقار . وانما ان كان أحد لا يعرف أن يدبر بيته فكيف يعتنى بكنيسة الله . غير حديث الايمان لئلا يتصلف فيسقط فى دينونة ابليس . ويجب أن تكون له شهادة حسنة من الذين هم من خارج لئلا يسقط فى تعيير وفخ ابليس . كذلك يجب أن يكون الشـمامسة ذوى وقار لا ذوى لسانين غير مولعين بالخمر الكثير ولا طامعين بالربح القبيح . ولهم سر الايمان بضمير طاهر . وانما هؤلاء أيضا ليختبروا أولا ثم يتشمسوا ان كانوا بلا لوم . ليكن الشمامسة كل بعل امرأة واحدة مدبرين أولادهم وبيوتهم حسنا . لأن الذين تشمسوا حسنا يقتنون لانفسهم درجة حسنة وثقة كثيرة فى الايمان الذى بالمسيح يسوع » (١ تى ٣ : ٢ ـ ١٣) وقوله الى تلميذه تيطس « من أجل هذا تركتك فى كريت لكى تكمل الأمور النـاقصة وتقيم فى كل مدينة شيوخا (قسوسا) كما أوصيتك . ان كان أحد بلا لوم بعل امرأة واحدة . له أولاد مؤمنون ليسوا فى شكاية الخلاعة ولا متمردين لأنه يجب أن يكون الأسقف بلا لوم كوكيل الله غير معجب بنفسه ولا غضوب ولا مدمن الخمر ولا ضراب ولا طامع فى الربح القبيح . بل مضيفا للغرباء محبا للخير متعقلا بارا ورعا ضابطا لنفسه ملازما للكلمة الصادقة التى بحسب التعليم لكى يكون قادرا أن يعظ بالتعليم الصحيح ويوبخ المناقضين » (تى ١ : ٥ ـ ٩) « وما سمعته منى بشهود كثيرين أودعه أناسا أمناء يكونون أكفاء أن يعلموا آخرين أيضا » (٢ تى ٢ : ٢) « اكرز بالكلمة اعكف على ذلك فى وقت مناسب وغير

مناسب وبخ انتهر عظ بكل اناة وتعليم ٠٠٠ احتمل المشقات اعمل عمل المبشر ٠ تمم خدمتك » (٢ تى ٤ : ٢ ـ ٥)

فبناء على نصوص الكتاب وقوانين الرسل والمجامع لا ينتخب الى الوظيفة الكهنوتية الا من كان عالما بالكتب المقدسة متضلعا فى قوانين الكنيسة ، غير حديث الايمان ٠

ثالثا ـ القوى الأدبية ـ ان نصوص الكتاب وقوانين الكنيسة تقرر أن لا يقبل فى الكهنوت الا الأشخاص المشهود لهم بالسيرة الحسنة والورع والقداسة والايمان الحى ٠ وقد أشار بولس الرسول الى ذلك بقوله لتلميذه تيموثاوس « اجتهد أن تقيم نفسك لله مزكى عاملا لا يخزى مفصلا كلمة الحق بالاستقامة » (٢ تى ٢ : ١٥) « لا يستهن أحد بحداثتك بل كن قدوة للمؤمنين فى الكلام فى التصرف فى المحبة فى الروح فى الايمان فى الطهارة الى أن أجىء ٠٠٠ اعكف على القراءة والوعظ والتعليم ٠٠٠ اهتم بهذا وكن فيه لكى يكون تقدمك ظاهرا فى كل شىء ٠ لاحظ نفسك والتعليم وداوم على ذلك لأنك ان فعلت هذا تخلص نفسك والذين يسمعونك أيضا » (١ تى ٤ : ١٢ ـ ١٦)

ولا يسع المجال هنا أن نذكر جميع نصوص الكتاب وأوامر المجامع وأقوال الآباء عن شرف هذه الوظيفة وسموها، والواجبات المطلوبة من الكهنة ، والفضائل التى يجب أن يكونوا حاصلين عليها ، والاستعداد التام لقبول هذه الدرجات المقدسة ٠

وحبا فى الأختصار نورد هنا بعض أقوال الآباء الذين وضعوا المؤلفات الثمينة فى هذا الصدد :

قال القديس **غريغوريوس الثاولوغس** « لا يقدر أحد فى العالم أن يعلم غيره صناعة ان لم يكن هو قد درسها قبلا وطالعها بانتباه تام ، فكيف أذن ينخرط البعض فى الأكليروس ويقبلون الخدمة الرعوية من غير استعداد البتة ٠ مع أن ادارة النفوس صناعة من أهم الصنائع »

وقال **القديس غريغوريوس** الكبير « ان أولئك الذين خصهم الله بمواهب سامية هم أسمى من سواهم ويمتازون بميلهم الى خير الغير فهم أتقياء والفضل فى ذلك لفقههم ٠٠ وأقوياء نتيجة امساكهم ، وميالون للجميع بقوة المحبة التى تورث البرارة ٠ فأن دعى مثل هؤلاء الى خدمة الرعوية ورفضوها فيهلكون مواهبهم التى خصهم الله بها ، فلا تعود تنفعهم ولا تنفع غيرهم ، لا سيما الذين تخرجوا من مدارس لاهوتية ، عليهم أن يتذكروا قول الرب « الحصاد كثير والفعلة قليلون » وايضا لا تخفى مدينة مبنية على جبل ، ولا يوقد سراج ويوضع تحت المكيال بل على المنارة ليضىء على كل الذين فى البيت ، ولذلك يقول الرسول بولس ان أشتهى أحد الأسقفية يشتهى عملا صالحا ٠٠٠ من عنده كل الصفات اللائقة لرعاية قطيع الله ولا يقبلها فهو لا يحب رئيس

الرعاة • وبالعكس من يقبل على خدمة الكهنوت باستحقاق، يبرهن بذلك على محبته لله وللقريب محبة تدفعه الى ان يبذل نفسه أمام الله »

قال أيضا « ان على راعى الكنيسة أن يقف مع الملائكة وأن يسبح مع رؤساء الملائكة ، وأن يقدم الذبيحة على المذبح الذى هو فى الأعالى ، وأن يقدس الأسرار مع المسيح وأن يعمل كل شىء للبنيان » وقال « انه لمشين للانسان أن يأخذ على عاتقه العمل المقدس ولا يتقدس كأن يقبل الى قدس الأقداس بأيد غير نظيفة ونفس مدنسة • فكأن خدمة الهيكل لا يعدون وظيفتهم مثالا للفضيلة فيتزاحمون ويتضاربون حول المائدة المقدسة ظانين أن وظيفتهم هذه ليست مثالا للفضيلة بل وسيلة لاقتناء المعاش ، ولا يفكرون بما على صاحبها من المسئولية العظمى حاسبين اياها سلطة غير محاسبة عما تأتى به من الأفعال فمثل هؤلاء الخدمة القليلى التقوى الذين وهم فى حالة السعادة يستوجبون البكاء والنحيب كادوا يكونون أكثر عددا من مرؤوسيهم الذين هم على هذه الصورة ، فالجدير بمن على هذه الشاكلة أن يتعلم أولا واجباته ثم يحمل على عاتقه هذه المهمة ، والا فمثله يكون مثل من يأخذ على عاتقه وظيفة التعليم وهو غير أهل لها ، وكمثل رجل أراد أن يتعلم عمل القدور رأسا من نظره الى قدر كبير ، فلا شك أن مثل هذا جاهل وأحمق » ثم بدأ هذا القديس يوبخ الذين قبل أن يعرفوا أسماء الكتب المقدسة وكتابها ومؤلفيها ، انهم لدى استظهارهم كلمتين أو ثلاث بالسمع لا بالكتب يظنون أنفسهم معلمين ماهرين ويريدون أن يدعوهم الناس يامعلم »

وقال **القديس يوحنا ذهبى الفم** « الكهنوت يكمل على الأرض ولكنه مشروع سماوى ، فانه لا انسان ولا ملاك ولا رئيس ملائكة ولا غيرها من قوات مخلوقة أقام هذه الخدمة ، بل الروح القدس نفسه هو الذى رفع الانسان وهو على الأرض الى رتبة الملائكة ، ولذلك فعلى الكاهن أن يكون نقيا طاهرا كأنه بين الملائكة أنفسهم • أيفتكر الانسان حين يرى الرب (١) يقدم ذبيحته والكاهن أمام المذبح يصلى ويرش الجميع بالدم الذكى انه بين العالم وعلى الأرض • كلا ثم كلا فان العقل يصعد الى السماء ويطرح الافكار العالمية جانبا • فالكهنة انتدبوا ليديروا السماويات وهم على الأرض ، وأخذوا سلطانا لم يعطه الله للملائكة ولا لرؤساء الملائكة • لانه لم يقل لهؤلاء ما تربطونه على الأرض يكون مربوطا فى السماء وما تحلونه على الأرض يكون محلولا فى السماء •• »

---

(١) ربما قصد بقوله •• الرب يقدم ذبيحته أن سر الشكر هو عطية من السيد المسيح الذى أعطانا جسده ودمه على المذبح بفعل الروح القدس وليس عن استحقاقنا ، وما الكاهن الا واسطة ولذا قال (الرب يقدم ذبيحته) •

وبعد أن تكلم عن نقاوة الكاهن الادبية اللائقة بخدمته السامية قال . كيف يجب أن يكون ذاك الذى يصلى عن بلدة بأسرها لا عن العالم كله ويطلب من الله تعالى مغفرة خطايا الأحياء والاموات أيضا . بالحق أنا أعد أن جسارة موسى وايليا غير كافية لذلك . لان الكاهن يتقدم الى الرب كأنه موكل عن كل العالم ، وكأب للجميع ، ويصلى لكى يمنح الله الحروب ويخمد الفتن ، ويطلب تعميم السلام وخصب أثمار الأرض ، وزوال المصائب . ولذلك يجب أن يفوق من يصلى عنهم بمقدار ما يفوق المحامى المحامى عنه . وأى نقاوة تطلب منه حين يستدعى الروح القـــدس ويكمل الذبيحة الألهية الرهيبة ، ويلمس سيد العالم ، بل يضعه فى قلبه . وأى نقاوة يجب ان تحويها تلك الأيدى التى تخدم ذلك وكيف يجب أن يكون اللسان الذى يفوه بكلمات التقديس ، وكم تكون مقدسة التى تقبل الروح الكلى قدسه فان الملائكة وكل الطغمات السماوية تقف اذ ذاك أمام الكاهن على المائدة المقدسة متهللة ... فلا عجب بعد أن علمنا ذلك اذا رأينا الرجال العظام كالاناء المصطفى الذى خطف الى السماء الثالثة واســـتحق أن يرى أسرار الله يرهبون دائما لدى نظرهم الى أهمية هذه الوظيفة »

وعندما بدأ بذكر الاسباب التى دعته الى الهروب من قبـــول وظيفة الكهنوت قال «فليتهمونى بمحبة الشرف والمجد الفارغ ، اذا كان يكفى فقط فى رياسة الكهنوت أن أسمى راعيا وأتمم هذه الوظيفة كيفما كان ولا يكون خطر من ذلك ... على الذين يقتبلون الرعاية أن يكونوا ذوى فكر ثاقب ، وأن يعرفوا مقدار هذه النعمة العظيمة ، وأن يتجملوا بالآداب اللازمة الكاملة ، وأن يتزينوا بالفضيلة أكثر من بقية الناس . فأنت (القديس باسيليوس الذى كتب له) لا ترفض أن تســـامحنى لانى ما أردت أن أهلك نفسى عبثا وبدون فكر ... فأنا أعرف ذاتى وأعرف ضعفها وحقارتها وأعرف أهمية الخدمة وصعوبة العمل العظيم ... فأمواج الشهوات والآلام تهزم نفس الكاهن أكثر من الأمواج التى ترفعها الريح عن سطح البحر ، فتظهر قبل كل شىء صخرة المجد العظيم الأشد خطرا من صخرة سيرين (١) فمن عهد الى برياسة الكهنوت يكون قد أوثق يدى الى الوراء ودفعنى حيا الى تلك الصخرة لتفترسنى الوحوش . وما هى هذه الوحوش ؟ هى : غيظ ، ضعف ، حسد ، شتم ، أتهام ، شـــهادة زور ، رياء ، حيلة ، غضب نحو من لم يحزننا ، محبة المـــديح ، محبة الشرف ، التعليم لاظهار السلطة ، التمليق ، اللطافة بمقاصد ، احتقار المساكين ، خدمة الأغنياء ، المجد المضر ، الخوف الذى هو من خصائص الجبناء ، عدم الجسارة ، التظاهر بالتواضع ، عدم توبيخ الأغنياء ، وبالأحرى توبيخ الفقراء ، والاعراض عن الغنى السائد خوفا منه » .

---

(١) حيوان غريب كان على زعم الميثولوجيا يجذب الملاحين بنشـــائده الرخيمة ثم يهلكهم .

ثم تطرق الى ذكر ذنوب الكاهن فقال « انه (أى الكاهن) لا يقدر أن يخفى ما يرتكبه من الآثام ولو كانت طفيفة ، لأنها تصير معلومة لدى الجميع حالا . وأما الذنوب التى يرتكبها العـامة فتحـدث كما فى ظلمة وتهلك مقترفيها وحدهم ، بخلاف خطايا الرجل الشهير المعروف لدى الجميع فانها تجلب مضرة عمومية ، ولذلك يجب أن ينتخب للكهنوت من كان شبيها بالفتية القديسين الذين طرحوا فى الأتون البابلى . ويجب أن ينظر فى المنتخب الى أعمـاله الداخلية والخارجية وتقواه لا الى أعماله الظاهرة ... اننى أعرف كثيرين ممن كانوا يرضون الله فى خدماتهم بالتقشف والزهد ولكنهم لما دخلوا بين العالم وأخذوا فى تهذيبه فبعضهم لم يقدروا على هذا العمل وانسحبوا عنه . والفريق الآخر أجبروا على البقاء ولكنهم تركوا خطتهم السابقة فاضروا كثيرا بأنفسهم ولم ينفعوا الغير . وأنا لا أعد من قضى عمره فى وظيفة دنيئة أهلا للارتقاء الى وظفية عالية ... فعلى من أراد أن يشرطن أحدا أن يمتحن المشرطن وعلى هذا المشرطن أن يمتحن نفسه قبل الدخول فى الكهنوت ... وعلى الكاهن أن يكون متعلما وضليعا فى الكتاب المقدس وثابتا فى عقائد الايمان القويم ليتمكن من أن يجادل ويعظ ... بسبب عدم خبرة كاهن واحد يقاد كثيرون الى الهلاك . وعلى الخصوص يجب أن يهتم الكهنة بانماء موهبة الكرازة وخصوصا المتعلمين منهم فان غير المتعلم اذا لم يعظ لا يندد عليه الشعب ؛ وأما المتعلم فيقرع من الجميع . فعليه اذن بالتمرين لئلا يفقد موهبة الوعظ والانذار بسبب عدم التمرين عليها » (كتابه فى الكهنوت)

وقد وضع **القديس ايرونيموس** فى سـنة ٣٩٣ كتابا دعـاه « حيـاة الأكليروس » قاوم به ما أشتهر به بعض كهنة الغربيين من النقائص وقدم لخدام الكنيسة النصائح الثمينة التى تتعلق بخدمتهم . ننقل هنا بعض فقرات منه . قال : يجب قبل كل شىء على من كرس نفسه لخدمة كنيسة المسيح أن يفهم معنى أسمه ، ومتى فهمها عليه أن يجرى بموجبها . لأن كلمة أكليروس هى يونانية ومعناها ميراث أو نصيب ، وقد سمى الأكليروس هكذا لأنهم ميراث الرب أو لأن الرب ميراثهم ونصيبهم . فعليهم اذن أن يسيروا بحسب ما يطلبه اسمهم أى كأناس استحقوا الرب هاتفين مع النبى « الله هو نصيبى » وعليهم أن لا يميلوا الا الى الله لا الى الربح العـالمى الخسيس ، ليكون الله معهم والا فيقال عنهم ، رفضت ميراثى ... صار لى ميراثى كأسد فى الوعر نطق على بصوته من أجل ذلك أبغضته ... رعاة كثيرون أفسدوا كرمى . داسـوا نصيبى جعلوا نصيبى المشتهى برية خربة . جعلوه خرابا ينوح على وهو خرب (ار ١٢ : ٧ ــ ١٣) ثم قال هذا القديس : « أهرب من الكاهن الذى كان فقيرا ثم أثرى بواسطة معاطاة الأعمال التجارية كهربك من الأفعى والنار ، فان مثل هذا الكاهن الذى يهتم بأسباب المعيشة العالمية يحصل لنفسه اسما رديئا ... » ثم يوجه القديس الكلام الى الكاهن موصيا اياه الا يطمع فى مال

الغير وألا يقبل أى شيء كان حتى ولو على سبيل الهدية بقوله ، من يقدم لك شيئا وتقبله منه يقل احترامه لك ، وبالعكس يزداد احتراما لك اذا أعرضت عن هديته . لا تجتمع بالسهرات والولائم مع العلمانيين ، وأحرص من أن تشتم منك رائحة الخمر اذا كانت حرارة الشباب متقدة فى بدون أن أشرب خمرا فعلى بالابتعاد عنه لأنه لا يخلو من جزء يسير من السم .. ضع على نفسك من الأصوام بمقدار ما تقوى على احتماله . ولكن يجب أن تكون أصوامك نقية بلا لوم وبدون تظاهر وباعتدال ، لأنه ما هى الفائدة من الأمتناع عن المآكل المطبوخة بالسمن اذا كنا نعد لانفسنا مائدة تجمع الأطعمة اللذيذة المتعددة . وهل ياترى يكون صومنا صوما اذا كنا غارقين فى الملذات ، فالصوم الحقيقى هو المقتصر على الخبز والماء ... أبعد أيها الكاهن عن الملابس الفاخرة وعن الدنيئة أيضا ، لأن فى الأولى تظهر الفخفخة ، وفى الثانية يستتر حب المجد . فاذا كنت لا تلبس الثياب الناعمة يعد لك ذلك خدمة كبيرة وانما يكون لك الاحترام الزائد اذا لم يكن عندك دراهم كافية لابتياع الثياب ، والمضحك المشين هو أن يكون جيبك مملوءا من الأصفر الرنان وتظهر نفسك للعالم خاليا من منديل . طالع الكتاب المقدس بقدر طاقتك ، والأجدر أن لا تدعه من يدك ، وما يلزم أن تعلمه للغير تعلمه أنت أولا . أحتفظ لئلا تناقض أقوالك بافعالك فتحمل سامعيك أن يقولوا لك لماذا أنت لا تفعل مثل ما تعلم . وعندما تعلم فى الكنيسة لا تجتهد أن يمدحك سامعوك بل اجتهد أن يتنهدوا من عمق النفس . ولتكن دموع سامعيك دون سواها مديحا لك . رصع عظاتك بدرر الكتاب ولا تظهر الحدة فى الأنذار وتنادى بأعلى صوتك دون أن تدرى ما تفعل » .

وقال القديس غريغوريوس النزينزى « يجب أن نكون اطهارا لكى نطهر غيرنا ، وان نتعلم لكى نعـلم ، وأن نكون أنوارا لننير ، وأن نقترب من الله لنحمل غيرنا على الاقتراب منه ، وأن نقدس أنفسنا لنقدسهم » .

والخلاصة أن هذه الوظيفة هى وظيفة تكريس الذات لله وللناس . وتقتضى أن تكون حياة الراعى ضحية دائمة للجميع ، يفرح مع الفرحين ، ويتألم مع المتألمين . ويجب أن يكون فيه روح الرسول بولس القـــائل « من يضعف وأنا لا أضعف . من يعثر وأنا لا التهب » (٢ كو ١١ : ٢٩) « صرت للضعفاء كضعيف لأربح الضعفاء . صرت للكل كل شيء لأخلص على كل حال قوما . وهذا أنا أفعله لأجل الانجيل لأكون شريكا فيه » (١ كو ٩ : ٢٢ و ٢٣)

كلمة ختامية

هذه هى أسرار الكنيسة السبعة التى أسسها مخلصنا له المجد كينابيع بركات تفاض على المؤمنين ، تنبع من كنز استحقاقاته الخلاصية التى اشتراها لنا بدمه الكريم ، وعلى أعمدتها أسس كنيسته المقدسة كما قال الحكيم « الحكمة بنت بيتها • نحتت أعمدتها السبعة » (أم ٩ : ١) فالحكمة هى يسوع المسيح ربنا • والبيت الذى بناه هو كنيسته المقدسة ، وأما أعمدتها السبعة فهى الأسرار السبعة التى سلمها لرسله الأطهار ، ومنهم تسلمتها الكنيسة جيلا بعد جيل ، ولا تزال تمارسها لفائدة أبنائها وأعضائها •

واذا تأملنا رأينا أن هذه الأسرار تحيى فينا الفضائل الالهية الثلاث وهى الايمان والرجاء والمحبة • اذ تعلمنا أن الايمان هو الأساس الأول والشرط الذى لا بد منه للاشتراك فى كل سر من هذه الاسرار ، وأنه اليد التى تمتد لتناول البركات من يد المسيح نفسه مفيض النعم وواهب الخيرات وبالرجاء تنتظر أرواحنا النعم التى وعد بأن يفيضها بواسطتها ، حيث وعد بموهبة خاصة لكل سر منها ، فلنتوقع راجين نيل تلك الهبة الموعودة • وكم تفيض قلوبنا محبة وشكرا لمخلصنا الذى منحنا احساناته التى لا تحصى مجانا بلا ثمن • وكم نشعر بروح المحبة والآخاء لجميع المؤمنين عندما نعرف بأننا أعضاء بعضنا لبعض « لأننا جميعا بروح واحد أيضا أعتمدنا الى جسد واحد يهودا كنا أم يونانيين ، عبيدا أم أحرارا وجميعا سقينا روحا واحدا » (١ كو ١٢ : ١٣) « فاننا نحن الكثيرين لخبز واحد جسد واحد لأنا جميعنا نشترك فى الخبز الواحد » (١ كو ١٠ : ١٧)

ومتى تأملنا فى كل سر من هذه الاسرار مجدنا الله تعالى على نعمه وآلائه ، واعترفنا بجوده واحسانه ، وتذكرنا سقوطنا فى الخطية ، وتبريرنا مجانا بدم مخلصنا الكريم وتقديسنا بنعمة روحه الأقدس طالبين من الله تعالى أن يثبتنا فى ايمانه القويم • فاننا بالمعمودية اعترفنا أمام الله وأمام كنيسته المقدسة بأننا جحدنا الشيطان ورفضنا أعماله ، وأقبلنا الى مملكة النور ، وتطهرنا من خطايانا وولدنا ثانية ميلادا جديدا بالماء والروح ، وصرنا ابناء لله ووارثين الحياة الابدية • فمن لا يشعر بثقل الواجبات المترتبة على ذلك ، وأى اجتهاد يجب أن نبذله لنتمم خلاصنا بخوف ورعدة !!

وبسر المسحة المقدسة نلنا عطية الروح القدس ومواهبه ، لتثبيتنا فى الايمان والحياة الروحية ، ولتعليمنا وارشادنا ، فكم يجب المحافظة على هذه النعمة منتبهين الى قول الرسول « لا تطفئوا الروح » (١ تس ٥ : ١٩)

« اذن لا شيء من الدينونة الآن على الذين هم فى المسيح يسوع السالكين ليس حسب الجسد بل حسب الروح » (رو ٨ : ١) « أما ثمر الروح فهو محبة فرح سلام طول أناة لطف صلاح ايمان وداعة تعفف » (غل ٥ : ٢٢ و ٢٣)

وبتناولنا سر الافخارستيا نأكل جسد الرب ونشرب دمه ، ونقتبل فى داخلنا يسوع المسيح نفسه • وبهذا نثبت فيه وهو يثبت فينا ، وننال الحياة الأبدية • ونذكر ذبيحته الكفارية التى قدمها على الصليب من أجل فدائنا وتبريرنا • فبأى تهيب نقبل الى هذا السر الاقدس ، وكم يجب علينا أن نستعد لاقتباله بكل ورع وايمان ومحبة ، وقلب مملوء بالشعور الحى لنيل هذه الذخيرة المقدسة •

وبسر التوبة نتصالح مع الله ونتقدم اليه بالانسحاق والخشوع ، ونعترف بخطايانا نادمين عليها عازمين على عدم العودة اليها ، لنعيش بالتقوى حتى نثمر أثمار التوبة الحقة (مت ٣ : ٧)

وبسر مسحة المرضى نلجأ الى الله تعالى عند المرض قبل الالتجاء الى الأطباء ، وبه ينال المريض ليس شفاء الجسد فقط ، بل شفاء الروح أيضا • وبذلك نبارك الله ونخصص حياتنا لمن بيده أمرنا •

وفى سر الزيجة يرتبط الزوجان برباط مقدس ويكونان جسدا واحدا ، ويعدان بأن يعيشا بالأمانة والصلاح ، ويربيا أولادهما التربية المسيحية المطلوبة لمجد الله وخير الكنيسة •

أما الذين ينتدبون الى الوظيفة الكهنوتية فينالون نعمة من الله وسلطة لتدبير أمور الكنيسة ، واتمام طقوس الأسرار المقدسة فكم يجب عليهم أن يتقدسوا ليقدسوا غيرهم وينتبهوا الى واجباتهم العظمى ليرعوا كنيسة الله التى اقتناها بدمه (اع ٢٠ : ٢٨)

هذه أيها القارىء أسرار الكنيسة السبعة المقدسة ، مبرهنة بأقوال الكتاب وشهادة التاريخ وأقوال الآباء • ولقد اتضح لك أنها مؤسسة على الحق ، فانثبت على صخرة الايمان المستقيم ، لاجتناء فوائد وأثمار هذه البركات باستحقاق ، لننال فيض النعم ونحصل على مواعيد الله ، فى هذه الحياة الدنيا وفى الحياة الأبدية •

ولربنا المجد دائما أبديا آمين ؟

الطبعة الرابعة : { برمودة ١٩٦١
ابريل ١٩٧٥

كلمة المراجع

حمدا لله الذى أتاح لى فرصة أشبعت فيها حنينى الى أيام التلمذة بالكلية الاكليريكية على يد الرائد العظيم والوالد المحب والأستاذ العالم الأرشيدياكون حبيب جرجس مدير الكلية السابق رحمه الله • فقد كانت مراجعتى لهذا الكتاب دراسة جديدة لى وامتلاءا يزيد اليقين بسمو العطايا الروحية التى لنا فى أسرار الكنيسة المقدسة

وكانت مهمتى هى المراجعة لتدارك خطأ مطبعى أو سهو • ولكن تحقيقا للغرض المقدس من وضع هذا المؤلف الثمين وتكريما للجهود الجبارة التى بذلت فى وضعه وتنسيقه ، رأيت أن أوضح فى الهوامش ما قد يعسر فهمه على بعض القارئين •

واذا كانت جمعية المحبة وعلى رأسها الأستاذ يونان نخلة قد قامت بجهود مشكورة فى خدمة الكنيسة والمجتمع والانسانية فان اهتمامها بنشر الثقافة الدينية عن طريق طبع المؤلفات وتوزيعها تجاوب — لا سيما فى هذه الأيام — مع وزارة التربية والتعليم فى هـــذا الشـــأن وأن الجمعية لتستحق الثناء والتشجيع •

أرجو أن يعرف المؤمنون قدر هذا المؤلف لينالوا من مناهله العـــذبة وتتعذى وتشبع نفوسهم من دسمه عزاء وسلاما بصلوات قداسة البابا المعظم الأنبا كيرلس السادس وسائر الآباء الموقرين •

ولالهنا المجد والكرامة من الآن والى الأبد • آمين •

١٩٦٨/٨/١٦

الراجى عفوه
القمص
ابراهيم عطية

محتويات الكتاب

تمهيد

١ ـ سر المعمودية

٢ ـ سر الميرون

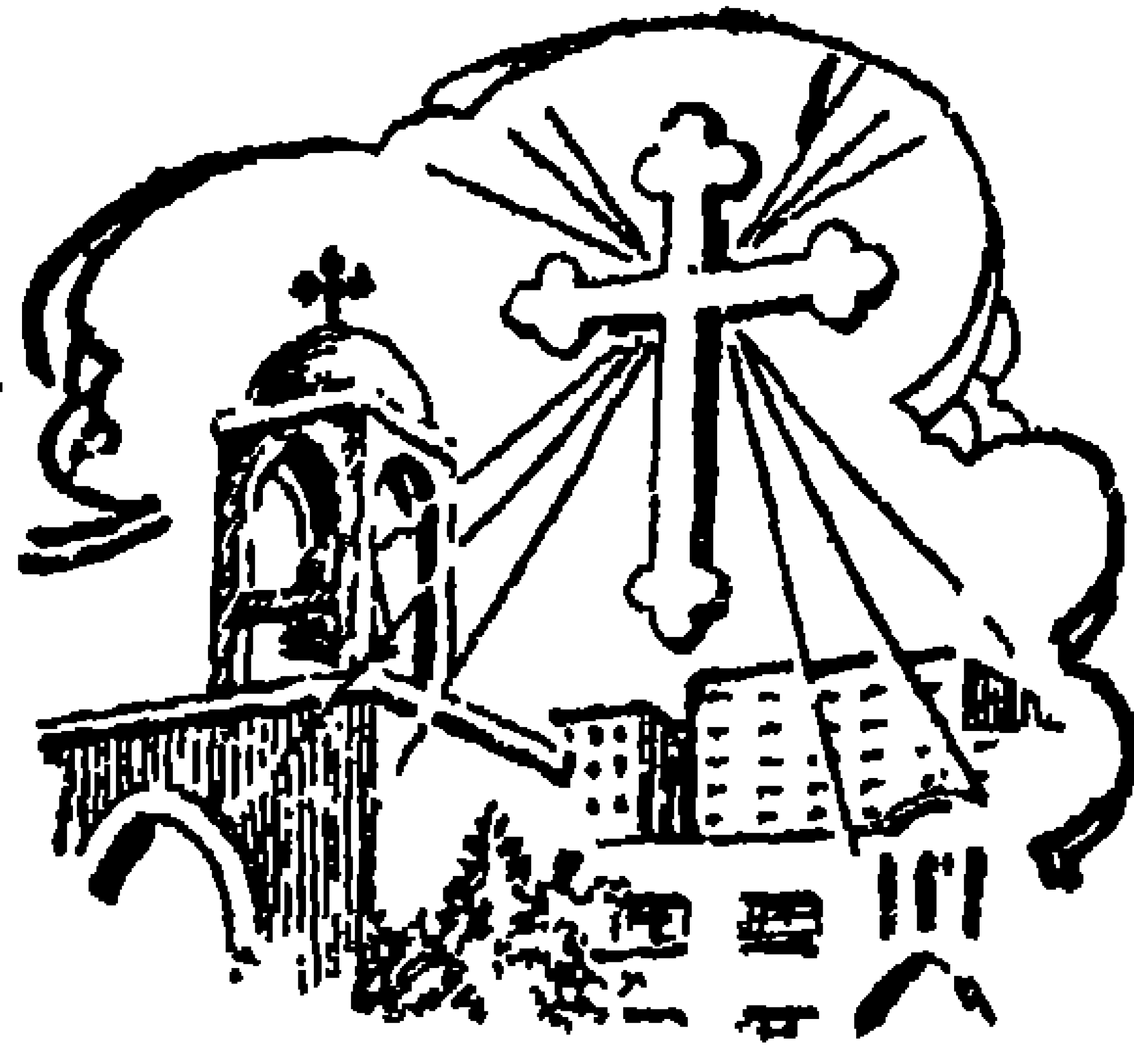
٣ ـ سر الشكر أو الأفخارستيا

٤ ـ سر التوبة

٥ ـ سر مسحة المرضى

٦ ـ سر الزيجه

٧ ـ سر الكهنوت



مطبعة دار العالم العربى


دروس التربية الكنسية
كتب • صور
ميداليات • هدايا
اسطوانات دينية
ادوات كنسية • برونز
مكتبة المحبة
ت ٩٠٣٨٢٥